الاغتصاب

الكتاب : **الاغتصاب** (رواية)

المؤلف : الهادي ثابت

الطبعة الأولى . القاهرة ٢٠٠٨

رقم الإيداع : ١٩٢٣ / ٢٠٠٨

الناشر : **شمس للنشر والتوزيع**

٨٠٥٣ ش ٤٤ الهضبة الوسطى. المقطم. القاهرة

ت/فاكس: ٠٢ ٢٧٢٧٠٠٠٤ (+٢) – ٠١٨٨٨٩٠٠٦٥(+٢)

www.shams-group.net

الغلاف : الفنان أمين الصيرفي

رواية

الاغتصاب

الهادي ثابت



(١)

في زقاق من أزقة حي البرج المتشعبة، الضيقة، الملوثة بالأتربة، الناشرة على الدوام روائحَ كريهة متأتية من المجاري المكشوفة، المتسربة بين حنايا الأزقة، تجمَّع أربعة صبية في وسط الزقاق يلعبون الكجَّة. كانوا منهمكين بكل حماس في اللعب، يعلو الضجيج من حولهم، يتخاصمون أحيانًا، ويتسامحون أخرى، غير مبالين بقذارة المكان ولا بالأتربة التي تلطِّخ وجوههم، وتكسو أسمالهم البالية. كانت رغبتهم الوحيدة هي الفوز بكجَّة بلورية محشوة ألوانا فاقعة تتلألأ.

في هذا اليوم بدأ اللعب هادئًا، لم تعكِّر صفوه المشاكسات. وقبل الجميع بقوانين اللعبة، وكان الحماس على أشدّه، وكانت الأعين متقدة تنظر إلى الحفرة الصغيرة وهي تبتلع الكجَّات، ثم تتنقل إلى الإصبعين - السبابة والإبهام - يصوِّبان الكجَّة بكل دقة نحو كجَّة الخصم فتصدمها؛ وتتدحرج الكجَّتان وخلفهما القناص يتلهّف على الفوز بها، ومن ورائه صاحب الكجَّة الخاسر وأثر الهزيمة ظاهرٌ على وجهه.

ولكن وقبل أن تنتهي اللعبة أعلن أحد الخاسرين أن في اللعب حيلة ومؤامرة، وأنه عليهم أن يعيدوا له كجَّاته التي خسرها وإلاَّ استنجد بأخيه الأكبر. وانفجر يصرخ باكيًا، مما أربك رفاقه في البداية، لكنهم تجاهلوا طلبه، وعادوا إلى اللعب غير عابئين بتهديدات رفيقهم الذي توجه نحو بيته يجر رجليه متوعدًا.

توقفوا عن اللعب، وبقوا ينظرون إلى بعضهم بعضًا، وقد اعترتهم الحيرة. عليهم أن يلوذوا بالفرار، لكنهم في هذه الحالة لن يكون بإمكانهم اللعب في المستقبل، دون أن يعكِّر عليهم أخو هذا المدلل الأحمق صفو اللعب.

وظهر الطاغية. قدِمَ يترنح، يتمايل بكتفيه، ينظر إليهم بازدراء واحتقار. وفي لحظةٍ من الارتباك، توجهوا بسرعة البرق إلى حظيرة مهجورة، تسلحوا منها بقضبان حديدية، وتسللوا مختفين خلف الجدران حتى أدركوا ركنًا تمكنوا من خلاله أن يروا غريمهم يتقدم دون أن يراهم.

تقدم الشاب القوي المتباهي بعنفوانه، غير مبالٍ باختفاء الصبية فجأة، وغير معتبر للخطر الذي يترصَّده. كان القدر ينتظره. وما إن وصل ركن الجدار حتى انهالت عليه قضبان الحديد من كل صوب. أدركته الأولى على رأسه ففقد توازنه، ولم يعد في إمكانه التصدِّي. كانت المفاجأة عظيمة، وكانت الضربات موجعة فوقع على الأرض، ولكن أيدي الصبية لحقته، لتهوي على رأسه بقضبان الحديد، ونزف الدم وغمر كامل الوجه، ولم يعد الشاب قادرًا على التصدِّي، لقد فقد وعيه.

علا الصراخ وفزع الجيران، ففر الصبية تاركين الشاب طريح الأرض تكسو رأسه الدماء. وما هي سوى لحظة حتى امتلأ الزقاق. هبَّ الناس وفزعوا. وكانت أمه تصرخ وتستغيث، تلطم وجهها وفخذيها. والشاب أمام الجميع تسيل دماؤه. وفجأة شق الجموع شابٌ وسيم، طويل القامة، مفتول العضلات وصرخ في الجموع التي ما فتئت تتكاثر:

- احملوه إلى المستشفى إنه يموت.

حملوا المصاب على متن تاكسي إلى المستشفى حيث قضى نحبه.

(٢)

عاد العاتي بخطًى ثقيلة متردِّدًا، حزينًا على موت الشاب الذي اصطحبه إلى المستشفى وترك جثمانه هناك حتى ينتهي التحقيق في الحادث. كان العاتي مشغول البال، لم يستسغ ما سمعه عن الواقعة. بقي يردِّد داخله مرات سؤالاً يترجم فظاعة ما حصل: " أيقتل الصبية؟." ولم يكن العاتي وحده يردِّد السؤال، كان كل كبار الحي يتناقلونه. والعاتي رغم حداثة سنه يُعتبر من كبار الحي. يحترمه الجميع لرجاحة عقله، وسموِّ أخلاقه، واستقامة سلوكه. والعاتي من الشبان القلائل الذين واصلوا تعلمهم، وقد نال شهادة مكَّنته من عمل قار في أحد المصانع. كان يشغل خطة رئيس ورشة. ولذلك يلقِّبه بعض مقربيه من الشبان بـــ"الشاف". وتتباهى أمه العجوز به أمام الجيران، تعتبره سيد البيت، وكان هذا الاعتبار منذ أن كان العاتي صبيًا. إنه الولد الوحيد في الأسرة، وهو أصغر أطفالها الأربعة. مات أبوه وتركه رضيعًا. وكفلته أمه، وسهرت على تربيته، وعانت في ذلك معاناةً كبيرة. ولكنها ربته أحسن تربية رغم فقدان الأب.

عندما عاد إلى البيت حزينًا، فزعت أمه، وجلست قربه على الكنبة تسأله ما حلَّ به حتى يعتريه كل هذا الحزن. ولما روى لها الواقعة تحسرت قائلة: "مسكينة أمه سوف تُجن من اللوعة... ولكنه قدره. كُتب له أن يموت وهو في عنفوانه". وظلَّت تمسح على كتف ولدها، تريده أن ينزع عنه حزنه. ثم نهضت وقالت له: "سأحضر الغداء". أومأ لها برأسه أنه لا يريده، فانصرفت وتركته مع همومه متيقنة أنها لن تثنيه عن التفكير في ما حصل. تعرفه مفرط الحس، يتأثر لكل ما يقع لأهل الحي. ولكنها عادت بعد برهة من الزمن تحمل المائدة فوقها طبق الكُسكسيِّ تفوح رائحته الذكية. رفض العاتي الغداء رغم إلحاح

أمه، وبقيَ يلوك تلك الأفكار السوداء التي تملكته بعد أن لفظ الشاب أنفاسه بين يديه وهو يحمله إلى المستشفى. كانت تلك الصورة تؤلمه، ولم تُمح من مخيلته رغم كل المحاولات.

غطت أمُّه قصعة الكُسكُسي وانصرفت إلى غرفتها. لا يمكنها تناول الطعام قبل أن يأكل منه العاتي، كانت تلك عادتها، لم تحد عنها أبدًا منذ أن أصبح العاتي ينفق على البيت. ولم يتفطن العاتي لوجوم أمه لأنه مازال مشغولاً بصورة الرأس تنزف دمًا رغم الخِرَق التي كانت تلفه. ولم يجد أيَّ جوابٍ مقنع عن تساؤله الذي بقي يطنُّ في دماغه، ينتشر داخله كالصَّدَى في قاع بئر عميقة". أيقتل الأطفال؟. أين البراءة؟. أين موازين القوى ؟. شاب في عنفوانه يقتله أطفال؟. ولماذا؟. القدر. لكل حدث أسبابه. وهناك أسباب ظاهرة وأخرى باطنة".. تعلم هذا المنطق منذ انخراطه في التنظيم.

كان ينظر إلى سقف الغرفة تتخلله عوارض الحديد مطلية بدهن أزرق، تمتد متوازية من طرف الجدار إلى طرفه المقابل، وكان شارد الذهن يتفحص الحادثة وكأنه عالِم الاجتماع، سلاحُه تلك الكتيبات الحمراء التي كان يزوده بها التنظيم. "العنف منتشر في الحي كانتشار الروائح الكريهة والمياه المتعفنة والغبار الذي يسبغ تلك البيوت القصيرة متحدِّبة الجدران. لماذا الاستغراب من أن يقتل الأطفال؟. يعيشون العنف في كل فترات حياتهم. يرون منذ الرضاعة الأب يعنِّف الأم. وعندما يكبرون قليلاً يقبلون أن يعنِّف الأخ الكبير أخاه الصغير. وعندما يذهبون إلى المدرسة يرون المعلم يعنِّف التلاميذ لأدنَى سبب. العنف جزءٌ من حياة هذه البشرية".

لم يتربَّ العاتي على العنف لأن ظروفًا خاصة أحاطت بتربيته. مات رب العائلة، مصدر القوة، وبقيَ العاتي يعيش بين النساء: أمه وأخواته الكبريات، فترعرع بين الأحضان، مدللاً، مبجلاً. وربته أمه على احترام النفس. فنشأ خارج بوتقة العنف التي تعصف بالحي. ولكن العاتي يريد أن يغيّر ما جبلت عليه هذه البشرية التي تنخرها التعاسة. "العنف في الحي هو تعبير عن الذات، هو الوجود نفسه. لا يمكن لأهل الحي العيش خارجه لأنه يسحقهم". توصل العاتي إلى هذه النتيجة. فلا غرابة إذن أن يقتل الأطفال.

و لم تكن هذه أول جريمة قتل تقع بالحي. ألم يقتل" السبتي" عروسه ليلة الزفاف؛ لأنه وجدها مفتضة البكارة؟. ألم يقتل الميزوني أخته لأنه ضبطها تزني عند العطار؟.

نهض فجأة؛ وكأن حشرة لسعته، ثم خرج من حجرته إلى بهو البيت. ملأ طاسة بالماء وصبها في إناء وغسل وجهه وفرك عينيه، ثم غادر البيت دون أن يُعلم أمه. وانحدر يشق الزقاق الرئيسي الوحيد الذي يفضي إلى الشارع المعبد. وأثناء الطريق لاحظ حركة غير عادية بالحي: رأى جموع السكان في حلقات يتجادلون. لم يكن من طبعهم النقاش أو الحديث في الشؤون العامة. إن تجمعوا فلخصام أو لحفل. أما اليوم فلم تعلُ أصواتهم، و لم تكفهر وجوههم، كان الحزن جاثمًا عليهم، يتحدثون برصانة، يحللون أسباب الحادثة كما كان يفعل العاتي منذ قليل. وسمع أسئلة تتردّد من مجموعة إلى أخرى: "لماذا قتلوه؟.... أيعقل أن الأطفال يخططون للقتل؟.... كيف يحصل كل ذلك ولا يتدخل أحد..؟.". استفسر عن هوية ومصير الأطفال الثلاثة، وعلم أنهم عند الشرطة للتحقيق. كارثة أخرى تضاف إلى تعاسة أهلهم. ولكنه واصل يشق الزقاق في اتجاه المدينة.

(٣)

كان الليل يبسط ظلمته، وقد ظهرت السماء مطرزة بالنجوم. والبيوت الجميلة على جانبيِّ الطريق تتلألأ نورًا، يفوح من حدائقها شذا ذكيٌّ، دفع عن العاتي همومه، فأحسَّ أن في الدنيا متعة، وأناسًا سعداء، وحياة هادئة لا يعكر صفوها العنف ولا البؤس. وأحس بالتباين بين عالم حيه الرَّديء الخانق بروائحه النتنة، وبيوته المتراصة كصناديق التعبئة، وأزقته الملتوية، وشبح الموت الجاثم على سمائه، وهذا العالم الجميل الأنيق بشوارعه تسكب فوقها الفوانيس رذاذًا من النور، وبيوته المتناسقة المتباعدة، وهوائه المعطر العليل، وهدوئه المريح. "هذه الدنيا لم تخلق للفقراء" غمغم داخله، ثم أسرع الخُطى وكأنه يستعجل نهاية هذا الحي.

وما إن وصل إلى "باب العسل" وانغمس في خضم المارَّة داخل المدينة العتيقة حتى نسيَ ضيقه، وانشرح وكأنه ترك وراءه براري مخيفة. كان لازدحام البشر من حوله تأثير كبير على نفسه. أحس بالدفء يلفه، وشعر بالمدينة تحتويه، وحتى تلك الروائح المتناقضة لم تثر فيه النفور؛ بل شعر وكأنه يسبح داخلها كالسمكة في ماء مألوف. كانت المدينة العتيقة ملاذه تخلصه من همومه. يلجأ إليها كلما شعر بالضيق، ويستغرب أن أهلها يهجرونها إلى العمارات والأحواز البعيدة التي كانت أرضها سباخًا مترامية الأطراف لا تصلح للسكن. المدينة تنبض بالحياة رغم ضيق أزقتها. وللعاتي قصة حب مع المدينة، إنه يعشقها وكأنها فتاة أحلامه. يترل إليها من الحي كل يوم، بعد أن يعود من العمل مرهقًا. ينتزع ثيابه، ويضع سترته الجميلة وحذاءً ملمعًا، ويدلك جلدة يديه مرات حتى يترع منها زيوت المحركات، ثم يتعطر وينصرف إلى ملاقاة المدينة متلهفًا إلى أزقتها، وإلى

جدرانها العالية، وبيوتها المقفلة، تنفرج له أحيانًا عن وجوه حسان سرعان ما تتوارَى خلف الستائر.

♦♦♦

وصل العاتي إلى دكان الخياط، وكان هو آخر من وصل. وجد أصدقاءه ينتظرونه فوق السُّدة ملتفين حول مائدة قصيرة. نظر إليه الجميع متلهفين إلى أخباره، ليس من عادته التأخر. قال بعد صمتٍ ثقيل:

- لم يكن في مقدوري أن أجيئكم اليوم، فقد وقع حادث أليم في حيِّنا. تصوروا أن صِبيةً قتلوا شابًا في مُقتبل العمر ولأسباب تافهة.

- وكيف وقع ذلك؟. طعنوه بسكين؟. سأل عمران.

- ولا حتى بالسكين. لقد انهالوا عليه بقضبان الحديد حتى هشموا رأسه.

وسرد عليهم كل أطوار الحادثة.

- وما الغرابة في ذلك؟.

تساءل عليٌّ أصغرهم سنًا وأكثرهم تطرقًا. وبعد فترة من الصَّمت أضاف:

- ألم تقل إن الشاب كان متجبرًا قاهرًا يعتدي على الصبية بكل عنجهية؟.

لم يُجبه العاتي فتمادى يشرح:

- لكلِّ متجبرٍ نهاية تعيسة. ولكل مقهور انتفاضة. إنها قوانين الطبيعة. عليك أن تفرح لما فعله هؤلاء الصبية يا العاتي. فقاطعه عمران:

- لا تخلط يا عليّ؛ فقانون الطبيعة يلزم الضعيف بالإذعان لإرادة القوي. الطبيعة لا تتحمل العصيان ولا الانتفاضة. الإنسان وحده يثور على قوانين الطبيعة.

فعاد عليٌّ يشرح من جديد:

- ربما أخطأت في تسمية الأشياء، كان عليَّ أن أقول قوانين المجتمعات البشرية. ألم يقل ماركس إن الغلبة ستكون لطبقة البروليتاريا في نهاية المطاف، وإن ذلك التحول سيخلص

البشرية من العبودية؟. فالأطفال بفطرتهم عبروا بكل تلقائية عن تلك الحتمية التي ذكرتها. أليس كذلك؟.

كان العاتي متضايقًا من هذا الجدل العقيم، فحيه يعيش ألمه وتعاسته، محاصر من كل الجهات بأحياء تتوفر فيها كل مرافق العيش الكريم، وأصدقاؤه لا يزالون يناقشون قراءات لم يهضموها بعد. لماذا يعقدون الأمور". الصبية قتلوا لأن العنف هو الوسيلة الوحيدة التي بقيت بين أيديهم للتعبير عن ذاتهم وعن وجودهم. وأهل الحي فهموا جيدًا هذه الحقيقة، فكان حزنهم مضاعفًا. لن يمكنهم التخلص من العنف. وقد يؤدي العنف إلى الجنون كما حصل للأطفال". لكن أصدقاءه بقوا يناقشون ما إذا كان يحكم تصرف البشر قوانين الطبيعة أو إرادة الأفراد، وطال جدلهم، ولم يتوصلوا إلى نتيجة. فصاح فيهم:

- ألا يمكنكم التوقف عن هذا الجدل البيزنطي.

وخيَّم الصَّمت على الدكان. ولم يبق يسمع سوى مقص الخياط يرن. ورغم الضجيج الذي يملأ الشارع فإن دكان الخياط كان بمعزلٍ عنه، تصله الأصوات متمازجة لكنها لا تتخطى العتبة كالنسيم العابر على السطوح. كان النور خافتًا فظهر الأصدقاء الأربعة كالأشباح فوق السُّدة يجلسون على كراسي قصير بلا ظهور، أمامهم طاولة مهترئة أحدثت فوقها بقايا السجائر حروقًا سوداء منتشرة على أطرافها.

◆◆◆

يوجد دكان الخياط في طرف الشارع الذي يصل حي "الحفير" داخل المدينة العتيقة، ببداية المدينة العصرية. وكان ذلك الشارع يعج بالضجيج: صياح الباعة، وأحاديث المارَّة، وعويل سيارة تريد شق طريقها بين الأجسام المتراصة. رجال وأطفال ونساء جاءوا لقضاء حوائجهم قبل أن تغلق المتاجر أبوابها. وامتزجت كذلك الروائح والألوان بتنوّع السلع المعروضة. فهذا الشارع/ السوق لا يعترف بالتنظيم المحكم للتجارة في

المدينة العتيقة، كل أنواع المتاجر موجودة ومتمازجة: فهذا يعرض عطورًا في قوارير مختلفة الأحجام والألوان تنشر على مدى الشارع/السوق روائح ذكية. وذاك يكدس أمام دكانه أكياس الحناء والتوابل والفاكهة الجافة تتدلى فوقها عناقيد الشموع المزركشة بالأحمر والأخضر. وأمامه تنتصب زاوية سيِّدي الحلفاوي تأتيها النساء ملتحفات مصطحبات أطفالهن فيكويهم صاحب الزاوية، ويعلق في رقابهم خيطًا رقيقًا، ينقطع حالما يشفَى المريض من عوارض الفجعة و"بوصفير".

أما داخل الدكان فقد خمدت الحركة، وسيطر السكون، وبهتت الألوان لقلة الإضاءة، وكسا الجو دخانُ السجائر، ينفثونه من حولهم، فيكوّن فوق رؤوسهم سحابة تطفو في سماء السُّدة. ولم يكن ضجيج السوق يصلهم، فكأنهم في عالم آخر. وانزوى كل منهم على ذاته وقد سيطر على أذهانهم هاجس العنف. تفطنوا أن العنف الذي تحدث عنه العاتي ليس حادثة عابرة في مساحة لا تتعدى حيز حي شعبي فقير.

تكلم العاتي بهدوء وبصوتٍ خافتٍ وكأنه يحدث نفسه:

- أظن أن حدثًا سيقع في الحي. رأيت الناس هناك متجمعين يتحادثون. لقد كان للحادثة أثر في نفوسهم، ولن يترك الشبان الجنازة تمر بسلام، لا بُد أنهم سيشيعونه بالهتاف كما جرت العادة عندما يكون الميت شابًا. وتعرفون قوانين البلدية التي تحرم تلك التظاهرات.

قال عليٌّ متحمِّسًا:

- جميلٌ، وليكن الصدام!.

لكن عمران أجابه:

- إنك كالصبي لا ترى أكثر من موضع قدميك. يقول لك إن القانون يمنع تلك التظاهرات، وذلك يعني أن السلطة ستتدخل بعنف ولن تسمح بتجاوز القانون.

أجابه عليٌّ متهكمًا:

- رأيت كيف أن العنف يسوس المجتمع. إذن فليرد الشبان على العنف المقنن بعنف اليائس وواحدة بواحدة.

تدخل العاتي بعصبية:

- عدنا إلى النقاش البيزنطي. إذا ما أراد الشبان دفن الميت بالصخب وتعنتت السلطة على منعهم فالصدام سوف يكون أعنف مما تتصورون.

وخيم الصَّمت من جديد. فهم عمران مقاصد رفيقه. ولكن التنظيم لا يمكنه أن يواجه السلطة، لم تحن بعد مرحلة المواجهة. ثم إن للتنظيم هياكله، وقرار مثل هذا يتطلب تحاليل معمقة وخطة شاملة. عاد العاتي يتحدث بهدوئه المعهود:

- هذه فرصتنا للتأكيد لأهل الحي أننا نساندهم.

لكن عمران أسرع بالإجابة:

- التنظيم لا يمكنه في المرحلة الراهنة مساندة العصيان، لأن ذلك يتطلب خطة لم تنضج بعد.

ثم وقف وأطل من فوق السُّدة على الخياط؛ ليتأكد أنه لا يستمع إلى حديثهم. عاد ليجلس ثم حنَى ظهره وأعلن بفتور:

- سأحيط القيادة علمًا بالوضع، وهي التي تقرر.

وعاد الصَّمت.

تململ عمران على كرسيه القصير، وشعر أن العاتي غير مرتاح لقراره. ماذا عساه أن يصنع؟. أيضع التنظيم في خطر؛ من أجل أن تدفن مجموعة من الشبان- لا ينتمون حتى إلى التنظيم - شابًا متهورًا؟. "العمل الثوري تفكير، وتحليل، وخطة ناجعة، ونظرية علمية، وشعور بالغبطة لهذه الخلاصة". لكنه لم يقدر أن ينظر إلى العاتي الذي بقي يلوك داخله جملة رفيقه: "القيادة تقرر.."

◆◆◆

وبينما هم في صمتهم بدأت خطوات ثقيلة تصعد السلم الخشبي محدثة إيقاعًا مزعجًا. أطل الخياط. كان رجلاً قصير القامة، وسيم الطلعة، بدينا. اقترب من الطاولة واستفسرهم بصوت أنثوي:

- كنت أحسبكم نيامًا.

أجابه عمران مفتعلاً الابتسامة:

- لم تأت لنا بما يدفع عنا الغم.

- ومن سيدفع؟.

- لم نلعب بعد، ولكن اطلب لنا كالعادة قوارير البيرة، ولا تنس صحن المرقاز...

قاطعه الخياط ضاحكًا:

- وماذا بعد؟. ألا تريد بنتًا؟.

واندفع يقهقه. أخرج عمران أوراق اللعب وأخذ يخلطها، وزع الأوراق ثلاثًا على رفاقه. وانبرى الخياط يطوف بين الحاضرين يتصفَّح أوراقهم، ثم توجه نحو الدرج يترله، وفي وسط الطريق أعلن:

- لقد رفع اليهودي في سعر البيرة. نصف دينار القارورة الواحدة.." طزينة" كالعادة؟.

وعادت خطواته ترتطم بالسلم الخشبي. وانهمكت المجموعة في اللعب. بقي العاتي يلوك داخله فرضية أن شبان الحي يتحدون السلطة. وماذا يمكنه أن يصنع؟...ولكنه لم يرضَ أن يكون عاجزًا. لا بُد من صنع شيء. لماذا انضوى تحت لواء تنظيم ثوري إذن؟. أيبقى يتفرج على إخوانه في الحي تفتك بهم الهراوات الغليظة؟... وتفطَّن عمران إلى شروده، فدعاه إلى اللعب قائلاً:

- لا تتعب نفسك في التفكير، لن تصنع من شبان حيِّكَ ثوَّارًا. المواجهة بين رأس المال والبروليتاريا لا تقع في الأحياء الشعبية. إنها معركة طويلة المدى. والانتصار فيها سيكون في صالح القوى المنتجة، كل الطبقات الطفيلية سوف تذوب. هذه جدلية التاريخ.

لم يقتنع العاتي بهذا الكلام الفضفاض. ماذا يعلم هو عن تاريخ تلك البشرية المكدسة في الأحياء القصديرية كالسردين تترقب الاستهلاك؟. لم يرها وهي تتصرف وكأنها في عصور الجاهلية: "الفراشيش" ضد" جلاص"، و"الهمامة" ضد "أولاد عيار"، و"المثاليث" ضد"ماجر"... هذه البشرية لا تعترف بالتاريخ الذي يتحدث عنه التنظيم يا عمران، إنها خارج بوتقة التاريخ. عليك أن تراجع تحاليلك... بل عليك أن تقيم بين هؤلاء البشر؛

وستعرف أن التاريخ توقف عند أبواب الأحياء القصديرية، و لم يتخطها، أو هي عادت به القهقرَى".

صعد الخياط حاملاً القُفة يتمايل بين الدرج المرتجفة، ثم أعلن متضاحكًا:

- اليوم بيرة وغدًا حيرة.

يجيبه عمران مستفسرًا:

- ولماذا الحيرة والعاتي قد خسر المقابلة؟.

لم يجبه الخياط بل أخذ قارورة بيرة من القُفة، وانتزع منها المكبس المذهب، ومدَّها إليه معلنًا:

- صفراء...

قاطعهُ عمران:

- بل قل ذهبية، مخضرة، يندى من وقارها الفجر.

- لقد سكرت من رائحتها.

ثم التفت إلى الجماعة مستفسرًا:

- ألم يعلمكم بما حصل لجاره "موح"؟.

أجاب عمران بسرعة:

- قالوا إنه قتل رجلاً.

- وهل تعرف الرجل؟.

- لا.

- إنه شاب يسكن الحلفاوين. لم يتجاوز العشرين من عمره.

ترقب أن يسألوه عن أطوار الحادث لكنهم ظلّوا منشغلين بالأكل والشرب. وبعد لحظة من الترقب، انبرى يقصُّ عليهم الحكاية:

كان "موح" على علم بعلاقة زوجته بذلك الشاب...لأن أصحاب السوء لا يتركون أحدًا في راحة... قدم في أحد الأيام خلسة. كانت زوجته تعتقد أنه في العمل، وكانت

كذلك تهوى ممارسة الحب في الصباح، ربما لأنها بالليل لا تجد ضالتها... فتح "موح" الباب بحذر شديد دون أن يحدث أي صوت... ودخل بيته كاللص على أطراف أصابع قدميه... ودفع باب الغرفة...

قاطعه عمران:

- كأنك كنت حاضرًا.

لم يعبأ به وواصل حكايته:

" فر العشيق في لباس آدم، بعد أن دفع الزوج المخدوع، وصعد فوق السطح. ولكن "موح" لحق به وهو يصرخ شد...شد..".

توقف لحظة، ثم ملأ فمه بيرة، وبقيَ يتجرعها ببطء، والوجوه مشرئبة إليه تترقب النهاية. وبعد فترة من الصَّمت توجه بالسؤال لعمران:

- هل تدري كيف قتلهُ؟.

- لقد أدركه "بترنجه"، وأفرغ فيه شحنة مسدسه.

حمل الخياط قارورة بيرة، وعاد يترل الدرج بخُطًى ثقيلة. وخيَّم الصَّمت من جديد على الدكان.

♦♦♦

رنَّ صوت أم كلثوم، ملأ الدكان وكأنه نابع من كل مكان، وأخذ يتموَّج، يصعد إلى السُّدة، يخترق الرؤوس الحائرة، فيمتزج مع كحول البيرة، وتتضاعف النشوة.

"أطاوع في هواك قلبي... وأنسى الكل..". نسي العاتي همومه، ونسي رفاقه كل شيء. نسوا رداءة الدنيا وتشعباتها، نسوا شقاوة الحياة ورتابتها، نسوا حتى مشروعهم الثوري ومتاهاته، ولم يعد يشدهم إلى هذا العالم سوى صوت أم كلثوم السلس الصافي كالماء الرقراق، يتموج في فضاء الدكان، يملأ السُّدة وكأنه يكنس من فوق رؤوسهم غمامة دخان السجائر التي تطوّق نور الفانوس.

كان الصَّوت دافئًا فعمَّ الأجسام واحتواها وخلصها من انكماشها، فطابت نفوسهم بشذا النغم، وأخذهم دوار خفيف مسلٍّ يعبث برؤوسهم ويعطي أجسادهم تموُّجات خفية، تشعرهم بأنهم يدورون في حلقات مركزية ما فتئت تتسع مع تكرار المقطع، فتوحي لهم بالحنين إلى الماضي البعيد، وتحلق الذكريات في أصقاع الزمان و لكنه الزمان الذي فقد أبعاده، يدور حول نفسه في تلك الحلقات المركزية المتسعة المنكمشة متبعة تموجات النغم.

حتى العاتي عمته النشوة، وتمايل رأسه مع نغمات أم كلثوم، وأخذ يكرِّر المقطع داخله: " أطاوع .. أطاوع .. أطاوع..". وتُعاد الكلمة مراتٌ ولا يملها العاتي؛ بل يتمنى أنها لا تنتهي من تكرارها. وشيئًا فشيئًا يندثر الحاضر و لم يعد يشعر بوجوده فوق السُّدة. أصبح طيفًا يحلق في أصقاع الزمان. وزمان العاتي في هذه اللحظة ماضيه؛ لأن الحاضر مُقرف والمستقبل مُضبب. ويرتمي في الماضي كما كان يرتمي في وادي مجردة، عندما كان صبيًا تحمله أمه أثناء موسم الحصاد إلى حيث يكتشف الفضاء الشاسع والأرض الممتدة، يزحف داخلها مجردة كالثعبان. ويتجسم الماضي في صور تظهر وتختفي.فهو تارة يرتع بين الأزقة الضيقة، وطورًا يشق الحقول الذهبية حُبلى بسنابل القمح، وأخرى يسبح بين حنايا الوادي الذي رغم تقلّص سيلانهُ فهو باقٍ يتدفق ماءً عذبًا رقراقًا يندفع ببطء نحو البحر.

حضرتْ تلك الصور تلقائيًا، أوعزتها أنغام أم كلثوم، يتصفَّحها خيالهُ فتزداد نشوتهُ، ويجرع من قارورة البيرة يفرغها في بطنه، ويبقى مع صور الماضي يخاف أن تختفيَ، وهي معلقة في خياله تتأرجح يشدُّها خيط النغم.

يصمت ذلك النغم الرائع، فتفيق الرؤوس من غيبوبتها، ويعود الواقع الصلب بعد أن تحولت المادة في عقولهم إلى ضباب متدفق مع تدفق النغمات في الفضاء الرحب لعالمٍ دون أبعاد. تقف الجماعة في حركات متكاسلة معبرة عن حسرة الخروج من جنة الخيال إلى عالم المحسوسات. ويرون الطاولة المهترئة مكدسة فوقها قوارير البيرة خضراء داكنة. ويرون أبعاد السُّدة الضيقة يكاد يهوي عليها سقف الدكان. ويحسون بارتعاش الدرج

الخشبي وقرقعة خُطاهم فوقهُ، وعندما يصلون بهو الدكان، ويضعون أرجلهم على أرضه المحدبة، ويتعثرون بين جليزه المهشم، يصدمهم الواقع برداءته.

وتتفرق الجماعة كل إلى بيته وحياته الخاصة، وتعود الحياة اليومية التي تجتر هي الأخرى نغمة رتيبة، ولكنها عديمة النكهة باهتة اللون ليس للخيال فيها مجال.

(٤)

عند منتصف النهار شقت الحَيَّ شاحنة صغيرة تحمل على متنها جثة الشاب المقتول داخل تابوت مغطى بلحاف أبيض. كان يجلس على جانبي التابوت أقارب الميت من الرجال واجمين كاظمين لوعتهم في صدورهم. التف حول الشاحنة الأطفال، طوقوها يتطلعون إلى التابوت يتمايل مع منعرجات الطريق، وقد ملأت عيونهم الحيرة والكآبة وهم يتزاحمون حول الشاحنة في صمت لا يجرؤون على لمسها.

وما إن أدخل التابوت البيت حتى علت الصيحات، صرخات فزع ولوعة انتشرت في أرجاء الحي ودوت، فركضت النسوة والأطفال من كل صوب، وغص البيت، ولكن النحيب لم ينقطع بل أصبح هديرًا من الصراخ متواصلاً.

كانت أم الميت ترتمي على التابوت تصرخ وتنتحب، تلطم فخذيها في جنون، وكان من حولها قريباتها يبكين بأصوات عالية، وكان الجميع في هرج ومرج: فوضى من الأسى واللوعة تمادت دقائق حتى رفع الجثمان، وأدخل غرفة قليلة الإنارة، وأُسجيَ على حصير، وعادت تلتف حوله النسوة ناحبات باكيات تولول أصواتهن بصرخات تذوب لها الأفئدة.

أما الرجال فقد جلسوا أمام البيت يتقبلون التعازي. يقبل عليهم الرجال فُرادى، فيصافحهم ويتمتم عبارة" البركة فيكم" ثم ينصرف إلى قاع الزقاق ينتظر مع بقية المعزين في صمت وخشوع خروج موكب الجنازة. وتكونت داخل الزقاق وخارجه مجموعات من الرجال، وتدفقت سيول الشبان من كل صوب، واكتظت الأزقة.

قبل خروج الموكب انتصبت وسط الطريق المؤدية إلى المقبرة حافلة شهباء، نزل منها أعوان الأمن على رؤوسهم خوذٌ سوداء تلمع تحت أشعة الشمس، بين أيديهم هراوات غليظة سوداء، يلبسون زيًا رماديًا داكنًا، يحجبون وجوههم بطاقم من البلاستيك الشفاف. وقفوا صفًا مستقيمًا يسد الطريق. كان هذا الحضور العسكري كافيًا لبث

الرعب في النفوس، لكنه لم يُثر في شبان الحي سوى الشعور بالاستفزاز، فغلتْ الرؤوس، واتقدتْ النظرات، وطفتْ على السطح غريزة الحرب والعدوان.

ومضت فترة زمنية من الترقب. كان صف رجال الأمن، ووراءه العربات وقادة الشرطة؛ منهم من كان بزيه الرسمي، ومنهم من كان بلباسٍ مدنيٍّ. وقبالة ذلك الحشد المنسجم، ظهرت مجموعات الشبان: تكتلات متفرقة في الأزقة، ومجموعات من الأطفال فوق السطوح، ورجال ونساء في حركة دائبة. وشعر الجميع أن في الجو نذير شر. فلن يترك الشبان الجنازة تسير في هدوء دون صراخ، ولا هتاف كما تقتضيه العادة، عندما يكون الميت شابًا أعذبا. ولن يستسلم رجال الأمن.

وبعد أن تقدم بعض الشبان ووضعوا الميت في الصندوق، وهموا بالخروج به إلى الزقاق، قامت من جديد صيحات مدوية، أخذت تتعاظم وترتفع، وامتزجت بأصوات النحيب والبكاء، هدير من الصراخ صحبته رقصة جنونية تعلن لحظة الوداع الأخير. عمَّ ذلك الصراخ المأتميّ الأجواء، فارتبكت النفوس، وشحبت الوجوه، وامتلأت القلوب بالرهبة.

وما أن تخطَّى التابوت عتبة البيت حتى تلقفه الشبان، ورفعوه إلى السماء. وغصَّ الزقاق. ثم دوَّى كالرعد نشيد الموت:

" رحمان يا رحمان هذا عبدك واليوم يا رحمان قاصد فضلك"

وانطلق موكب الجنازة في كتلة واحدة.

انهمر السيل فجأة نحو الشارع، وحط الموكب على الإسفلت الأملس، ولم يعد يفصله عن حزام رجال الأمن سوى بعض الأمتار. فتدخل أهل الميت، واشتدَّ النقاش وعمَّت الفوضى. في هذه الأثناء صعد بعض الشبان إلى السطوح، ورشقوا رجال الأمن بالحجارة، مما زاد في عزيمة الشبان الحاملين التابوت فتقدموا خطوات نحو الصف المنيع. تراجع الرجال المسلحون، لكنهم سرعان ما تهيَّأوا للهجوم وأطلقوا القنابل المسيلة للدموع على الموكب، فعمَّت الفوضى من جديد وكاد التابوت يسقط لولا عزم الشبان وحماسهم. فرغم نوبة السعال التي انتابت بعضهم، ارتفع النشيد عاليًا متحديًا القنابل، وعاد الزحف بطيئًا لكنه متماسك يصطحبه سيل الحجارة.

وفجأة؛ شقت السماء قارورة يتدلّى منها فتيل يشتعل، وانفجرت أمام عربة رجال الأمن، ولحقت بها قوارير أخرى، وتكدست القوارير المشتعلة أمام الحافلة مخلفة خطًا من النيران فصل الموكب عن رجال الأمن، وارتفع الدخان، وعاد نشيد الموت مدويًا، وزاد ارتفاع التابوت إلى السماء وكأنه يعلن الانتصار.

مضت لحظة من البهتة توقف خلالها رجال الأمن عن الحركة، وشعر المشيعون بنشوة النصر. كانت لحظة من السراب تبدّدت عندما عاد الواقع إلى قوانين التوازن والموازين.

فقد عاد رجال الأمن إلى المواجهة، واستبدلوا قنابل الغاز بالرصاص. قذفوا وابلاً كثيفًا نحو السماء محذرين، لكن الرؤوس المتقدة دفعت من جديد الموكب إلى التصدِّي متحدية كل القوانين. وكانت المأساة: حصد الرَّصاص الجموع الأولى، وسالت الدماء، وفرت الجموع في كل الاتجاهات ناشدة النجاة. تدحرج التابوت على الأرض ولم يرفعه أحد - غريزة البقاء أقوى من كل الدوافع - ولم يعد يرمز إلى قداسة الموت، فآلة الموت من خلف القطعان الفارَّة كالخرفان تحصد الحياة.

(٥)

كان بُرهان يركب سيارته متجهًا نحو المدينة. وكان يجلس بمفرده وراء المِقود، ينظر إلى الطريق بلا مبالاة ولا ضجر من اختناق حركة المرور وكثرة السيارات والمارَّة. كان يقود بكل تلقائية وفكرُهُ شاردٌ لا يحس بكل هذه الحياة من حوله، ولا بذلك الازدحام المتفاقم مع تقدم الليل.

كان ينظر إلى السيارات تندرج بطيئة، تشتعل فوانيسها الحمراء من حينٍ لآخر، فيضغط تلقائيًا على الفرامل، ثم يعود يتبع الرتل حتى يتوقف عند الإشارات الضوئية. ألقى نظرةً عابرةً على الأرصفة، تدبُّ فيها الحركة، ورأى تلك الفلول من البشر تلف في طوابير منتظمة تعدو في كل الاتجاهات متناسقة كقطع آلة محكمة الدقة. وكان يصله مزيج الأصوات: صفارات شرطة المرور، وهدير المحركات، وزقزقة عصافير شارع بورقيبة. ولكنه لم يكن يشعر بأنه موجودٌ داخل ذلك التدفق للحياة. كان محصنًا داخل ذاته، يلوك تحاليله واستنتاجاته.

علم بُرهان قائد التنظيم الذي ينتمي إليه العاتي بأحداث حيّ البُرج، وفزع لما أخبروه أن عددًا من مناضلي التنظيم أُلقي عليهم القبض. ولو أن التنظيم لم يساهم في تلك الأحداث؛ ولكن من يدري، ربما يُكتشف أمرُ بعض الخلايا... كانت كل هذه الفرضيات تسيطر على ذهنه، فلم يُحس بكل ما كان يدور حوله. لو تتحرَّك تلك الآلة الرهيبة في اتجاه التنظيم... ويوقظه من ذهوله عويل السيارات من ورائه وصفارة شرطي المرور من أمامه؛ فيدفع السيارة تعدو مسرعة، وينسى ولو للحظة كل الهموم التي انصبَّت عليه منذ الصباح، عندما أعلمته وردة في الكلية نبأ أحداث حيّ البُرج. كانت وردة الطالبة الوحيدة التي تعلم بانتمائه إلى التنظيم، ولكنها لا تعرف أنه المسؤول الأول عنه. وردة هي صندوق بريد التنظيم في الكلية، وعبرها تتسرب الأخبار واقعها وزائفها، ومنها تنطلق بعض التعليمات لبعض الخلايا. ترصدته هذا الصباح عند باب قاعة المحاضرات،

ودست له تقريرًا مفصلاً عن الحدث. كان وجهها الصغير محمرًا من صقيع الصباح، وكانت عيناها العسليتان ذابلتين، كانت كالطفلة تتبعه حتى دخل باب القاعة، فسلمته التقرير ملفوفًا في الصحيفة، وجلست في الصف الأول تتبع حركاته وهو يلقي محاضرته. لم يكن يعلم آنذاك بفحوى التقرير، فكان منشرح الأسارير يتحدث إلى الطلبة بحماس. وبعد أن غادر الكلية واطلع على التقرير، تغير تمامًا.

ماذا يمكنه أن يصنع؟. يحل الخلايا التي مستها الآلة الرهيبة، ويترقب الأحداث. موقف سلبي جدًا.. لكنه السليم.. التنظيم هش، والآلة الرهيبة مثل "البلدوزر" لا تبقي على شيء.. ولما نزل من السيارة، ولفحه النسيم البارد الذي كان يهبُّ على شارع اليونان، تفطن إلى الدنيا من حوله. التفَّ في معطفه الصوفيِّ الطويل وتوجَّه نحو شارع بورقيبة. كان المسرح البلديّ يهلُّ بأضواءٍ بنفسجية هادئة، وكان الممر العريض الذي يتصدر الشارع يفوح أزهارًا جميلة تتلألأ تحت أشعة الفوانيس المعلقة. وكان العشاق يتفسحون مشبكي الأيدي يتهامسون، وكانت الدنيا تبدو جميلة حلوة كالمراهقة تبحث عن الحب الكبير الذي تتغنى به كل البشرية.

◆◆◆

وقف أمام حانة" الكون" مترددًا. كان الجو داخل المكان صاخبًا، والأضواء خافتة، وروائح قوية تنبعث من بابه الضيق. وما إن ولج الحانة حتى أخذته نوبة سعال لم تُثر انتباه تلك الرؤوس الملتفة حول المناضد، تحتسي البيرة، وتدخن السجائر، وتثرثر بلا انقطاع. وما إن توجه إلى المشرب حتى خفَّ ضيقه وشعر بالدفء يلفه، وكأنه التقى عشيقة مراهقته الأسبانية.

بقيَ يتفرج على تلك المجموعات من الشبان مكوَّمين حول المناضد، التي اصطفت فوقها قوارير البيرة خضراء، تعلو فوهاتها أوشحة ذهبية تلمع تحت أشعة الفوانيس.

وكانت الأصوات تمتزج، والضحكات تتعالى، والنادل يتنقل بصعوبة وعلى كفه طبق يطفح قوارير خضراء، وهو يتمايل بين الرؤوس، ينحني تارة ليفرغ حمولته بحركات

سريعة آلية، وينظر طورًا إلى باب المشرب يترصد حريفًا لم يدفع ثمن شربه. كان يشبه قائد سفينة تشق عاصفة. فهو شديد الانتباه إلى كل ما يدور في الحانة، يتنقل بين المناضد والمشرب في رحلات مكّوكية لا ينهكه الإعياء ولا تخامره الغفلة.

طلب بُرهان قارورة بيرة، وضعها له الساقي على المشرب، وبقيَ ينظر إليها بإمعان قبل أن يسكبها في الكأس. كانت تسبح في الرطوبة، تسيل على جانبيها فقاقيع الماء، وتدفع من فوهتها بخارًا رقيقًا حالما يندثر في جو المشرب المتعفن. دنا منها وحملها في راحته وسكبها ببطء في الكأس، فامتلأ زَبَدًا أبيضَ حالما أخذ يتراجع تحت زحف السائل الأصفر. بقيَ ينظر إلى الكأس يترقب انطفاء الرغوة، ثم حملها إلى فمه، وامتصَّ جرعات متتاليات حتى ارتوى، وأعاد الكأس إلى المشرب، والتفت إلى القاعة يتصفَّح الوجوه علَّه يجد الشخص الذي من أجله قدم إلى المدينة في هذه الساعة المتأخرة من المساء. بقي يجول ببصره بين الرؤوس حتى تعرف على صديقه - رفيق النضال - ولما لمحه أومأ إليه بإشارات، ثم سكب ما تبقى من الكأس في بطنه دفعة واحدة، وعاد يشقُّ الجموع إلى خارج الحانة. عندما وصل إلى الباب شعر بالحسرة على مغادرته المكان. كان الجو رغم تعفنه وضجيجه ممتعًا، فهذه الرؤوس السكرانة لا تبالي بهموم الدنيا دفنتها في القوارير الخضراء فاختفت في السائل الذهبي.

بقي واقفًا على الرصيف ينظر إلى طوابير الحافلات الصفراء تتعاقبُ راكضةً إلى خارج المدينة. وكانت المدينة زاهية بأضوائها وحركتها وحوانيتها الملتهبة، وكان هو مضطربًا يحمل هموم الدنيا التي لم تكن تشعر بوجوده، ففلول المارَّة تمر أمامه دون أن يلتفت إليه أحد. كان مثل الصنم يقف مستقيمًا، يداه في جيبيِّ معطفه، ينظر أمامه في حيرة. ورغم الوقار البادي في هيئته فلم يسترعِ انتباه أحد. كان جزءًا من الرصيف مثل عمود الكهرباء أو لافتة الإعلانات.

(٦)

حضر صديقه وأخرجه من جموده، انحنى عليه ولفَّه بذراعيه الطويلتين، ونظر إليه والابتسامة تضيء وجهه القمريَّ، ثم قال مداعبًا:

- سرحتك زوجتك فشرفتنا بزيارة؟.

رجع به إلى الحانة معلنًا:

- لا بُد أن نحتفي بك. فقد افتقدناك منذ أن تزوَّجتَ.

تملَّص بُرهان من دعوة صديقه وأعلمه قائلاً:

- ترقب قليلاً. عندي أمر هام لا بُد أن أحدثك فيه عن انفراد. إنه مستعجل وخطير. هل تستطيع أن تأتي معي إلى بيتي؟. عندي ويسكي جيِّد، ونتحدث في هدوء بعيدًا عن الأعين والأذان.

اكفهرَّ وجه صديقه، وامَّحتْ منه تلك الابتسامة المرحة، وسأل:

- وما هو الأمر الهام والخطير الذي تريدني من أجله؟.

- لا تستعجل الأمر كل شيء في أوانه.

ثم جذبه من ذراعه، وعاد يشق به شارع بورقيبة حتى وصلا إلى السيارة. اندفعت بهما خارج المدينة نحو ضاحية باردو حيث يقطن بُرهان. وساد الصَّمت بالسيارة، وكأن راكبيها يخشيان أن تكون المدينة تتنصَّت عليهما. وعندما صارت خارج باب سعدون أخذ بُرهان يتكلم بصوتٍ خافتٍ وكأنه يناجي نفسه:

"وقعت أحداث مأساوية في حيّ البُرج، ولنا مناضلون هناك وقع القبض عليهم، والمعلومات التي وصلتني تقول إن عدد الأموات كبير والجرحى أكبر، وكعادتها عتمت

السلطة، وتحدثت عن أحداث شغب. ولست أدري إن كان علينا أن نتحرَّك أو أن نلزم السكون".

لم يحرِّك "هرقل" ساكنًا، هكذا كان يُدعى نظرات لطول قامته وصلابة عضلاته، بقي شاخصًا في الطريق العريضة وكأن الأمر لا يعنيه، فليس هذا بالأمر الهام والخطير الذي من أجله يأتيه بُرهان. وقعت أحداث كثيرة من هذا القبيل و لم يتحرَّك التنظيم، وحتى إن تحرَّك فما باله صانع؟. كانت كل هذه التخمينات تتقاذف "هرقل" عندما توقفت السيارة عند الإشارات الضوئية. بقي هرقل منكمشًا داخل الأريكة ينظر إلى الفوانيس الحمراء مصطفة أمامه ترتجف، والليل يرمي أطرافه على المدينة المنتشرة على الهضاب تشع أنوارًا تمزق ظلمة الليل. لم يكن مرتاحًا لكلام بُرهان، و لم يعِ ما يمكن أن يطلبه منه، فهو غير ملتزم بقرارات التنظيم. يتعاطف معه كما يتعاطف مناصرو فريق رياضي. يدفع بعض المال، يمضي العرائض، يحضر الاجتماعات النقابية حتى التي لا ينتمي إليها، ويقوم بالحملات الانتخابية لمرشحي التنظيم في كل النقابات التي له فيها أصدقاء، ولكنه لا يريد التورط في أيِّ عمل سياسي مُلزم. كان ذلك موقفه، أوضحه لكل من طلب منه الانخراط في التنظيم. اشتعل الضوء الأخضر؛ فاندفعت السيارة تتبع مثيلاتها، تتموج مع انحدارات الطريق وقد ساد الصَّمت داخلها واعترى راكبيها شعور بالضيق. كان بُرهان متأبطًا المقود شاخصًا في الإسفلت تطويه العجلات.

عاد بُرهان يتحدث بصوتٍ خافتٍ:
"يجب علينا أن نعلم الرأي العام، لن تمر تلك الأحداث الرهيبة دون أن يعلم بها أحدٌ. أرواح تُزهق ونحن نتفرج. لا لن يكون ذلك. وإلا استغل غيرنا المناسبة وسحب من تحتنا البساط. إننا تنظيم سياسي قبل كل شيء، ولنا أعداؤنا السياسيون. ونحن أقرب لتلك الجموع المسحوقة".

لم يحرك هرقل ساكنًا، بقي منكمشًا داخل الأريكة، واجمًا وكأنه في المنام. و لم يتأثر لكلام بُرهان؛ لأنه سمع منه الكثير و لم يكن الفعل في مستوى الأقوال. ما عساه أن يفعل؟. لن يقدر حتى على إيصال منشور إلى الرأي العام.

ولكنه لم يقل شيئًا، ترك بُرهان يتحدث لوحده كالمحموم. تفطّن أنه ترك جوًا مرحًا في حانة "الكون". ما له وهموم التنظيم؟. ألم يغنِّ عبد الوهاب؛ "ما أقصر العمر حتى نضيعه في النضال"..؟ وتمنّى أن يعود إلى جوِّ "الكون" الدافئ المرح، وإلى نشوة البيرة، وإلى أحاديث رفاقه عن النساء التي وإن كانت زائفة فهي تنسيه هموم الدنيا.

عند أعلى الشارع انعرجت السيارة إلى اليمين، وبعد أمتار قليلة توقفت أمام بيت فخم ذي طابقين. نزل الراكبان، واتجها إلى البيت، وصعدا الدرج المكسوِّ بالمرمرِ، وتخطّيا الفناء المُضاء بفوانيس معلقة بالسقف ينتشر منها نور خافت يرسم أأشكالاً هندسية متشابكة. وكانت تنبعث من الحديقة المحيطة بالبيت رطوبة منعشة تتدفق من العشب والأشجار المتناثرة.

♦♦♦

فتح بُرهان الباب بلطف؛ حتى لا ينتبه إليه أحد، ثم انزوى مع صديقه في مكتبه. جلسا على أريكة من الجلد الأسود الناعم. وعاد بُرهان إلى تحاليله، يشرح الوضع وقد اندفع في متاهات نظريته الثورية غير متفطِّن لضيق رفيقه. وما إن انتهى من تحاليله حتى سأل هرقل:

- كيف ترى الوضع؟.

لم يُجب هرقل.

نهض بُرهان وتسلل خارج المكتب وعاد يحمل طبقًا عليه قارورة ويسكي وكوبين. سكب الرحيق، ومدَّه لرفيقه وبقيَ يرمقه وهو يتجرَّع السائل المنعش. ولكنه سرعان ما عاد إلى الحديث:

- أظنك فهمتني خطأ. فأنا لم أدعُ إلى الثورة أو إلى العصيان المدني. قلت فقط إنَّه من واجبنا إطلاع الرأي العام على حدثٍ راحت ضحيتُه أرواحٌ بشرية؛ لأنها عبرت عن

رفضها لسلطة تصادر حتى التعبير عن المشاعر. وقلت إنَّه علينا أن نُشعرهم أنهم غير معزولين عن بقية المجتمع. وقلت إنه من واجبنا إنقاذ رفاق لنا ربما يتعرَّضون للمشنقة...

قاطعه هرقل متسائلاً:

- وما هي القوة التي تملكها؟.

- الدَّعم.

تجرَّع هرقل السائل دفعة واحدة ثم أعلن متهكمًا:

- تحيا جماهير حيّ البُرج المناضلة من أجل أن تنتصر الثورة. ثم أنشد: " C'est la lutte finale.." (إنها المعركة الأخير: نشيد الشيوعية العالمية).

وعلت ضحكته قوية أزعجت رفيقه. وبعد لحظة من الصَّمت مدَّ الكأس، وطلب من صديقه:

- صبَّ. لقد دفنت أحلام اليقظة، وتخلصت من مراهقتي. أصبحت كهلاً. وألتذ بالخمرة، وأعرف جيدًا ما تعنيه مضاجعة امرأة. وأعرف كذلك ما يعنيه دعم الجماهير... ستوزع المناشير على فلول الطلبة، وسوف يقع البعض في قبضة السلطة التي ستلفق لهم تهمة المساس بالأمن الداخلي، ويعني بالضبط خمس سنوات سجنًا.. لن يمضي الفرد منها سوى عام أو عامين، ثم يقع تسريحه بشرط أن يلتزم بهجر السياسة والسياسيين والناس أجمعين، إلا الخمر والنساء؛ فهي حلال عليه إلى يوم اليقين...

وعاد يتجرَّع الويسكي. وبعد أن أفرغ الكأس في بطنه نظر إلى بُرهان مليًّا ثم قال بصوتٍ خافت:

- كبرتُ يا بُرهان، لم أعد أصلح لا للثورة ولا للسياسة. همِّي الوحيد ملذات سهلة. هذا الويسكي جيد، وزوجتي التي تترقبني بالبيت ناعمة كالحرير، وحكايات الأصدقاء الزائفة تسليني أكثر من تحاليلك. فتِّش لك عن مراهق يريد أن يحلم.

قاطعَهُ بُرهان بصوتٍ خافت لكنه مرتعش:

- وأهل حيِّ البُرج يكونون أمواتهم؟.

- وقع زلزال في الجزائر قتل آلاف الأخوة العرب المسلمين.

- إنك تهذي يا عزيزي هرقل. ولكن ومع كل ما قلت سأُعلِمُك أن التنظيم سيوزع المناشير في كامل البلاد، وسيعلم القاصي والداني أن رفاقًا لنا ذبحتهم السلطة على قارعة الطريق، وفي رابعة النهار. كنت أود أن تشاركنا المهمة ولكني أخطأت.

نهض هرقل وتبعه بُرهان وخرجا معًا، وعادا يشقان المدينة في صمت.

(٧)

لم تكن الغرفة رقم ٤ سوى زنزانة أضيق وأظلم من تلك التي قضَى بها العاتي ليلته. كان عدد من المعتقلين يقبعون داخلها، تعرف على بعضهم ولكنه بقي منكمشًا في أحد أركان الغرفة القذرة التي كان ينيرها فانوس يتدلَّى في وسط سقفها الواطئ، يدفع بنور باهت لا يكاد يضيء. بقيَ على تلك الحال ساعاتٍ وهو يرتجف من البرد، خاوي البطن، متلهفًا إلى سيجارة يطفئ بها قلقه وضيقه.

وعند المساء اقتيد المقيمون بالغرفة رقم ٤ إلى حافلة سوداء بلا نوافذ، وكُدِّسوا داخلها بعنف. وبعد انتظار طويل ومُضنٍ، كانت أثناءه الحافلة ترتجف، ومحركها يخرُّ، انطلقت تشق بهم شوارع المدينة.

توقفت الحافلة وظلَّت رابضةً دون أن يقف محركها عن الخرير. وبعد ساعة من الانتظار القاتل داخل جو الحافلة الخانق، ارتجَّ محرك الحافلة من جديد، ثم تحرَّكت ببطء، وأخذت تنحدر رويدًا رويدًا حتى استقرت، وأُخمد محركها، وفُتح بابها الخلفي، وارتفعت أصوات رجال الشرطة تأمرهم بالنزول، وهوت على مؤخراتهم الركلات تحثهم على الإسراع في ولوج نفق شبه مظلم، تخطاه العاتي بين قطيع المساجين دون أن يتمكن من رؤية المكان الذي سيسجن فيه.

◆◆◆

حُشروا من جديد في زنزانة رطبة، جدرانها خشنة، يغطي أرضيتها حصيرٌ من القش أملس. وأُوصد خلفهم باب الزنزانة الحديديّ، ودار في قفله المفتاح محدثًا صريرًا مزعجًا

ردَّدت صداه الجدران. وساد الصَّمت الرهيب، وانقطعت الدنيا، وانحصر الكون في هذه الزنزانة المظلمة المقيتة. وانزوى كلٌّ إلى ذاته باحثًا عن عزاءٍ لشقائه، وقلقه، وأوجاع بطنه الخاوية، وحيرة نفسه التائهة. وفجأة؛ دار المفتاح محدثًا دقات عالية انتشر صداها في أرجاء الزنزانة، وفي ممرات النفق، وداخل أجساد أشلاء هذه البشرية المنهوكة. واشرأبت الأعين إلى بصيص النور المندفع في تكاسلٍ واحتشام من وراء الباب الحديديّ السميك.

اقتحم الزنزانة رجلان عظيمان، وصاح أحدهما بصوت أجش:

- إسماعيل الجلاصي.

بعد فترة من الارتباك والتشنج نهض إسماعيل متباطئًا، وتقدّم نحو الرجلين حاني الظهر، مُتردِّد الخُطى وكأنه الفريسة التي وقعت بين مخالب الوحش. دفعاه خارج الزنزانة وأوصدا الباب.

ودبَّت الحياة في الزنزانة، واشتعلت السجائر في أرجائها، وعادت نوبات السعال وزفرات بعضهم، ولكن الكلام بقي مكتومًا في الصدور. لم يجرؤ أحد على النطق به، أو البوح بالسؤال، أو حتى الاتصال بجاره بالإشارة. كان الظلام يكتنف الجميع، ولم يعد لوجود الآخر من أثر سوى تلك الأصوات المتقطعة للسعال أو للزفير.

كان لخروج إسماعيل رفقة الرجلين العظيمين أثرٌ مزدوجٌ من الأمل والخوف، أمل في أن الخروج إلى النور قريب، وخوف من أن المصير ربما يكون أكثر ظلمة. ظلَّت الأعين مُتسمَّرة في الباب الحديديّ تنتظر انبلاجه من جديد، وراحت النفوس تتلهَّى بذلك البصيص من الأمل، تحلم بنهاية هذا الكابوس الجاثم عليها منذ أن اقتيدت إلى الاعتقال.

وساد المكان صمتٌ رهيب، وطال الانتظار، وعاد اليأس والقلق، وتلمَّس العاتي سيجارة من أحد رفاقه، فانهال على الدخان يبتلعه كالظمآن. وفجأة التقطت أذناه صدى خُطًى ما فتئت تقترب، ثم سمع قرقعة المفتاح وصرير الباب، ورمى بإسماعيل على الأرض كالخرقة المبللة.

بقي جسد إسماعيل جاثيًا على الأرض لم يجرؤ أحد الاقتراب منه، وقد عمَّت الحيرة بعض لحظات المقيمين في الزنزانة، ولكنهم سرعان ما التفوا حوله يتلمسونه، وأشعل أحدهم ثقاب كبريت فراعهم حال رفيقهم. مسحوا وجهه الملطخ بالدم، ودثروه بألبسة انتزعوها من أجسادهم، ووضعوا في فمه سيجارة لم يقدر على تدخينها. كان صامتًا في غيبوبة لا يشعر بما يدور حوله، لكن جسده كان يرتعد كالمحموم.

بقي العاتي يتفحص إسماعيل ولسان حاله يقول: "ماذا فعلوا بك يا إسماعيل؟ عذبوك لكي تعترف وأنا متيقنٌ أنك لم تصنع شيئًا.. وسيأتي دورك يا العاتي. ولن تقدر على تحمل التعذيب، وستعترف بكل شيء".

و لم تمض فترة من الزمن قصيرة حتى عاد المفتاح يدور في القفل، فكادت القلوب تنفجر من شدة الخوف.

(٨)

خرج العاتي من الزنزانة المظلمة يحيط به الشرطيان، اصطحباه حتى نهاية الممر؛ حيث أدخلاه غرفة مظلمة لكن جوَّها كان حارًّا، ثم انصرفا.

بقيَ يترقب في حيرة، لا يدري إلى أين يدير رأسه، فالظلمة كثيفة لا تُمكِّن من إدراك أبعاد الغرفة، فشعر بالضياع، وارتبك، ولكن صوتًا مزمجرًا انتشله من ارتباكه حين سأله:

- أنت العاتي البادي؟.

التفت العاتي نحو مصدر الصَّوت، وإذا بنور كثيف يغمره، يكنس كامل جسده، ثم يستقر على وجهه. ازداد ارتباكه، ورفع يديه يحمي وجهه من حدة النور، لكن الصَّوت المزمجر أمره:

- اخفض يديك.

تردّد قليلاً، وإذا بلفح السَّوط يعمُّ وجهه ويديه. ازداد اضطرابه وهلعه، ولم يقدر أن يخفض يديه خوفًا من لسعات السَّوط المؤلمة. بقي يترنح لا يعرف أيَّ وضع يأخذه لتلافي الضربات المسلطة عليه، والنور الحاد الذي يفقأ عينيه. وبعد عناءٍ شديدٍ وقد تمكن من تلافي ضربات السَّوط على وجهه بإدارة ظهره إليه، توقف سيل السياط، وجاءته أسئلة المحقق مُربكة زادت في ضياعه، وأحس وكأنه فأر في مصيدة يدور حول نفسه بلا انقطاع. وكان عليه أن يجيب تحسبًا لعودة لفح السَّوط. فما إن سأله المحقق:

- أين كنت يوم الجنازة؟.

أجاب بسرعة:

- أعزِّي أهل الميت.

مما أثار شكيمة المحقق، فأمطره بوابل من الشتائم:

- اللعنة على... أمك، أتسخر مني يا لعين. أين كنت في الموكب؟.

اغتاظ العاتي، فهذا عنفٌ آخر لم يكن يترقبه. وازدادت شتائم المحقق ابتذالاً وفظاعة، كانت للعاتي موجِعة كلفح السَّوط، ولكنه لم يكن قادرًا على أن يوقفها، فأسلم إليها أذنيه كما أسلم عينيه للنور الحاد، وظهره للفح السَّوط، شعر أنه كمن يهوي في قاع بئر.

وعادت أسئلة المحقق تطارده:

- هل رميت رجال الشرطة بالحجارة؟.

- أبدًا . كان ذلك من فعل الصبية والأحداث.

وعادت البذاءة، واحتد صوت المحقق متوعدًا.

- هل رأيت القنابل المحرقة تتساقط على رجال الأمن؟.

- رأيتها.

- ومن رمى بها؟.

- لست أدري.

- و... أمك تدريه؟!.

ضحكات وقحة ملأت الغرفة، وقد أحسَّ العاتي بعنف اللفظة موجعًا أكثر من لفح السَّوط. و لم يدر لماذا تعمَّد المحقق تلك البذاءة حول أمه بالذات، لماذا لا يوجهها له مباشرة فينعته بما يشاء، ألا يعرف أن أمه مقدسة عنده؟. إنها أطهر إنسان فوق الأرض. وغلت دماؤه، وكاد يصرخ في المحقق... ولكن النور الحادّ المسلَّط عليه أرجعه إلى واقعه. وانهالت عليه الأسئلة كثيفة مُحرجة، تطوِّقه وتُرغمه على الصَّمت أو المراوغة، وانتهى المحقق إلى القول بصرامة:

- قل الحقيقة وإلا سنبدأ التعذيب الحقيقي.

صمت العاتي، وانكمش يترقب هذا التعذيب الموعود. ألم يُعذَّب ما فيه الكفاية؟. ولكن الصَّوت المُزمجر عاد يتوعَّد:

- أرى أنَّك لن تجيبَ عن أسئلتنا كما نريد قبل أن تذوق طعم العذاب الذي نقدمه لزوارنا.

صمت قليلاً ثم أمر:

- اخلع ثيابك.

لم يمتثل للأمر. لن يُمكِّنَهم من جسده بسهولة. لقد قرَّر المقاومة وليكن ما يكون.

وانهالت عليه ضربات السَّوط من جديد، و لم تتوقف إلا عندما سقط العاتي على الأرض وانكمش صارًّا جسده، لكن ما راعه إلا وأحد الأعوان يقترب منه، ويضع على كتفيه يديه الغليظتين، ويرفعه كالخرقة عاليًا يتفحصه لحظة. كان الرجل غليظًا، عظيم الجسد، عملاقًا، نظراته تنمُّ عن عدوانية وخبث. جذبه إليه بخشونة، ثم صفعه بكل قسوة، فكسا الدم وجهه. وجاءته الصفعة الثانية، أفقدته توازنه، وكاد يسقط لولا أن الجلاد أمسكه، وبنترةٍ انتزع منه سترته وصدَّاره، وتطايرت أزرار قميصه، وبقيَ عاريَ الصَّدر يتلوَّى من الأوجاع، والدم يكسو وجهه.

كان الجلاد يمسكه من رقبته، ينظر إليه وابتسامة خبث تتراءَى على وجهه البشع لم يفهم كنهها العاتي، ثم دنا منه أكثر حتى التصق به، وأخذ يتلمسه حاطًا يده الغليظة على صدره العاري. تملكت العاتي قشعريرة وغثيان، لكن الجلاد واصل لمساته الوقحة، وانتقلت يده إلى ظهر العاتي؛ فثارت نفسه ونسي خوفه وآلامه، وفار دمه، ودون أن يشعر وجَّه له لكمة قوية أرغمته على التوقف، لكنها أشعلت غيظه، فانقض عليه باللكم، والركل، والكلام البذيء حتى أوقعه الأرض. ثم أخذ يرفسه بحذائه على بطنه، وصدره، ورأسه، وكاد ينقض عليه بأنيابه لولا أن المحقق أمره بالتوقف.

بقي العاتي مرميًا على الأرض فاقد الوعي، تسيل من وجهه قطرات من الدم. كان النور الحاد موجهًا إليه مسلَّطًا على وجهه الشاحب.

أمر المحقق الجلاد بأن يسكب عليه سطلاً من الماء البارد. وبعد هنيهة ارتجف جسمه، وفتح عينيه، وأفاق من غيبوبته، وشعر بالألم ينتشر في كامل جسمه. شعر وكأنه الآلة

المفكّكة لا يستقيم له عضو، فلم يحرك ساكنًا. تقدم منه الجلاد ثانية، ورفعه كالخرقة، وألصقه الجدار. عاد النور يكنس جسده، وعاد المحقق بصوته المزمجر يأمر:

- انزع سروالك.

لم يكن العاتي في حال تسمح له بتنفيذ أيِّ أمر، فبقيَ في مكانه كالمعتوه. وفجأة؛ انحنى عليه الجلاد وأوثقه إلى الجدار، وبنترةٍ انتزع منه سرواله، وعرَّاه تمامًا، وبقيَ ينظر إليه بسخريةٍ وتلذّذ. لكنَّ العاتي لم يعد يكترثْ بأيِّ شيء؛ لأنه فقد كل قواه، وتلاشت نفسه.

وما إن أحسَّ المحقق أن قوى العاتي قد خارت، وأنه دخل مرحلة المقاومة السلبية، حتى أمر بإرجاعه إلى الزنزانة؛ حيث استقبله رفاقه مثل ما استقبلوا إسماعيل من قبله.

◆◆◆

بقي العاتي منهوك القوى، يلتف حوله رفاقه في الزنزانة حتى أحدث دوران القفل في الباب قرقعة، ارتعدت لها الأجسام المحطمة داخل الزنزانة المظلمة. وعوض أن ينادى على أحد من المعتقلين، دخل الجلاد - الرجل العملاق - وأجال بمصباح كهربائي في الحاضرين حتى تعرف على العاتي. تقدم منه، ومسكه من رقبة سترته، وأخرجه من الزنزانة تاركًا الرعب في قلوب البقية.

قاده إلى غرفة الاستنطاق، وأوثقه، ثم وبكل فظاعة اغتصبه...

وعندما رجع العاتي في الأيام التالية للاستنطاق، وجربوا معه أنواعًا أخرى من التعذيب، لم ينبس ولو بكلمة. صلبوه حتى كاد الدم يسيل من أنفه وفمه، وضعوه كالخروف المشويِّ وانهالوا عليه ضربًا، أغرقوه في برميلٍ مملوءٍ بالماء حتى كادت تنفجر رأتاه، أحرقوه بالكهرباء في أماكن حساسة من جسده، ولكنه بقيَ صامتًا. لم ينبس ولو بكلمة. ولم يصرخ. ولم يتوسل أن يكفوا عن تعذيبه. بقي ينظر إليهم كالمعتوه، فاقدًا

كل إحساس بالوجود. كانت رغبة العاتي في الفناء أكبر من رغبته في البقاء، فتركهم يقتلونه قبل أن يكون هو قاتل نفسه. ولما شعر المحقق أنه لن يستخرج منه أي كلمة، ترك سبيله، و لم يعد لاستنطاقه، لكنَّ الجلاد تمادَى في اغتصابه كامل الفترة التي قضاها في الاعتقال.

(٩)

كانت قاعة الاجتماعات الكبرى بالمركب الجامعي مكتظة، والجو فيها صاخبًا، ودخان السجائر يسبح في فضائها ويكوِّن غمامة حول باها الرئيسي، ورغم تقدم النهار، كانت الأنوار مشتعلة، تنعكس على الوجوه اليانعة المشرئبة إلى منبر الخطابة، يتعاقبُ عليه زعماء التنظيمات الطلابية.

تصدَّر بُرهان باب القاعة الأمامي، وبقيَ يحملق في أرجائها حتى تعوَّدت عيناه على الوجوه، وتراءت له بعضها ممن ألفها، فتحاشى النظر إليها، ثم انغمس داخل القاعة، وشق طريقه بين الصفوف، وسط الجموع الواقفة في الممرات. ولَّما وصل أمام المنصَّة، توقف وانبرى يتصفَّح الوجوه بإمعان ومكبِّر الصَّوت من ورائه يزمجر.

كان الخطيب من تنظيم طلابي يساري، وكان الاجتماع مخصصًا للاحتجاج على عملية اعتداء على طالبين وقع تعنيفهما من طرف تنظيم طلابي يميني ديني لأنهما - الفتى والفتاة - كانا يتبادلان القبل في ساحة الجامعة. فكان الخطيب يولول، وينبه زملاءه إلى خطورة العملية، ويحلل أبعادها، ويتهم أصحاب الاعتداء بالظلاميين المتوحشين. لكنَّ بُرهان لم يكن يصغي إليه. كان اهتمامه منصبًّا على الوجوه أمامه؛ الضاحكة منها والمتحمسة، أو المنشغلة بهمسات، ونظرات ولمسات، غير مبالية بما يحصل بالقاعة.

لم يعثر بُرهان على مبتغاه، كانت كل الوجوه تتشابه: عيون سوداء، ورؤوس سوداء، ووجوه سمراء متحفزة يانعة، تملؤها الحياة، ويشع منها الاندفاع والأمل. وكان بُرهان يبحث عن وردة، يريد أن يسلمها المنشور. لم يكن على موعدٍ معها، ولكنه متيقنٌ أنها تحضر الاجتماع. فالجامعة ميدان ثريٌّ بالنضالات، تتصارع داخلها الأيديولوجيات،

والتنظيمات، وحتى الأحزاب السياسية السرية. وتواجد التنظيم في الجامعة من أكبر مكاسبه. بل هو أحد قواعده الرئيسية. والجامعة هي الساحة الوحيدة بالبلاد التي تسود فيها الصراعات الديمقراطية وإن كانت سطحية.

بقيَ زمنًا يُمعن النظر إلى الصفوف الأمامية حتى ملَّه الحاضرون، وبدءوا يشيرون له بأن يتنحَّى، فارتفع صوت الخطيب يغطي الضجيج، منهالاً بشتائمه على أصحاب العملية، فعلا التصفيق والهتاف. وغادر بُرهان الصفوف الأمامية، تاركًا وراءه الخطاب الساخر اللاعن المتوعد. ووقف جمع من الحاضرين ينادون بشعارات، وعمَّ القاعة هرجٌ وضحكٌ وتصفيرٌ، وتوقف الخطيب يتلذَّذ بتأثير خطابه في زملائه.

انساب بُرهان بين المرافق والأكف غير مبالٍ، وكأنه يشق الأسواق القديمة حتى أدرك آخر القاعة، ووقف هناك ينتظر حتى يعود الهدوء. وفي هذه الأثناء كان الخطيب متمسكًا بالمصدح ينظر إلى القاعة وكأنه القائد أمام جيوشه. كان أشعثَ الشعر طويله، يضع على عينيه نظارات بيضاء، إطارها من الحديد الأسود دائرية الشكل، صغيرة، تحتلُّ وجهَهُ النحيف. كان نحيل الجسد، قصير القامة، أحمر الوجنتين، يتكلم بطلاقة وبصوت جهوري، يتفنن في كيل النعوت والشتائم:

"أتعرفون أخواتي إخواني من هو المتوحش الذي يحرِّم أقدس قيمة عرفتها البشرية؟. إنه ذلك الظلامي المتعصب الذي يرى في الرقة شرًا، وفي العواطف شرًا، وفي الحب شرًا، ويحرم النظرة، ويحرم اللمسة ويحرم الحب..".

وعاد التصفيق والهرج، وتوقف الخطيب مبتسمًا، راضيًا عن فصاحته، معتزًا بقدراته. لكن بُرهان لم يكن يستمع إليه؛ كان همه العثور على طالبة من مئات الطلبة. وبعد إمعان وضجر وجدها وسط جمع من الطالبات، انزوين في الصف الأخير يتحادثن بأصوات خافتة، غير مباليات بالخطيب ولا بالهرج الذي يرتفع من حين لآخر.

♦ ♦ ♦

أشار لها بُرهان أنه يترقبها خارج القاعة، وانصرف مسرعًا، تاركًا وراءه مهرجان الخطابة وجوَّه الخانق. وعند ربوةٍ تغطيها أشجار الصنوبر لحقت به الفتاة ملفوفة في معطف داكن طويل، وعلى رأسها قبعة بحرية من نفس لون المعطف.

كانت تعصف على المركب الجامعي ريح باردة، دفعت الطلبة داخل القاعات، رغم الإضراب الذي سايره كل الطلبة طوعًا أو قسرًا، فإن ساحات المركب وحدائقه الزاهية كانت قفرًا. لجأ بعض الطلبة إلى قاعة الاجتماعات الكبرى، والبعض الآخر إلى المكتبات أو المقهى. وخلا المكان لبُرهان وورده للانزواء بين أشجار الصنوبر العاتية، المورقة أبدًا، للتحدث بكل اطمئنان.

سبقها إلى أعلى الربوة، وبقيَ ينظرُ إليها تتسلق متحاشية الحفر والأرض اللزجة. كانت قصيرة القامة، نحيفة لا يظهر منها سوى وجهها المحمرُّ. ولما وصلت أعلى الربوة مدَّ لها يده، وساعدها على الوصول إليه، ثم تمشيا حتى جذع شجرة. وبعد صمتٍ قصيرٍ بادرها بالسؤال:

- هل من جديد؟.

- تعرفنا على الإخوان الذين أُلقي عليهم القبض. شخص واحد فقط ينتمي إلى التنظيم يُدعى العاتي أو هكذا يسمونه.

- وهل ستكون اعترافاته أثناء التحقيق خطيرة على التنظيم؟.

- يقال إنه شهمٌ شجاع.

قاطعها بصوتٍ خافت:

- لا أحد يصمد أمام الآلة الرهيبة.

- السلطة لا يهمها التنظيم الآن، إنها تريد أن تسلّط العقاب على أهل الحي لكي يكونوا عبرة.

- و الرأي العام؟.

أجابته بحدَّةٍ وكأنها تلقي خطبة أمام جموع الطلبة المضربين:

- إنك تعرف جيدًا أنه لا وجود لرأي عام في نظام غير ديمقراطي. الرأي العام عندنا هو القصر ومزاج صاحب القصر. حتى الصحافة لم تتحدث عن الواقعة. بالطبع عندما يشتري الحُكم الصحف، ويتصرف فيها وكأنها أبواق دعايته، لا يمكن للمواطن أن يطَّلع على ما يجري حوله من أحداث، وبالتالي لن يكون له موقف ولا رأي.

وساد بينهما الصَّمت لفترة، كل هذه النقاشات صارت بديهيات بالنسبة إليهما. أدخل يده في جيب معطفه ببطء، ثم مدَّ لها ورقة ملفوفة ودون أن ينظر إليها قال:

- أحضرت المنشور الذي سيُمكِّن المواطنين من معرفة الحقيقة، ونريد أن يُوزَّع على أوسع نطاق، وخاصة في الأوساط العمالية، وفي الأحياء الشعبية. كالعادة كونوا حذرين، ولا تستعملوا عناصر التنظيم في التوزيع، جندوا الطلبة، وتلاميذ المدارس، وبعض المثقفين الديمقراطيين.

رفع رأسه فوجدها تلتهمه بعينيها العسليتين الجميلتين. وتذكَّر هرقل وجسمه الطويل الممتلئ عضلات، وشاربه الغليظ الأسود الذي يدل على مدى اعتزازه برجولته،ونظرته المتعالية، وقارنه بهذا الجسد الصغير النحيل، وهذه النظرة المتَّقدة تلتهمه. فشعر بالفخر لوجود هذه الفتاة في صفوف التنظيم. إنها تساوي عشرات الهرقل، لها فاعلية أشجع المناضلين. بمثل هذا الطراز من المناضلين سوف ينتصر التنظيم ويقلب موازين القوى.

كان ينظر إلى الأفق البعيد، تحُدُّهُ المباني المنتشرة كالفقاقيع. وسرح ذهنه، ورأى التنظيم يتخطَّى مرحلة التكوين، ويصبح قوة ضاربة، يربك السلطة، ويلتف حوله جمهورُ العمالِ والنقابيون والمثقفون التقدميون، وكل من يصبو إلى الديمقراطية كما يتصورها: "دكتاتورية البروليتاريا، صانعة التاريخ الحديث"، كما يحلو له أن يؤكد في كل مناسبة. وشعر فجأة أنه كالطير يرتفع في الفضاء، يتسلق القُبَّة الزرقاء، تدفعه قوة نحو الأعالي. كان ينظر إلى السماء من خلال الأغصان العاتية وفِكره يحلق في رحاب الخيال، يرى مراحلَ النضال تتوالى، ورجالُه ونساؤه لا يتوانون عن تنفيذ أوامره؛ فتغمره النشوة، ويمتلئ اعتزازًا، ويشعر أنه يرتقي إلى مصاف الرجال الذين يصنعون التاريخ، ولم يعد ذلك الأستاذ المغمور بين دفاتر الطلبة، وضجيجهم، ومحاضراته الرتيبة. ونسي وجود

الفتاة أمامه، ونسيَ حتى وجود شجرة الصنوبر العظيمة، ترمقه وكأنها تسخر من أحلام اليقظة التي انتابته.

كانت الفتاة هي الأخرى تناجي نفسها، تنظر إلى الساحة الكبيرة للمركب الجامعي خالية. وكانت تقول في نفسها أن هذا الرجل الواقف أمامها لا يختلف عن بقية الرجال؛ فهو يحلم بالامتلاك. إن لم يكن يحلم بامتلاك جسدها فهو يحلم بامتلاك السلطة. يريد عبر الامتلاك تطويع الدنيا، وتطويع الآخرين لرغباته. ألم يكن يكرر: "يجب أن... لزومًا علينا أن... لا بُد للصراع أن.." واستخلصت بكل بساطة أن كل الرجال يحلمون بالامتلاك. وانساقت إلى التثبت في وجهه، وهو ما زال في صمته ينظر إلى الأفق. وفجأة تملكتها الرغبة في أن تُقبِّل ثغره الجميل الموشح بشارب غليظ أسود، ولكنها سرعان ما تفطنت إلى سخافة تلك المشاعر؛ فتملكتها الكآبة، وعادت بسرعة إلى الواقع، وأحسَّت بصقيع النسيم من خلال أوراق الصنوبر. وسألت بصوت متهدج:
- هل هناك تعليمات أخرى؟.

أفاق من أحلامه اللذيذة، وأومأ لها برأسه أنه لم يعد هناك شيء يقوله. وعندما هم بالانصراف، قالت له متردِّدة:
- فكَّرت في زيارة عائلة الرفيق الذي أعتقل، لأخفف من آلام أمه العجوز التي تعيش الآن بمفردها.

أجابها باقتضاب:

- كما ترين، ولكن لا بُد من الحذر.

ترقبت حتى يختفي داخل ممرات الجامعة، ثم خطت خطوات نازلة الربوة، ولكنها توقفت فجأة، وعادت تسند ظهرها إلى شجرة الصنوبر العظيمة، وأغمضت عينيها؛ فانهالت في مخيلتها صور وأحاديث، وكأنها في الحلم. ظلَّ وجه بُرهان عالقًا في ذهنها رغم صدِّها لتلك المشاعر المفاجئة التي تملكتها منذ حين. لم تشعر نحوه من قبل بهذه الرغبة المفاجئة التي أخذت تتأجَّج داخلها كالجمرة المدفونة في الرماد. ولم يكن بُرهان فتى أحلامها، كان رفيقًا في النضال تعرفت عليه في التنظيم قبل أن تعرفه كأستاذ علم الاجتماع. ولم

تكن بينهما أيّ علاقة خارج الدروس أو التنظيم. ولكن ها هي الشهوة تطفو على سطح وعيها، وتستولي عليها، فتشوِّش أفكارها، وتعكِّر مزاجها، وتُشعرها أنها ككل الفتيات، لها مشاعر لا يمكن للعقل أن يقيِّدها.

ظلَّت برهةً شاردةً، ثم عادت تترل الربوة نحو ساحة المركب. دخلت المقهى التي كان مكتظًا بالطلبة. نظرت في أرجائه، كانت الوجوه منشرحةً مسرورةً، تُشع منها الحياة. فازداد همُّها، وسخطت على كل هذه الجموع اللا مبالية، والمندفعة في خضم الحياة كالقطيع. كانت حزينة ولا تعرف السبب، فقد تملكها ذلك الكابوس الذي يحطُّ على النفس فجأة فيحجب نور النهار، وتدلهمُّ الدنيا ولو لحظات، غير أن الحياة سرعان ما تعود إلى سيرها الطبيعي، وتنقشع تلك السحابة الدَّكناء التي ملأت السماء كعاصفةِ صيف. لقد وجدت وردة صديقاتها وانغمست معهنَّ في اللهوِ ومشاكسةِ الفتيان الذين يريدون التودُّد لهن، ونسيت بُرهان والتنظيم ولو لفترة.

(١٠)

مضى أسبوعٌ على سجن العاتي، وأمه لم تزل تتجرَّع عذاب الحيرة والقلق. كانت متيقنةً أنه لم يقم بأي عمل يستحق عليه السجن. وكانت خلال تلك الفترة محبوسة في بيتها لا تروم الخروج ولا الاتصال بأهل الحي. مرَّت فترة الغضب والثورة والبكاء والشتم، ثم استسلمت لقدرها، وتقوقعت داخل ذاتها، و لم تعد تحلم إلا برؤية ابنها يعود إليها سليمًا، يملأ عليها دنياها التي أضحت بعده قفرًا.

كانت تقبع في غرفتها، مفترشة جلد خروف، وأمامها كانون يدفع بالدفء من حولها، وكان برَّاد شاي من فوقه ينشر بخارًا خفيفًا يؤنس وحدتها. وظلَّت تتصفَّح الماضي. كان مليئًا تعاسة وحرمانًا، وكانت تتصفحه وريقةً وريقة، كمن يتصفَّح مجلةً، لا يسترعي اهتمامه منها سوى الصور المثيرة.

رأت نفسها وهي صبية تغادر أهل العشيرة، وتتوجَّه نازحة مع أسرتها إلى العاصمة؛ حيث كانت تعتقد أن الحياة سهلة، وملذات العيش فيها كثيرة، ولكن الواقع الذي اكتنفها بغباره خيب كل آمالها، وتركها تحنُّ إلى عيشتها السابقة بين أحضان الطبيعة ترتع بين الحقول وترعى بعض الخرفان والمعيز. ورأت نفسها وقد تحوَّلت إلى خادمة عند أغنياء المدينة من اليهود والفرنسيين تعاني كل أنواع المذلة والإهانة، هي التي تربت داخل عشيرة جعلت من عزة النفس سببًا للوجود. وولَّت كل الأحلام اللذيذة التي كانت تعمِّر ذهنها الصغير، والتي منَّت بها نفسها قبل أن تصدمها المدينة بكل تناقضاتها. عرفت المدينة وبُهرجها، وخيراتها. وعرفت كذلك الحرمان، والحقد على كل تلك البشرية المتعالية، تنعم بالخيرات حتى الإسراف، وهي تعاني الخصاصة والجوع أحيانًا.

ورأت نفسها وهي فتاة برزَ صدرُها، وظهرت محاسنها، وصارت محطَّ أنظار المارَّة من الرجال، يلمحونها بنظرات تقرأ فيها شهوتهم في امتلاك جسدها اليانع. ثم يزوجها أبوها من كهلٍ من كهول الحي؛ فيزداد شقاؤها، وتأخذ في الإنجاب حتى يموت زوجها، وتترمل وهي في ريعان شبابها.

ورأت نفسها وهي تجاهد من أجل توفير لقمة العيش لأطفالها، وكان أصغرهم العاتي، وهو الذكر الوحيد في أسرتها، وقد خصَّته بحنان ورعاية وحب لم تمنح مثله لأخواته الثلاث.

كان العاتي القنديل الذي يضيء حياتها، وكان الحب الذي لم تعرف طعمه، وكان الخير الذي حرمت منه طيلة حياتها. وما إن تستقر صورته في مخيلتها حتى تغرورق عيناها بالدموع، تتركها تسيل على خدَّيها في صمت وهي تتجرَّع غصَّتها.

ولم يكن خوفها على ابنها لينسيها حالها؛ ربما تعود إلى الخصاصة والحرمان وقد ذهب عائلها، ولم يترك سوى بعض النقود لا تكفي لمئونة شهر. فماذا تصنع بعد أن عرفت حياة الراحة والاطمئنان؟.

وعندما تهدأ نفسها تقوم إلى المطبخ تحضر ما يسد الرمق، وتعود إلى نفس المكان، عاكفة حتى يغطي الظلام الغرفة. تشعل النور بعضًا من الوقت، ثم وبعد أن تصلي العشاء، تتسلل إلى فراشها طالبة النوم الذي لا يُكحل جفنيها إلا بعد عناءٍ شديد.

◆◆◆

نهضت عند الصباح الباكر كعادتها، فتوضأتْ، وصلتْ، ودعتْ لابنها، ثم ركنت إلى الجلوس في مكانها العادي، عند الكانون وبرَّاد الشاي. وفجأة سمعت طرقًا على الباب، نهضت مُرتبكة، مُتعثرة في فستانها الطويل، مُندفعة نحو الباب تفتحه مُتفائلة خيرًا، متسائلة: هل سُرِّح العاتي؟. وعندما فتحت الباب فوجئت بالفتاة الواقفة أمامها، ملتحفة

بـــ "سفساري" لا يُظهر من وجهها سوى عينين عسليتين جميلتين. ظلّت تنظر إليها باستغراب، لكن الفتاة بادرتها بصوت مضطرب:

- هل هذا منزل العاتي؟.

أسرعت العجوز بالإجابة، وقد انشرحت لسماع اسم ابنها، وغمرها الأمل:

- العاتي... العاتي... ما الخبر... هل سرَّحوه؟....

ارتبكت الفتاة، ولم تدر كيف تجيب على تساؤلات العجوز، ولكنها أسرعت تقول متلعثمة:

- لا... لا أدري... جئتك من طرف أحد أصدقائه لأطمئن عليك.

بقيتا تنظران إلى بعضهما في صمت بعض الوقت. ثم دنت الفتاة من العجوز وسألتها وابتسامة ودٍّ على فمها:

- كيف حالك يا خالتي؟.

أجابتها وهي لا تزال تحملق في وجهها الجميل، تتساءل عن طبيعة العلاقة التي تربط هذه الفتاة بابنها:

- الحمد لله على ما أعطانا... أكون بخير لو سرَّحوا العاتي.

ثم تقدمت نحوها، وطلبت منها أن تدخل البيت، فالأعين كثيرة.

دخلت وردة متردِّدة، ونزلت الدرج حتى صحن البيت، ثم ولجت الغرفة، وجلست على جلد الخروف أمام الكانون وهي ما تزال في اضطرابها، لا تدري أيَّ الكلمات تقول لهذه المرأة التي لم ترها من قبل، ولا تعرفت حتى على ابنها. مدَّت لها العجوز كأس شاي أحمر قانٍ، ثم سألتها:

- من تكونين؟.

أجابتها بسرعة حتى لا تلاحظ ارتباكها:

- أخت صديق للعاتي، أرسلني للاطمئنان عليك.

وانهالت عليها العجوز بأسئلة أخرى أكثر إحراجًا. تريد أن تعرف اسمها، وعائلتها، ومحل سُكناها، وموطنها الأصلي، وما إذا كانت متزوجة... وهي في الآن نفسه تتفحصها بكل دقة. تنظر إلى فستانها من القماش الرفيع، وحذائها الملمَّع من الجلد، والجوارب النسائية الرقيقة الشفافة. كادت تعريها بنظراتها؛ لترى ما تحمل تحت الفستان. كانت وردة متضايقة من نظرات العجوز، وما إن مدَّت لها يدها بكأس الشاي حتى استلَّت من تحت السفساري ظرفًا، ومدَّتهُ لأم العاتي قائلة بصوتٍ خافتٍ:

- هذه بعض النقود بعث بها أخي إليك، ربما تكونين في حاجة إليها.

أخذت أم العاتي الظرف و لم تفتحه. ظلَّت مُطرِقة تفكِّر. ثم سألت الفتاة:

- هل تعرفين العاتي؟.

ظلَّت وردة مرتبكة لحظة ثم أجابت متلعثمة:

- لم يحصل لي أن تعرفت عليه. كان صديقًا لأخي يعملان في معمل واحد، وقد طلب مني أن أزورك، وهو يعتذر إليك على عدم مجيئه؛ لأن الحيّ مُحاصر بالبوليس، وخاف أن تحوم حوله الشبهات لو جاء إليك.

كانت الكذبة محبوكة بحيث صدقتها أم العاتي، و لم تعد لأسئلتها. نهضت الفتاة متوجِّهةً بسرعة إلى الباب، لكن أم العاتي مسكتها وطلبت منها أن تبقى للغداء، فقالت لها بلطف إنها ستعود لزيارتها مرة أخرى وربما تكون مصحوبة بأخيها عندما يُسرِّحون العاتي. وانصرفت بعد أن قبَّلتها.

(١١)

بعد أسبوع من زيارة وردة لأم العاتي سرَّحت السلطة كل المساجين المتبقين من سكان حيِّ البُرج، وذلك على أثر مقال نشر في صحيفة "لومند" عن التعذيب الذي تمارسه السلطة على المساجين، خاصة أن التحقيق لم يتوصل إلى ضبط عناصر تنتمي إلى تنظيمات سياسية بين المعتقلين. كان لصمت العاتي نتائجه؛ رغم أنه لم يكن يفكِّر في التنظيم وهو يقاوم كل أنواع العذاب الذي تفنَّن الجلادون في كيله له. ولم يكن العاتي يقاوم العذاب ببطولة؛ بل كان يرغب في الموت على أن يعيش مسلوب الكرامة بعد أن اغتصبه جلاده.

وما إن عاد إلى بيته حتى أغدقت عليه أمُّه كل حنانها. كانت فرحتها عارمة، لم تفرح في حياتها تلك الفرحة عندما دقَّ الباب وخرجت تفتحه متباطئة بعد أن يئست من سراحه. ولكن حالما رأته يقف أمامها ارتمت عليه تعانقه والدموع تنهمر من عينيها. لم تكن تتصوَّر أنه يعود فجأة، لقد قالوا لها إن اعتقاله سيطول، خاصة بعد أن سرَّحوا مجموعة من الكهول ولم يحتفظوا إلا بالشُبان. وبعد العناق الطويل، أدخلته إلى غرفته، وخرجت إلى البهو تزغرد، فانصبَّ عليها جيرانها يشاطرونها فرحتها وزغاريدها، ووزعت على الجميع المشروبات احتفاء بعودة رجل بيتها، وابنها الشهم. ومضى كامل ذلك اليوم وبيتها يمتلئ بالمهنئين نساءً ورجالاً.

وما إن خلا البيت من المهنئين؛ حتى عادت أم العاتي إلى ابنها تنظر إليه بإمعان وتسأله عن معاناته، وتعده أنها ستعوِّض له كل الحرمان. خرجت إلى السوق واشترت بعض الخضر وقليلاً من اللحم وأحضرت له العشاء، ولكنه ذاق منه بعض اللقم ثم نهض وعاد

إلى فراشه. ورغم إلحاح أمِّه لم يعد إلى الأكل، ظلَّ ممدّدا على فراشه ينظر إلى السقف تتعاقب في مساحته قضبان الحديد متوازية كالسكة. كان الحزن باديًا على وجهه، لم يقدر أن ينسى ما حصل له في المعتقل أثناء التحقيق. كانت صورة ذلك الوغد الذي اغتصبه واعتدى على رجولته مرات لا تزال عالقة في مخيلته، تذكِّره بشناعة الجُرم الذي ارتكب في حقه. ولكنه كان في الآن نفسه يشعر بعجزه على الثأر لكرامته. انحصرت الحياة عنده في تلك الجدلية. الثأر أو الموت. لن يعيش مسلوب الرجولة! ولن ينعم بالحياة وهو مُهان في كرامته.

لم يعد يشعر بمادية العالم من حوله، فلم يعِ التحول الذي حدث في حياته عندما غادر المعتقل، فهو ما زال يحس بالقيود تكبِّله، وبجدران الزنزانة تحاصره، وبالخوف يملأ قلبه. لقد تحوَّل العالم كله في ذهنه إلى زنزانة مُقرفة تملؤها الرَّداءة. إنه كهذا السقف الذي يثبِّت عليه بصره تخطه تلك القضبان المتوازية. كانت أمه تتحدَّث إليه، لكنه لم يكن يصغي إليها، كانت نبرات صوتها تصل إلى أذنيه دون أن يعي معنى الكلمات. تقوقع داخل ذاته، ورفض الدنيا جملة وتفصيلاً، ولم يعد يفصله عن الموت سوى بصيص من الأمل في أن يجد وسيلة ليثأر لكرامته.

◆◆◆

لمّاَ مدَّت له أمُّه كأس الشاي بقيَ لحظة ينظر إليها، وكأنها قدمت من عالم آخر، ولكنه سرعان ما عاد يحتمي من العالم الخارجي باللجوء داخل ذاته كالخَلَدِ، خوفًا من النور الذي يمكن أن يعريه ويكشف فظاعة ما عاناه داخل المعتقل. لم يعد قادرًا على أن ينظر في عيون الآخرين حتى أمّه. كان عذاب نفسه أقسى من العذاب الذي ذاقه جسده.

تناول رشفةً من الشاي أثارت فيه رغبة التدخين التي اضطر لتركها في السجن لقلَّة ذات اليد. طلب من أمه إن كان عندها نقود، فروت له زيارة الفتاة التي مدَّتها بمبلغ محترم يساوي راتبه لأكثر من شهر. استغرب الرواية، ولم يستطع أن يحدد الجهة التي تطوعت

لإعانة أمه، وعبثًا حاول أن يعرف من أمه بعض المعلومات التي تمكِّنه من معرفة الصديق المزعوم الذي تدّعي الفتاة أنه أخوها، فلم تعد أمُّه تتذكر اسمها ولا اسم أخيها ولا حتى عنوانها. قالت له إن الفتاة كانت جميلة ومهذَّبة ويظهر عليها الثراء من لباسها. ثم مدَّت له بحزمة الدنانير التي تبقت. أخذها وطفق يعد الأوراق البنية، تسعون دينارًا. قالت له أمه أنها أخذت منها اليوم عشرة دنانير لتشتري اللحم، وأنها الآن لم تعد بحاجة لكل ذلك المبلغ. فليفعل به ما يشاء. أرجع لها الدنانير وطلب منها أن تشتري له علبة سجائر، وعاد إلى وضعه ممدّدا على السرير ينظر إلى السقف دون أن يراه.

وفجأة انصبَّت عليه هموم الحياة كلُّها. لا بُد له أن يعود إلى الدنيا، إلى الشارع، إلى العمل، إلى التنظيم. لا بُد أن يختلط بالناس وينظر في عيونهم، وينظرون في عينيه. هل يقدر أن يفعل كلَّ ذلك دون أن يرتبك؟. هل يمكنه أن يمشي رافعًا قامته كما كان يفعل قبل أن يدخل المعتقل؟. هل يمكنه أن ينظر إلى فتاة ويشتهيها كما كان الحال عندما كان يشقُّ أزقة حيِّ الحفير، وتظهر له فتياته الجميلاًت في شبابهنَّ الغضِّ من وراء الأبواب نصف الموصدة؟. وسوف يعود يجتمع مع رفاقه في التنظيم فوق السُّدة، وسوف يسألونه، ويطلبون كثيرًا من التفاصيل. لا لن يقدر على مواجهة الدنيا قبل أن يسترجع كرامته، وينتقم لشرفه!

عندما عادت أمه ومدَّت له بعلبة السجائر، نظر في عينيها مليًّا ثم نهض وارتمى عليها يعانقها بقوة، وانهمرت من عينيه دموع حارة. لأول مرَّة يبكي. لم يبك حتى عندما عذبوه. ربما تكون دموع الهوان. شعر بنفسه وهو يضمُّ جسد أمه النحيل أنه يصغُر، يعود إلى الطفولة عندما كانت أمه تحميه من وحشية هذه الدنيا.

ورغم قذارة الوسط الاجتماعي الذي تربَّى فيه؛ فلم يعتدِ على رجولته أحدٌ، حتى عندما كان صبيًا. كان كل أطفال الحيِّ عُرضة لتلك الاعتداءات الجنسية الفظيعة، سمع عنها الكثير، وعرف الكثير من أصدقائه غرَّر بهم بعض الشبان إما بالمال أو بالقوَّة، واعتدوا على كرامتهم، ولكنهم ابتلعوا السكين بدمه كما يقول المثل. أما هو فلم يكن من طينة

أولئك الأطفال. ربَّته أمُّه على الشهامة وعزَّة النفس. فنما وترعرع في ظلِّ تلك القيم. واليوم شعر وكأن صرحه قد هاوى، وأنه أضاع أعزَّ شيءٍ عنده.

لَّما ترك أمَّه وعاد يستلقي على فراشه؛ لاحظت تعاسته والدمع الذي كان يبلِّل وجهه، فاضطربت ولم تدر سبب حزنه وبكائه. اقتربت منه، ومسحت دموعه بيدها وضمَّته إليها مقبِّلة ثم سألته بصوتٍ خافتٍ:

- ما لك بنيَّ تبكي؟.

لم يُجب؛ بل عادت دموعه تنهمر. قالت له بصوت مرتعش:

- لا تبكي بُني! فالرجال لا يبكون حتى وإن عذبوهم! قالوا إنهم يعذبون المساجين، ولكن الآن كل شيءٍ انتهى.

♦♦♦

ثم انتزعت منه صدَّارته وقميصه، فتركها تفعل دون مقاومة، كان لطفها معه بردًا وسلامًا على نفسه الملتهبة. ظلَّت تنظر إلى جسده العاري مشدوهةً. يا لويل ما فعلوه بك يا العاتي! كلّ هذه الجراح والخدوش على كامل صدرك وظهرك وحتى على مرفقيك! أأدخلوك في معجنة؟. أرفسوك حتى قطَّعوا جلدك؟. كانت بعض الأماكن من جسده مصبوغة بالأحمر لكن الجراح لم تندمل بعد. لم تجد مكانًا من جسده لم تطُله الجراح؛ حتى أصابع يديه التي راعها منظرها لما مسكتها بين يديها. لقد اقتلعوا بعضها، فظهر اللحم ورديًا قبيحًا، وهذه المفاصل تعرت من جلدها فظهرت دامية! كادت أن تصرخ: هذه وحشية! هذا كفر! لكنها تماسكت قليلاً، وضمت ابنها إليها، واندفعت تبكي في صمت، وهي تتحسس الجسد المندمل برقة وقلبها يعتصر من شدَّة الألم الذي كانت تحسُّ به، وكأنها كانت تتعرَّض إلى التعذيب الذي عاناه ابنها، وهي تتلمس آثاره على جسده النحيف الذي فقد صلابته وعنفوانه في فترة وجيزة.

سألته بحدَّةٍ:

- لماذا صبُّوا عليك كل هذا العذاب؟.

أجاب بصوتٍ خافت:

- عذَّبوا كل المعتقلين، إنها وسيلتهم للانتقام.

لم يقنعها ردُّه، لكنها كانت متيقنةً أن ابنها لم يفعل شيئًا يستحق عليه كل هذا العقاب. نهضت، وقالت له قبل أن تغادر الغرفة:

- سأحضر لك ماءً حارًّا، لا بُد أن تغتسل، ولن يمكنك الذهاب إلى الحمام وجسدك على هذه الحالة. وخرجت دون أن تسمع ردَّه. عادت بعد فترة من الزمن تحمل قصعة كبيرة من النحاس، وضعتها في ركن من الغرفة، ثم خرجت من جديد لتأتي بكل لوازم الاستحمام، وبعد أن أتت بسطلٍ كبيرٍ مملوء ماءً حارًّا، عادت إلى ابنها انتزعت سرواله ومسكته من يده وأجلسته داخل القصعة النحاسية، ثم سكبت على رأسه الماء ووضعت عليه طُفلاً وأخذت تدلكه برفق. ورغم معارضته طلت له جسده بالطُفل الذي سبب له حروقًا وبعض الآلام، لكنه تحمَّلها لأجل توسلات أمه. طهَّرت كل جسده، ونشفته بتأنٍ، ولفَّته في بشكير كبير وعادت به إلى السرير، وقبل أن تتركه يتمدد عليه، قالت له أنه عليه أن يترك قدميه في الماء المالح حتى يخفّ انتفاخها من شدَّة ما ضربوه عليها. نفَّذ كل أوامرها كالطِفل الصغير. كان يجد في استسلامه إليها كثيرًا من الراحة.

وبعد أن نشَّفت رجليه المنتفخة، وألبسته ملابس نظيفة معطَّرة، قالت له بحزم:

- لا بُد أن تأكل لتستعيد ما افتقدته في المعتقل، فجسدك النحيف لن يقاوم، وستصاب بالمرض إن بقيت على هذه الحال.

واندفعت خارج الغرفة لتشوي له اللحم. وعندما عادت بالمائدة عليها صحن المشوي كان العاتي قد استسلم لنوم عميق لأول مرة قبل أن يُعتقل. وضعت على خدِّه قُبلة خفيفة، وغطَّته ببطانية من الصوف، وغادرت الغرفة حاملة معها صحن المشوي. ولكنها بقيت محتارة على ابنها فافترشت حشية قرب سريره، ونامت معه في نفس الغرفة. لم تنم كثيرًا فقد أنهضها مذعورة مرَّات وهو يتقلب في فراشه، وسمعته كذلك يصرخ بصوت مكتوم، ولكنها تركته في حالهِ حتى لا يطيش عنه نومه.

(١٢)

عندما نهض العاتي في الصباح؛ وجد أمه تحوم حوله. أسرعت تقبِّله وتسأله عن حاله. ابتسم لها وطمأنها قائلاً:

- أول مرة أنام كامل الليل دون انقطاع.

وعندما نظر إلى الحشية قرب سريره، قال:

- لم تطيقي صبرًا فنمتِ معي!

ثم عاد يضمها إليه ويهمس:

- ما أعذبك من أم!

صمتَ قليلاً وهو يقبِّل خدَّها المتجعِّد، وعاد يهمس وكأنه يخاطب نفسه:

- من أجلك سأعيش وسأسترجع كرامتي!

ثم نزل من السرير؛ لكنه لم يقدر على الوقوف، فقد عادت آلام رجليه تقعده. اتكأ على كتف أمه ومشى خطوات، لكنها أعادته إلى السرير، وهي تلعن غاضبة أولئك الذين اعتدوا عليه بكل هذه الشناعة. وبحركة مضطربة خرجت ثم عادت مسرعة تحمل سطلاً به ماء، وغسلت وجهه وهو مستسلم لحركاتها وكأنه الرضيع. وبعد أن نشَّفت وجهه ضمته إليها مقبِّلة والدموع تنهمر من عينيها. وبعد لحظة من الصَّمت قالت:

- ليس من الإنسانية أن يعذبوا المساجين!

ثم عادت تضمُّه إليها وتمسح على رأسه. وبعد فترة من ذلك الوصال الأمومي المنعش همس لها:

- تريدينني أن أعود إلى الصبا!

لم تُجبه، لكنها تركته وخرجت لتعود بعد فترة محمَّلةً بالمائدة عليها صحن المشوي والفطائر والحليب والتمر والقهوة، وأرغمته على أكل كل ما أحضرته له. وتمادت تعتني به طيلة أسبوع كامل. لم تتركه يغادر البيت، ولم يكن هو يرغب في ذلك خوفًا من أوجاع جسده وخاصة قدميه، وخشية من نظرات الناس. أغدقت عليه حنانها حتى كاد ينسى همومه. لكن ما حصل له بالمعتقل لم يكن ليُنسى!

لم يتوقف خلال كل تلك الفترة عن التفكير في الوسيلة التي تمكنه من الانتقام لشرفه واسترجاع كرامته. استعرض كل الخطط المُمكنة، وأدرك الصعوبات الجمَّة التي ستعترضه، والأخطار التي تهدِّده، ولكنه كان مصممًا على فعل أي شيء حتى وإن أدَّى به الأمر إلى الموت. فكان يردِّد كلما تفطن إلى المخاطر التي تحدق بسعيه إلى الانتقام: "عش عزيزًا أو مُت وأنت كريم!" وبعد أن تفحَّص كل الإمكانيات استقر رأيه على خطة واضحة المعالم والمراحل، وقرر أن يشرع في تنفيذها حالما يسترجع عافيته وقوة جسده. وكان لعناية أمه شأن كبير في الإسراع بعودة نشاطه وصحته، وقد لاحظت التغير الكبير الذي طرأ على جسده فامتلأ، وأُنير وجهه، واندملت جراحه، وعاد ظفر إصبعيه المخلوعين ينموان ولو ببطء، وخف انتفاخ قدميه، وصار بإمكانه المشي دون عناء.

◆◆◆

وفي إحدى الأمسيات حلق وجهه، ولبس بدلته الزرقاء وغادر البيت، بعد أن طمأن أمه أنه لن يتأخر كثيرًا. شق الحيَّ دون أن يراه أحد، وانبرَى يمشي بخُطًى سريعة بين الأزقة الضيقة للمدينة العتيقة. كان يتحاشى النظر إلى المارَّة الذين يتزاحمون من حوله. وعندما وصل إلى حانوت الخياط نظر يُمنةً وشمالاً حتى يتأكد من أنه لم يتعقبه أحد، ثم ولج الحانوت بسرعة وسلَّم على الخياط الذي اندهش لرؤيته، وصعد السلم الخشبي المرتعش، فهبَّ إليه رفاقه يقبِّلونه بحرارة.

ظلَّ صامتًا حاني الرأس متحاشيًا نظراتهم، مجيبًا باقتضاب على أسئلتهم. ثم ساد الصَّمت بينهم. كان الجوُّ فوق السُّدة مغيمًا بسحاب دخان السجائر، وكانت الوجوه مكفهرَّة رغم سرور أفراد الخلية لخروج رفيقهم من المعتقل.

سأله عمران متردِّدًا:

- هل توصلوا إلى معرفة علاقتك بالتنظيم؟.

أجاب دون أن ينظر إليه:

- لا.

بعد صمتٍ طويل عاد عمران يسأل:

- عما كانوا يبحثون؟.

- يريدون معرفة المتسبب في أحداث الشغب التي وقعت أثناء الجنازة.

- هل وجدوا الجناة؟.

- كل أهل الحي جناة بالنسبة إليهم.

صمت قليلاً ثم أضاف بصوت متهدِّج:

- لقد انتقموا من المعتقلين شرَّ انتقام.

وعاد الصَّمت يخيِّم على الجميع. نهض عمران وأطل من السُّدة على الخياط؛ فوجده منهمكًا في شُغله، عاد إلى رفاقه وبعد تردُّد قال بصوتٍ خافتٍ حزين:

- لقد قرَّرَتْ قيادة التنظيم حلَّ خليتنا، وتجميد نشاطٍ أفرادها، أعلموني بذلك منذ فترة لكني كنت أترقب عودة العاتي لأعلمكم بهذا القرار.

لم يشرح لهم أسباب القرار لكنهم فهموا أن اعتقال العاتي وضعهم داخل دائرة الضوء لدى المخابرات. بقوا واجمين لا يعرفون أي موقف يتخذون. فهموا أنه عليهم أن يتفرقوا وأن يقطعوا صلاتهم ببعضهم وبالتنظيم، وأن يتوقفوا عن كل نشاط سياسي. لم يؤثر كلام عمران في العاتي كثيرًا فمعركته لم تعد كما كانت من قبل، من أجل أفكار، وتطلعات، ورؤية مستقبلية لمجتمع عادل ومتقدم؛ بل أصبحت معركة شخصية، معركته

هو بالذات، لا تهمُّ غيره، ولن يطلع عليها أيًّا كان، وهو ينوي أن يخوضها دون مساعدة أحد. وإن فشل فلن يتحمَّل تبعات فشله أحد. فقد أصبح الآن يناضل من أجل وجوده كإنسان كريم يستحق الانتماء إلى الجنس البشري. فلولا أمله أنه سينتقم لكرامته لما جلس بين رفاقه، ولما نظر في وجوههم، ولما خرج من بيته. كان دافعه للخروج أن يثبت لنفسه أنه بدأ يتحرَّك نحو الهدف، وأن خوض المعركة يتطلب التحضير النفسي واستنفار القوى، وجمع المعلومات، والتخطيط المحكم، وعدم التسرع، والكتمان التام.

كان العاتي يلهي نفسه بكل هذه الأفكار حتى يتحمَّل مشقَّة العيش وهو في محنته. ولم يعد التنظيم يهمُّه، ولا حتى رفاقه يروِّحون عليه كربه. كل دنياه أصبحت معلقة في الانتقام ولا شيء غير الانتقام. عندما سأله عمران عن رأيه في قرار التنظيم، بقي صامتًا وكأنَّ السؤال غير موجَّه إليه، لكن عندما أعاده عليه عمران أجاب باقتضاب:

- للقيادة رؤية لا بُد أنها أوضح.

صمت قليلاً ثم أضاف:

- يمكنك أن تقول للقيادة في تقريرك أني لم أصرح ولو بكلمة واحدة عن انتمائي إلى التنظيم، رغم كل ما فعلوه بي.

سأله عليٌّ بلهفة:

- وصمدت أمام كل أنواع التعذيب؟.

لم يجب. ولكن عليًّا عاد يطلب منه أن يروي لهم ولو حصَّة واحدة من حصص التعذيب التي تعرض إليها. بعد صمتٍ قال بصوتٍ خافت:

- أقصى ما عانيته هي غرفة الصابون. نزعوا ملابسي كلها ثم رموا بي في غرفة صغيرة مربعة الشكل لا تتعدَّى مساحتها تسعة أمتار مربعة، جدرانها وأرضها ملساء مغطاة بالخزف، وقد سكبوا على الأرض والجدران خليطًا من الصابون وبعض مواد التنظيف والماء. وما إن وضعت قدمي على أرض الغرفة حتى دفعوني بقوَّة، فانزلقت، وهويت على الأرض اللزجة، وانطلق جسدي بسرعة نحو الجدران يرتطم بها، فرمت بي في كل الاتجاهات، وبقيتُ في تلك الدوامة تتقاذفني الجدران وتدمِّي جسدي وتكسِّر عظامي،

وتُرضرض عضلاتي، وتسيل دمائي حتى أغمَى عليَّ من هول الضربات التي تلقيتها من تلك الجدران الصلبة الرطبة الباردة، وكان الجلادون من ورائي يقهقهون متلذِّذين بعذابي.

كان يروي لهم أطوار مغامرته أثناء الاعتقال بهدوء وكأنه يستحضر حدثا مرَّت عليه سنون. لم يترك في نفسه عذاب جسده آثارًا لا تُمحى، كان عذاب نفسه أشدَّ وأمرَّ من كل أنواع العذاب، لم يقدر أن ينساه. فإن كانت جراح جسده في طريقها إلى الزوال فإن عمق الجرح الذي تفجر في نفسه لن يندمل إلا عندما ينتقم من الجلاد الذي تسبب فيه، ومن رئيسه الذي شجَّعه عليه. كان ذلك تصميمه ولن يثنيه عن تنفيذه سوى الموت. أصبح العاتي قنبلة موقوتة يمكنها أن تنفجر على أعدائه في أي مكان سيجدهم فيه. وكان ذلك تصميمه. فإن حُلَّت الخلية أو بقيت فلن يغير ذلك الحدث من تصميمه، ولن ينتقم باسم التنظيم بل باسمه هو الذي سلب كرامته وهو مكبَّل بالأغلال.

لكن رفاقه لم تكن لديهم نفس المشاعر. كان التنظيم بالنسبة إليهم بمثابة الوطن والأسرة والمستقبل الزاهر الذي يحقق آمالهم في حياة أفضل. فعندما سيتوقفون عن النشاط، فكأنَّهم الآلة التي لم يعد لها دور في دورة الإنتاج. لقد انتموا إلى التنظيم عن قناعة، وسخَّروا كل طاقاتهم لكي يكون حاضرًا حيثما يخوض فيها الناس نضالاً من أجل الوجود السياسي، الذي لا يسمح به النظام إلا لمن انضووا تحت راية حزبه. وجود التنظيم في حدِّ ذاته تحدٍّ لإرادة آلة القمع الرهيبة التي تطارد كل من تخول له نفسه بالتحرَّك السياسي خارج نطاقها. أحسُّوا فجأة وهم في صمتهم فوق السُّدة تكتنفهم أدخنة السجائر المتكاثفة فوق رؤوسهم، بالفراغ الذي سيبتلعهم عندما سيتحولون إلى أناس عاديين لا هم لهم سوى أكل قوتهم في سكينة واستسلام.

وانزوى كل فرد منهم يناجي نفسه ويفكر في ما يمكن أن يملأ به الفراغ الذي سيلوذ إليه؛ حتى يتحاشى دائرة الضوء لآلة القمع الرهيبة. فتعاطي السياسة محنةٌ لا يقدر من ابتُلي بها على تركها بسهولة. قال أحد الفلاسفة: إن الإنسان حيوان سياسي. وإذا ما تخلّوا عن تعاطي السياسة، فسيصبحون حيوانات أليفة كالقطط والكلاب وغيرها مما

طوعها الإنسان لخدمته، والعيش تحت رعايته. والعاتي لن يكون الحيوان الأليف، بل قد يصبح حيوانا متوحشًا يزرع الرعب في قلوب أعدائه.

نهض عمران ودعا رفاقه إلى الخروج، وأوصاهم بعدم الاتصال ببعضهم حتى يأتي ما يخالف ذلك. وتفرَّقوا في صمت، وكأنهم دفنوا عزيزًا عليهم.

(١٣)

رجع عمران إلى بيته شارد الذهن حزينًا. كان التنظيم يمثل جُل حياته. فحتى حياته العائلية لم يكن يخصص لها الوقت الذي كان يعطيه للتنظيم. وكان الجزء الهام من راتبه كموظف بالبنك يذهب إلى التنظيم، وبما أنه لم يُرزق بعد أطفالٌ؛ فقد كان يكنُّ للتنظيم الحب والرعاية وكأنه أحد أطفاله. ولم تكن زوجته تعلم بانتمائه إلى التنظيم، ولا هي تهتم بشؤون السياسة، لم تتعلم إلا النزر القليل، بنت دار كما يقولون، تعرَّف عليها منذ الصبا وأحبَّها حبًّا صادقًا، ولم يكن يبالي بمستواها الثقافي، كان يجد عندها أشياءً كثيرة تحببها إليه، فكانت الصديقة والخليلة، يفضي لها بكل ما يختلج حياته ما عدا شؤون السياسة. وعندما توظّف تزوجها، وهو غير نادم على ذلك، فرعايتها له تزيل عنه كل أتعاب الحياة. وكان ذلك كافيًا لجعله زوجًا سعيدًا. وكانت تقبل منه كل تصرفاته: عودته متأخرًا في غالب الأحيان، رائحة الخمر التي لا تتحملها والتي تملأ البيت حالما يعود، انزواؤه في مكتبه مع الكتب والمجلات. كانت ترعاه وكأنه ابنها، فتدلّله، وتقدِّم له أطعمة لذيذة وحلويات شهية، وتنظِّف جيدًا ملابسه وتكويها بعناية، وتحرص على أناقته عندما يغادر البيت في الصباح، وتلبِّي كل رغباته في الفراش. ولم تكن تقوم بكل ذلك تلبية لواجباتها الزوجية فحسب، فقد كانت تجد المتعة في الإحاطة به، تغار عليه من زميلاته في العمل، ولكنها لا تنغِّص حياته بالأسئلة والشكوك، بل تجعل بيتها وشخصها مصدرًا لمتعة لا تنضب. فكان وفيًّا لها، راضيًا عن حياته معها. ولم تكن تغريه ملذات الشارع، ولا جمال زميلاته، وقد اكتشف دون عناء أنهنَّ تافهات لم تغيِّر كل المعرفة التي

تحصلن عليها من المدرسة في عقليتهن شيئًا، بقين مثل زوجته؛ لا يهتممن إلا بالطبخ واللباس والنميمة، مع إضافة كثير من التصنع والغرور.

صعد السلم المؤدي إلى الطابق العلوي وطرق الباب، فتحته له زوجته ونظرت إليه باستغراب قائلة:

- سرَّحوك قبل الموعد!

لم يجبها، توجه إلى غرفة الجلوس، وضغط على زر التلفاز، ثم ارتمى على الكنبة، وبقيَ ينظر إلى الصور تتعاقب على قرنية عينيه دون أن ينتبه لمحتواها. كان يفكر في حياته الجديدة؛ لقد أوصى التنظيم أن يدخل أفراد الخلية في السرية التامة، ويتوقفوا عن كل الأنشطة التي لها مساس بالسياسة، فلم يعد بإمكانه حضور الاجتماعات النقابية، ولا الجلوس في المقاهي والتحدث إلى بعض المثقفين الذين يعلنون انتماءاتهم الفكرية، ولا حتى الاتصال ببعض التنظيمات الشبابية التي ليست لها علاقة بالسياسة، كمنظمة الكشافة التي له فيها أصدقاء، ومضائف الشباب التي كان منخرطًا فيها، والنوادي الثقافية التي كان يؤمُّها. كان لزامًا عليه ولفترة زمنية لم يحددها التنظيم أن يتوارى عن كل الأنظار، لأن كل تلك الأماكن ملغمة بأعوان أمن الدولة. لم يبق له سوى العمل، وهو يعرف جيدًا أن عدد الوشاة هناك أيضًا كبير، فمقر الشعبة يوجد داخل مقر عمله، وأعوانها يتقاضون كثيرًا من الامتيازات على المهام البوليسية التي يقومون بها. لم يبق سوى بيته، المكان الوحيد الذي لم يطله حصار السياسة، و لم تخنق أنفاسه. ربما يفكر بعضهم كما هو الحال في بعض الأنظمة الفاشية في تدريب الأطفال على الوشاية بالآباء. لم يصل النظام إلى هذا الحد من القمع، ربما لأن كل الذين يهوون السياسة في هذا البلد لا يحلو لهم ممارستها إلا في الأماكن العامة، وخاصة بالمقاهي التي نشرت السلطة داخلها لفيفًا من أعوانها.

◆◆◆

عاد يستعرض جزءًا من تاريخ حياته.

كان مغرمًا بالسياسة منذ الصغر. كان أبوه من عشاق جمال عبد الناصر، ومن المتحمسين للدفاع عن العروبة والإسلام، وكانت إذاعة "صوت العرب" نافذته الكبيرة التي تطل به على العالم. ولكن حالما أخذت معارف عمران تتسع، ومطالعاته تكثر، وخاصة باللغة الفرنسية؛ حتى تخلى عن معتقدات أبيه، واستهوته نضالات أخرى أكثر شمولية. وما إن تعرف على الفكر الماركسي وهو في السنة الأخيرة من التعليم الثانوي؛ حتى اعتنقه، ورأى فيه الخلاص للبشرية المستضعفة، والانعتاق من الفكر الخرافي المهيمن على عقول الناس.

وكانت الدراسة في الجامعة من أكثر أيام حياته متعة. كان أول أفراد أسرته يصل إلى الجامعة العصرية. كان أبوه قد درس في جامع الزيتونة، وكذلك كل أعمامه وأخواله. لم تكن أمُّه تعرف القراءة ولا الكتابة، فبنات عصرها لم يكنَّ محظوظات كبنات عصره، ولم تكن الأسرة تسمح للبنت بمزاولة التعليم. وحتى أبناء عمومته لم يسعفهم الحظ للالتحاق بالجامعة العصرية. لكنه وبعد سنتين من الدراسة غادر الجامعة، ولم ينل منها ولو شهادة واحدة. كان يدرس الحقوق، وكم كانت الدراسة شاقة، خاصة لمن يضحي بجُل أوقاته في العمل السياسي. وتعرَّف في الجامعة على التنظيم، وانضوى تحت لوائه، وأصبح من أقطابه في الجامعة. وما إن أخفق في اجتياز السنة الأولى مرَّتين، حتى غادر مقاعد الجامعة، ودخل الوظيفة في أحد البنوك، بعد اجتيازه مناظرة بنجاح.

كيف سيملأ هذا الفراغ الذي سيتركه انزواؤه على نفسه؟. كان هذا السؤال يثير أعصابه. فيبحث عن أسباب اتخاذ هذا القرار خاصة أنَّ العاتي لم يصرِّح بانتمائه إلى التنظيم وهم يعذبونه. ثم أخذ في طرح أسئلة عديدة حول تصرفات السلطة السياسية واستحواذها على كل شؤون البلاد وتسييرها حسب مشيئتها، وكأن الناس قطيع من الماشية. كان يقول في نفسه وهو يرى أخبار التطاحن القبلي في إفريقيا حين ينشرها التلفاز: "إذا ما كانت طبيعة الحكم في إفريقيا السوداء عشائرية، فهي عندنا أبوية، وإن كانت الدولة بمعناها العصري منعدمة في تلك الأنظمة، فهي عندنا مهيمنة إلى حد أنها

تسحق الأفراد. فالسلطة تجدها في كل مكان حتى أثناء الأعراس والمآتم. والحزب يراقب حتى العلاقات الخاصة، ودلوُهُ يدلي في الجهاز القمعي. وأجهزة الدولة العصرية كالقلاع الفارغة لا دور لها سوى تمرير سياسة الحكم المُهيمن الذي يرى في كل نقدٍ تهديمًا، وفي كل محاسبةٍ تكالبًا على السلطة، وفي كل منشور تآمرًا على أمن الدولة، وفي كل مقال ينشر في خارج البلاد عمالة للأجنبي. ماذا بقي للمواطن الواعي الذي يريد أن يتمتَّع بحقه في ممارسة السياسة؟. لا شيء!. وفجأة؛ طرح على نفسه سؤالاً ارتعدت له فرائصه: "لماذا لم يلتجئ الناس إلى العمل المسلَّح كما هو الشأن في دول أمريكا اللاتينية؟. ماذا لو يتخذ التنظيم قرارًا باللجوء إلى الإرهاب كوسيلة للتعبير عن رفض الهيمنة التي يسلِّطها الحُكم على العباد؟."

بقيَ لحظة يمحِّص كل تلك التخمينات، وجهاز التلفاز يبث صوره السوداء والبيضاء تقع على قرنية عينيه دون أن يراها. كان عبد الحليم يغني، ولم يكن يصغي إليه، لكنه عندما ردَّد المرات: "علِّمني كيف يموت الحب وتنتحر الأشواق" أفاق من تحاليله، وعاد يضطرب، وأخذ يردِّد معه: "علِّمني كيف يموت الحب وتنتحر الأشواق، كيف يموت الحب وتنتحر الأشواق، كيف يموت الحب وتنتحر الأشواق". ارتعدت فرائصه من جديد، وعاد إلى تساؤلاته، وتلاشت شيئًا فشيئًا نغمات عبد الحليم العذبة، ولم يعد يصل أذنيه ذلك الصَّوت الساحر، ولا بقية كلمات الأغنية المعبرة: "يا من صوَّرت ليَ الدنيا كقصيدة شع... ر...".

◆◆◆

ظهرت في مخيلته صور أخرى أكثر فظاعة. نزلت عليه أحداث ٢٦ جانفي الرهيبة. لقد حضر صدفةً في ذلك اليوم الدموي أول شرارة الأحداث. كان في ساحة باب سعدون عائدًا إلى بيته بعد أن زار أحد أقربائه كان مريضًا بمستشفى الرابطة. وإذا بجمهرة من الشباب تركض في كل الاتجاهات ومن خلفها أعوان الأمن بعصيهم الغليظة السوداء

تطاردهم حتى أخلت منهم الساحة. ولكنهم سرعان ما تجمعوا بأعداد غفيرة في مداخل الشوارع المحيطة بالساحة، جاءوا من كل صوب يعبِّرون عن غضبٍ انفجر فجأة. كان عمران من بين الذين حاصرهم رجال الأمن فالتجأ إلى مستودع شركة النقل، كان له عدَّة أصدقاء من النقابيين عمال في الشركة، فحموه ومكَّنوه من الصعود معهم فوق سطح المستودع، ومن هنا رأى كل شيء، وشاهد المجزرة التي ذهب ضحيتها عدد كبير من المتظاهرين.

حضرت تلك الصور الرهيبة في مخيلته، وعادت الأحداث تتسارع في ذاكرته وكأنها شريط سينمائي. كان عدد الجماهير الغاضبة المتظاهرة يتفاقم، ولم يعد في مقدور رجال الأمن احتواء ذلك الزحف، ولم يعد يخيف الجماهير الهراوات السوداء، أحسوا بقوتهم تتعاظم. فتقدموا نحو الساحة يحتلونها، وعمَّت الفوضى. بقي عمران يفكِّر في تلك الأحداث، وكانت صورة تلك الجموع المنتشرة في ساحة باب سعدون تدور حول نفسها دون هدف معين.

كان عمران يستعرض الأحداث صورةً صورة وكأنه يتصفَّح ألبوم صور من الماضي السحيق. هذه صورة قوات الأمن تتقهقر إلى جهة باردو وتترك الساحة للفوضى. وتلك صورة لشاحنة الجيش كانت في تلك اللحظة تتجه نحو شارع ٩ أفريل، هارعةً لحماية قصر الحكومة بالقصبة، ينظر إليها عمران من فوق سطح مستودع الحافلات التي تتقدم ببطء بعد أن تخطَّت معمل البيرة، أمامها سيارة جيب تزمجر. لكن الجماهير وقفت في الطريق تسُدُّه أمامها. كانت فرائصه ترتعد لتلك الصورة. فقد مضت لحظة من الترقب كان فيها الضابط الذي يقف داخل الجيب في حيرة، نظر إليه عمران وهو يدور حول نفسه داخل سيارة الجيب، لا يدري أي موقف يتخذ. ثم رآه يتحدَّث في اللاسلكي، وبعد ذلك نزل من الجيب، وتوجَّه إلى جنوده الرابضين داخل العربة، وأمرهم أن يترلوا، ويصطفوا أمام الجيب. ورأى الجنود ينفذون أوامره. ورأى الجماهير تركض في اتجاههم؛ وكأنها تتفرَّج على مشهد من أفلام الحرب. وأحس بالكارثة عندما بقيَ صف الجنود شاهرين أسلحتهم في مواجهة الجماهير بعضًا من الوقت. وتذكَّر عمران كيف أنه انبطح

على سقف المستودع هو ومن كان معه؛ عندما أخذت أصوات الرصاص تزمجر في السماء.

لم يشاهد عمران كيف وقع الصدام بين الجماهير ورجال الجيش؛ لأنه بقي منبطحًا فوق السطح، و لم يجازف بالوقوف ليرى كيف تحولت المظاهرة إلى مجزرة. كان أزيز الطلق يصمُّ الآذان، ويرهب القلوب، فتجمَّد في مكانه فترة طويلة من الزمن، حتى سمع صراخ الجماهير من جديد، لم يفهم فحوى ذلك الصراخ؛ لكنه علم فيما بعد أن بعض الشبان كانوا يصرخون "cartouches blancs". وبعد ذلك الصراخ المبهم دوَّى أزيز الرصاص من جديد. لم يتحرَّك من مكانه حتى لمَّا ملأ الساحة عويل سيارات الإسعاف.

وبعد فترة طويلة عندما حاول رفع رأسه؛ لم يتمكن من مشاهدة أيِّ شيء، التفت حوله فوجد رفاقه منبطحين مثله، لم يجرؤ أحد على النهوض. وما إن أحس بالهدوء يعود إلى الساحة حتى تسرَّب بحذر من سقف المستودع صحبة رفاقه، وتخطى بسرعة الشارع العريض، واندس بين أزقة المدينة متوجهًا إلى الحلفاوين ومنها إلى بيته. كان شريط تلك الصور المرعبة حاضرًا في مخيلته، وكأنها تقع أمامه بالرغم من مرور خمس سنوات على وقوعها. لم يشاهد القتلى ولا الدماء التي لطَّخت الساحة، كان ينشد النجاة بجلده، ولكنه تصوَّر كل شيء، خاصة بعدما قرأ في الصحف بعض التفاصيل التي سمحت بنشرها الرقابة.

♦♦♦

دخلت زوجته وطلبت منه إن كان يريد العشاء، نظر إليها مليًّا وكأنها نزلت عليه من السماء. كانت صورتها تمتزج بالصورة الرهيبة لتلك المظاهرة. قالت له مستغربة:

- ما لك تنظر إلي هكذا؟.

قال لها مبتسمًا وقد أخذت تنقشع من مخيلته تلك الصورة القاتمة:

- لأنك تعجبيني!

همّت بالخروج معلنة:

- "أنت فأرك يلعب على السكَّر!".

نهض وأدركها قبل أن تصل باب الغرفة، وطوّقها بذراعيه ورسم على رقبتها قبلة طويلة، وهمس لها:

- لولاك لأصبحت الدنيا سوادًا في سواد.

استسلمت للمساته لحظة ثم عادت تسأله:

- تريد العشاء؟.

- وماذا أحضرت يداك الملاح؟.

- شربة لسان عصفور و"جناوية".

- نتعشى بعد نشرة الأخبار باللغة الفرنسية.

تركها وعاد يستلقي على الكنبة. ثم أغمض عينيه، وسرح فكره في متاهات كثيرة جُلّها مظلمة، حتى أخذه النعاس، واستسلم إلى نوم عميق، استولى عليه خلاله كابوسٍ نغّصَ نومه، وأرعبه حتى صار يرتجف، فنهض، ووجد نفسه مبللاً بالعرق، رغم أنه لم يضع غطاءً على جسده قبل أن ينام.

(١٤)

كانت صور حلم عمران فظيعة، بل أكثر فظاعة من صور المظاهرة التي كان يستعرضها قبل أن ينام. ظلَّ لحظة تحت تأثير صور الكابوس التي لم تغادر مخيلته، ثم نهض وخرج إلى الحمام يبلل وجهه، وعاد يجلس على الكنبة، وتفطَّن إلى التلفاز وهو يبث صورًا قديمة لبرنامج دعائي ممجوج ملَّه كل الناس حتى المتحزبون. وعادت صور الكابوس تطغى عليه، حاول صدَّها، ولكنه لم يفلح.

كان في البداية يرى نفسه في مدخل زقاق ضيق شبه مظلم، يتدلَّى في وسطه فانوس كهربائي لا يكاد يضيء جدران المنازل الملتوية العالية، المطلية بالجير. عندما توقف عند تلك الصورة، وتفحصها جيدًا، توضَّح له المكان. إنه زنقة سيِّدي الوزّان، يعرفها جيدًا، هناك تعرَّف على دوجة زوجته عندما كان صبيًا في الثانية عشرة من عمره. كانت الزاوية تحتلّ حيزًا كبيرًا من الزقاق، وكان زوارها كثيرون يأتونها حتى من الضواحي، وكان المشرفون عليها من أحفاد الولي سيِّدي الوزّان الذي كان ضريحه يحتلُّ غرفة كبيرة، مفروشة عليه زرابي من الحرير، ويطوقه سياج من الخشب الرفيع. كانت أمه تعتقد في بَرَكَة سيِّدي الوزَّان، وكان أبوه يحترمه، يقول إنه من الشرفاء، من أحفاد الرسول محمد. لكن عمران لم يكن يعتقد لا في بركة سيِّدي الوزَّان ولا في نسبه الشريف. كانت زوجته من أحفاد ذلك الولي الذي تُوفي منذ ما يقارب القرنين حسب اللوحة الرخامية التي عثر عليها، عندما كان الساهرون على الزاوية ينظفون القبر، وينفضون عليه الغبار. لقد تعرَّف على دوجة وهي صبية لم تتجاوز التاسعة من عمرها. حلت البنية في عينيه وأعجبه كلامها ورقتها، وأصبحا صديقين، يأتيها عدة مرات في

الأسبوع، ويختليان في أحد الغرف الكثيرة للزاوية ليتجاذبا أطراف الحديث. كانت بارعة في الحكايات، والخرافات، وجمع أخبار الزوار رغم صغر سنِّها. ثم لمَّا اكتشفت أمها تردُّده على الزاوية، وعلاقته بابنتها، دعته عدَّة مرات لتناول الغداء مع دوجة، ولم تر في علاقتهما أي خروج عن الأخلاق. كانت العلاقة بريئة في البداية، لكنها تطورت مع مرور الزمن، وأصبح لخلوهما مذاقٌ آخر غير الأحاديث والحكايات. فكانت قبلتهما الأولى التي طارت بعقله، ولكنهما ورغم بعد المكان الذي كانا يختليان فيه عن الأعين، ورغم رغبتهما التي أحسَّا بها تعمُّ جسديهما، توقفا عند تبادل القُبل، ولم يكن بينهما أي اتصال جنسي آخر حتى تزوجا. استولت عليه في بعض الأحيان رغبة في تعريتها، وفي ولوج غمار اللذة، لكن دوجة مانعت بشدة هامسة في أذنه بصوت مرتجف: "هذا لا يجوز. حرام. يعاقبنا عليه الله، ولا يرضى به سيِّدي" وكانت تعني به سيِّدي الوزّان. وكان كلما حاول إعادة الكرَّة إلا وأعادت عليه نفس الجملة، فيتوقف، ويطلب منها المعذرة، ويعودان للحديث عن مستقبلهما المشترك. قال لها إنه سيتزوجها حالما يكون له مورد رزق، وبرَّ بوعده.

لقد اختلطت في ذهنه صور طفولته بصور الحلم رغم تناقضهما. فهذه كانت زاهيةً مشرقةً لذيذةً، وتلك كانت قاتمةً مرعبةً مُرةً. ماذا يفعل في هذا الزقاق الذي يحتوي على ذكريات جميلة من حياته؟. كان يترقب، عادت له صور الكابوس، كان في حلمه يستعد للقيام بجريمة بشعة، هو الذي لم يؤذ في حياته أحدًا. كان يلبس سُترة سوداءَ، وحذاءً مطاطيًا أسود، وتغطي رأسه قبعةٌ سوداء. يا لغرابة هذا الحلم! لم يلبس الأسود يومًا في حياته. كانت أمه تتشاءم من ذلك اللون، وقد جرَّب مرَّة عند امتحان الباكالوريا، ولبس سروالاً أسود، كان قد استعاره من أحد أصدقائه للعب الرياضة، فسقط من القطار وهو يجري عندما حاول امتطاءه وهو يسير. وما إن عاد إلى البيت حتى لاحظت أمه السروال الأسود، وهو مُمزَّق في مستوى ركبتيه، فاضطر لرواية حقيقة ما جرى له. غضبت أمه، وقالت له معاتبة: "ألم أقل أني أتشاءم من لباس الأسود؟. غدًا أزور سيِّدي الوزَّان، وأطلب صفحه، وأتصدَّق برغيف لأحد الفقراء". وكانت تلك المرة الأولى والأخيرة التي

وضع فيها لباسًا أسودَ. رأى نفسه في الحلم وهو يحمل ذلك الزي، وكأنه مجرم من مجرمي الأفلام البوليسية. والغريب أن زنقة سيِّدي الوزّان التي توجد في أواخر حي الحفير، في الخط الفاصل بينه وبين حي الحلفاوين، قد تنقَّلت في الحلم إلى الجهة الشمالية للحي، أصبحت قبالة الشارع / السوق. كان واقفًا في بداية الزقاق، يتكئ على الجدار، يراقب الشارع / السوق وقد أخذت الحركة فيه تفتر، وبعض الدكاكين تقفل، وتنطفئ أضواؤها. وأحس بالسكون يتسرَّب إلى ذلك الشارع النابض كامل اليوم وجزء من الليل. فقد بدا له أنه يرى الشارع يموت ببطء، ويلفظ أنفاسه. عندما التفت إلى داخل الزقاق شعرَ بالرهبة، كان الزقاق ميتًا، جثة هامدة. كانت البيوت متراصة في تماسكٍ تام، لكنها لا توحي بالحياة، فكأنها القبور. شعر بالوحشة من جرَّاء ذلك الجمود الذي يهيمن على المكان.

بدأت الآن في مخيلته تتسارع أحداث الحلم. لم يطل كثيرًا سكون المقابر الذي كان يهيمن على الأرجاء المحيطة به، فقد لاحظ فجأة وصول الضحية. بدأت أصوات خُطًى تدوي على الطريق المعبدة بالحجارة الملساء، وتشنجت أعصابه، كان يحسُّ بها تتشنج وهو يعيد صور ذلك الحلم، وارتعدت فرائصه، والخُطى تقترب منه، يتعالى صداها بين الجدران العالية. لبد بالجدار متحفِّزًا. استلَّ الخنجر الأمريكي الذي كان في جيبه، وضغط على الزِّر، فخرجت الشفرة تلمع، وتهيَّب، وقد تأبطه الشرُّ. وما إن وصل الرجل الذي كان يترقبه، حتى فاحت رائحة الخمر في الزقاق. كان الرجل سكرانًا. انتظر حتى اقترب منه، وقبل أن يتخطاه، عرقله فوقع على ظهره. كان السُّكْرُ قد أفقده توازنه، فلم يتفطن إلى أي شيء.

رأى عمران نفسه وهو ينظر إلى الرجل ممدّدا على الأرض، وهو يهوي عليه بالخنجر يغمده في بطنه، ثم ينقضُّ على رأسه بكلتَي يديه يلطمها على الحجارة الملساء في حركات عشوائية، و ينفجر الرأس، والدم يلطخ المكان، وهو يعيد النفض، وبكل ما أوتي من قوَّة، عندما ترك الرأس تسقط على الأرض، بقي مكوَّمًا على الجُثة يلهث.

◆◆◆

كان ذلك آخر مشهد من حلمه نهض على إثره مذعورًا. ظلَّ شاردًا يلوك أفكارًا كثيرة متضاربة. لكنَّ صورة الرجل الذي كان يقتله في حلمه ظلَّت عالقة في مخيلته. لم يدر لماذا استولت عليه تلك الهستيريا وهو يهشم الرأس بحقد وكأنه ينتقم. وممن ينتقم؟. ولماذا ينتقم؟. إنه عبثُ لا وعيه! لعلَّه كان يكنُّ عداءً دفينًا لذلك الرجل، فتحوَّل في حلمه إلى ذلك الانتقام البشع، وذلك العنف المجاني. صحيح أن ملامح الرجل الذي قتله في حلمه تشبه كثيرًا ملامح "رزوقة" أحد شبان الحي الذي كان يعمل في المخابرات. وصحيح أنه لم يكن يحبُّ الاختلاط به، يبادله التحية كلما التقيا في أحد أزقة الحي؛ لأنه كان يقطن غير بعيد من بيته. لكنه لم يتصور أنه يحقد عليه بكل تلك الشراسة. كان رزوقة شابًا متهورًا في صغره، لم تسلم من شره بنات الحي، وقد شكته دوجة قبل زواجها منه إلى عمران، لكنها طلبت منه أن لا يقوم بأي عمل تفاديًا للفضائح. واغتاظ وقتها، ولكنه لم يقل لرزوقة شيئًا. لعل لا وعيه فجَّر في حلمه تلك الرغبة في الانتقام، وجعله يتصرَّف بكل تلك الوحشية.

حضرت زوجته تحمل المائدة، نصبتها أمامه، ثم عادت إلى المطبخ لتأتي بالطعام، وهو ما زال فوق الكنبة شاردًا، يحلل ملابسات الكابوس الذي لم يقدر أن يتخلَّص من صوره المرعبة بسهولة.

جلست زوجته على الحشية، وطلبت منه أن يترل حذوها، فلبى طلبها، والأسئلة ما زالت تشنج أعصابه، لكن حالما لامست ركبتُه فخذَ زوجته حتى التفت إليها مبتسمًا، وقد جلا وجهها المتورِّد من ذهنه كل التساؤلات وكل ضجر السياسة. كانت مصدر انشراحه كلما حاصرته الهموم. فهي دائمًا مبتسمة لا تحمل من منغصات الدنيا شيئًا. بدأ العشاء وعيناه تنظران بفتور إلى نشرة الأخبار باللغة الفرنسية. نفس صور نشرة الأخبار باللغة العربية، ونفس الأسلوب المحنَّط، لغة خشبية كما يقول الفرنسيون.

عاد يضطرب عندما تعاقبت الصور على الشاشة، صور متحرَّكة بدون أصوات كأفلام شارلو. وعاد يحادث نفسه ويتساءل عن طبيعة هذا العنف الإعلامي المسلط على الشعب. أكاذيب، ودعاية مملة، وعبادة للشخص، ومفردات ممجوجة، حتى باللغة

الفرنسية! ولا أحد له الحق في أن يقول كلمة واحدة غير التطبيل والتهليل. إعلام مُرتزق لرجل واحد وفكر واحد وخبر واحد! لم يقطع كل ذلك الزيف شهيته، فانبرى يأكل دون أن يعير تلك الصور أي اهتمام. لكن عندما تحولت المذيعة إلى أخبار العالم استرعت انتباهه صور فظيعة عن الحرب الأهلية في لبنان: قتل ودمار وفوضى مُميتة.

(١٥)

عندما عاد العاتي إلى بيته أعلمته أمه أن الفتاة التي سلَّمت لها المال لَّما كان في المعتقل؛ قد جاءت تسأل عنه، وأنها ستعود عند التاسعة ليلاً. استغرب تصرُّف هذه الفتاة وأخذ يتساءل عن هويتها، فهو لا يعرف أصدقاءً لهم أخوات يتصرفن بهذه الطريقة، يقتحمن البيوت في الليل في حيٍّ لا يسلم فيه حتى الفتيان.

وضعت له أمه العشاء فأكل بشهيَّة حتى شبع. بدأت تعود له رغبته في الحياة. لقد أخذت خطَّة انتقامه تنضح. سيعود إلى سالف عمله، لن يطرده "عرفه" فهو عامل مقتدر ومثالي في سلوكه. وإذا ما سأله عن سبب تغيُّبه الطويل فسيشرح له الأسباب بكل ملابساتها، وسيتفهَّم أنه كان بريئًا مثل كل شبان الحي. وسيخصص كل أوقات فراغه في البحث عن المكان الذي اعتقل فيه. لا بُد له أن يعثر عليه. كانت له بعض المعطيات، سيتأكد منها بالبحث والتدقيق. وسيصبر، ويكابد، ولن يفلَّ في عزمه شيء.

وبينما هو غارق في التفكير، طرق الباب. طلب من أمه أن تفتحه، وبعد هنيهة دخلت فتاة تلبس سفساري يغطي كامل جسدها، سلَّمت عليه، وظلَّت تنظر إليه مليًّا. خرجت أمه لتأتي لها بكرسي، فقالت الفتاة للعاتي بصوتٍ خافت:

- أنا من التنظيم جئت لأمرٍ خاص، هل بإمكاننا أن نتحدث على انفراد؟.

عادت أمه ووضعت أمام الفتاة الكرسي، وطلبت منها أن تجلس على راحتها، ثم خرجت من جديد، فقال العاتي للفتاة مرحبًا:

- أهلاً وسهلاً. ولكني لم أفهم عن أي تنظيم تتحدَّثين؟.

أدركت أنه يشك في كلامها، فجلست بعد أن انتزعت السفساري، وظهرت في زيٍّ رجاليٍّ لم يرُق للعاتي كثيرًا، لكنه عندما بقيَ يتفحصها حلت في عينيه. عادت أمه تحمل طبقًا عليه بعض الحلويات، وكوبًا من مشروب غازيٍّ وضعته أمام الفتاة، ثم غادرت الغرفة. قالت الفتاة للعاتي:

- أنت من عناصر خلية باب الخضراء، وصندوق بريدكم رقم ٤٨٥...

وسردت عليه تفاصيل أخرى أقنعته أنها على علم بوجود الخلية. ثم أعلمته أن قيادة التنظيم كلَّفتها بالبحث معه في ملابسات اعتقاله، وفي المعلومات التي ربما زوَّد بها المحققين حول انتمائه إلى التنظيم. قاطعها قائلاً باعتزاز:

- لم أصرِّح للمحققين بأية معلومة تخص التنظيم. لم أعطهم الفرصة لمعرفة انتماءاتي السياسية.

سألته مستغربة:

- لم يعذبوك؟.

مدَّ لها يديه قائلاً:

- أرأيت خلو الأظافر من بعض أصابعي؟. إنها من آثار التعذيب.

مسكت إحدى اليدين وطفقت تتثبت فيها. كانت بعض الأصابع بدون أظافر تظهر وردية، ارتعدت لرؤيتها فرائصها، نظرت إليه دون أن تترك يده، وقالت:

- لا بُد أنك عانيت كثيرًا من الألم لتصمدَ أمام ويلات تعذيبهم؟.

لم يقل لها أن عذاب نفسه كان أكثر ألمًا من عذاب جسده، اكتفى بالقول بصوتٍ خافتٍ:

- أنا إنسان ريفي رغم ولادتي بالعاصمة. والريفي صلب لا يتحمَّل الاعتداء. تحديتهم حتى النهاية، وكنت أفضِّل الموت على الاستسلام.

كادت أن تُقبِّل يده، لكنها ظلَّت تتفحص وجهه بعناية. وجدت في ملامحه كثيرًا من الرجولة وعزة النفس. ذلك الشارب الأسود يعلو شفتين قرمزيتين وفوقه أنف حاد كالسيف، تحت عينين سوداوين حادتي النظرة. مسحت على كفه وتركت يده قائلة:

- أقدِّم لك نفسي: أُدعى وردة مهمَّتي التنسيق بين الخلايا. وقد كلَّفني التنظيم بالتحقيق في كل ملابسات اعتقالك؛ لأنه يعتزم فيما يخص التعذيب الذي تعرَّض له معتقلو سكان حيِّ البُرج، إعداد ملف لإرساله إلى المنظمات الدولية المختصَّة في قضايا حقوق الإنسان. ستكون مهمتي صعبة لكني أعوِّل عليك لمساعدتنا.

بعد وقت من التفكير قال وقد حنَى رأسه:

- أفضِّل ألا يُذكر اسمي من بين الذين عذبوهم. سأدلُّك على كلِّ المعتقلين الذين أرغموهم على قول أشياء لم يفعلوها قطّ، وأنا متأكد أنهم لم يقوموا بتلك الأفعال، ولكنهم لم يتحمَّلوا ما قاسوه من تعذيب فاعترفوا بكل ما أراد المحقق أن يعترفوا به، وأمضوا على محاضر مكَّنت العدالة من الحكم عليهم بالسجن.

- لن نذكر أسماءً؛ ولكننا نريد أن نتعرَّف على حالات تكشف وتفضح أساليب النظام لدى المنظمات الدولية المختصَّة في حقوق الإنسان.

كان يفكِّر فيما يريده التنظيم من هذا التحقيق. لا يهمُّه النظام، لأنَّ الذين اعتدوا عليه هم أشخاص قاموا بتلك الأعمال بكل رغبة، ووجدوا في تلك الأفعال لذة. لا يرغب في الانتقام من رمز لا ملامح له. يريد شخصًا لحمًا ودمًا، يذيقه العذاب، ويسيل دمه، ويريح من شره البشرية. ثم إنه لا يرغب في تعرية نفسه لفتاة ولا حتى لرجل. ما وقع له في المعتقل هو جزء من حياته سيبقى مدفونًا داخله.

ساد بينهما الصَّمت، وقد عادت تلتهمه بعينيها وهو حاني الرأس، ثم سألها دون أن ينظر إليها:

- وكيف ستقومين بالتحقيق دون أن تعرِّضي نفسك لآلة القمع؟.

أسرعت بالإجابة:

- لي وسائلي. لا تخف، أخذتُ كل الاحتياطيات، أطلب منك فقط أن تساعدني.

ثم نهضت ومدَّت له يدها تودِّعه قائلة:

- هل يمكننا أن نلتقي غدًا عند العاشرة صباحًا في حديقة البلفيدير؟.

لم يكن يترقَّب أن يراها تغادر البيت بهذه السرعة، فوقف ينظر إليها دون أن يقول شيئًا، ودون أن يترك يدها حتى دخلت أمه فاستغربت وقوف الفتاة. خاطبتها راجية منها أن لا تغادر بيتهم دون أن تذوق شيئًا. سلَّت يدها وأخذت كأس المشروب الغازي وسكبته بعجلة، وقبَّلت أم العاتي وهي تضع السفساري على رأسها، وعند عتبة الباب تراجعت لتقول للعاتي:

- عند باب الكازينو.

وما إن خرجت حتى لحقها، فطلبت منه أن يتركها تغادر البيت بمفردها، ورغم إلحاحه على مرافقتها إلى خارج الحي فقد مانعت. قالت له وهي تصعد الدرج:

- ليس لي جسد رجل؛ ولكن لن أترك أحدًا يعتدي علي.

وانصرفت.

بقيَ العاتي محتارًا في تصرف هذه الفتاة. التفت إلى أمه وسألها:

- أأنت على يقين أنها نفس الفتاة التي أعطتك النقود؟.

أسرعت أمه تجيب:

- هي نفسها. فتاة جميلة ومهذبة... ما فيه خير يسهِّل به الله.

لم ينتبه إلى الجملة الأخيرة التي قالتها أمه بصوتٍ خافتٍ، فقد عاد إلى غرفته يتمدَّد على الكنبة يفكِّر في الفتاة.

(١٦)

نهض العاتي باكرًا، ودون أن يوقظ أمه خرج إلى بائع الفطائر فاشترى فطيرتين وعاد إلى البيت. أكل الفطيرة وخرج إلى المقهى فوجد هناك مجموعة من الشبان الذين اعتقلوا معه: إسماعيل والسبتي وعمَّار الغول وغيرهم. سألهم عن حالهم وأحوالهم، فاشتكوا له البطالة والاحتياج ومراقبة رجال الأمن والشعبة. كان يودُّ أن يعرف إذ ما كانوا مستعدين للتحدث مع وردة، ولكنه لم يعلمهم بذلك، هذه الأمور تناقش فرديًا وفي الخفاء. وتيقَّن أن الشرطة ما زالت تراقبهم، وأنه عليه أن يحتاط في كل ما يفعل. طلب القهوة للجميع، وبقيَ يستمع إلى أحاديثهم عن كرة القدم. اليوم يوم أحد، ومباراة الترجِّي والنادي الإفريقي تستقطب انتباه الجميع، وكل سكان الحي من أنصار الترجي إلا القلة النادرة التي تعلن مساندتها للإفريقي علانية، خاصة عندما يكون منتصرًا. لم يكن العاتي يهتم بكرة القدم ولا بلعب الورق ولا حتى بمغازلة الفتيات. كان شبان الحيِّ يعتبرونه من الشواذ، فجل اهتماماته كانت فكرية: الكتب والسينما والرحلات، ومغامراته الغرامية كانت قليلة، وتُحاط بكل الكتمان. ولكن كل شبان الحي يحترمونه، ولا يعترضون سبيله، مسالم لكنه إذا ما غضب يتحوَّل إلى شرس يفتك بكل من يحاول الاعتداء عليه.

عندما أكملت الساعة الحائطية الكبيرة دقاتها التسع غادر العاتي المقهى تاركًا أصدقاءَه في خصامهم حول نتيجة مباراة الترجي والإفريقي. توجه إلى حديقة البلفدير، وصورةُ وردة تملأ مخيلته. لقد ملأت صورتها ذهنه منذ نظرت في عينيه بكل تلك الجرأة، وظلَّت تلك الصورة الجميلة تطغى على خياله رغم كل اعتراضات عقله. لم تكن حديقة البلفدير

تبعد كثيرًا عن حيه، ففي غضون ربع الساعة كان في الحديقة يتجوَّل بين أشجارها العالية المترامية الأطراف. يعرف تلك الحديقة بقعةً بقعة. كانت في صباه ملاذه الوحيد عندما تشتد حرارة الصيف، يأتي إليها ومعه كتاب، ويختلي تحت ظل شجرة، وينسى الدنيا ومنغصاتها. يتحوَّل بذهنه إلى كل أصقاع الدنيا، إلى القاهرة في الثلاثينيات مع نجيب محفوظ، إلى باريس القرن الماضي مع زولا، إلى موسكو القيصرية مع تلستوي، إلى أمريكا الينكي مع ستاينباك. كان الكتاب أنيسه الوحيد في بداية شبابه. ثم جاءته السياسة عندما انخرط في النقابة، وحضر اجتماعاتها، وخالط النقابيين من مختلف القطاعات، واكتشف التفكير الماركسي عن طريق الكتب. وبعد ذلك انخرط في التنظيم عندما تعرَّف على عمران في حمَّام باب لقواس حيث يغتسل صباح كل يوم أحد.

قبل العاشرة بخمس دقائق كان أمام باب الكازينو الجميل يترقب. نظر في كل الاتجاهات فلم يجد أحدًا، كان المكان خاليًا، وتأكد أنه لم يكن مراقبًا في تنقلاته، لأن السبتي روى له أن البوليس يتبعهم في كل مكان، وأن رجال الشعبة يحثون أرباب المصانع والحظائر على عدم تشغيلهم. والسبتي معروف لدى الجميع بخياله الواسع في خلق الشائعات، وتلفيق الأكاذيب. لكنه أحسَّ أن شيئًا ما يثير أعصابه. هذه الفتاة التي اقتحمت بيته، ونظرت في عينيه بكل جرأة، ودخلت حيَّ البُرج في الليل وبمفردها دون خوف، أثارت فيه كثيرًا من التساؤلات في البداية، ثم الاحترام والمودة، وهو يشعر الآن أنه يحنُّ إلى لقائها والتعرف عليها، واكتشاف سرِّ تواجدها في التنظيم.

عند العاشرة تفاقم تشنجه وطفق ينظر في كل الاتجاهات باحثًا عنها. ومضت خمس دقائق و لم تحضر، وبعد ربع ساعة بدأ ييأس من حضورها. كانت بعض السيارات القليلة تمرُّ مسرعة من أمامه لم يُعِرها أيَّ اهتمام. ستأتي على القدمين من جهة اليمين، تشق الباب الأول، وتصعد الربوة... ربما اعترض سبيلها أحد الشبان! لا... البلفدير مكتظ بالزوار يوم الأحد، وحرس الحديقة في كل مكان... وتوقفت أمامه سيارة ستروان صغيرة من نوع "الحصانين" لم يلتفت إليها حتى فُتح بابُها، وأطلت السائقة تناديه. إنها هي وردة تجلس أمام المقود الكبير.

صعد مضطربًا وأغلق الباب، فانطلقت السيارة ببطء، وأحدث محركها فرقعة تمزِّق الهدوء المخيم على الحديقة الجميلة.

بادرته بالاعتذار عن التأخير، وتمادت تدفع السيارة صاعدة حتى وصلت قُبة الهواء. أوقفت السيارة ونزلا، وتوجَّها إلى داخل البناية. كان الجو باردًا رغم خلو السماء من السحب. جلسا في قاع القاعة الدائرية الشكل، ثم نظرت في عينيه بلهفة وسألته:

- هل رجعت إلى العمل؟.

خفض بصره، لم يقدر أن ينظر إليها، عادت له اضطرابات نفسه، وشعر بالانقباض. أجابها بصوتٍ خافت:

- سأتصل بالمعمل غدًا.

وضعت يدها على كتفه وقالت:

- إنْ طردَكَ صاحب المعمل فسأجد لك شغلاً بسهولة.

بعد فترة من الصَّمت طلبت منه أن يحدِّثها عن ظروف اعتقاله. لم يقل شيئًا، لا يريد أن يتذكر تلك الفترة من حياته. ثم إنه لا يرغب في إطلاع هذه الفتاة على أسراره. سألها متردِّدًا:

- كيف دخلت التنظيم؟.

عادت تنظر في عينيه، ثم قالت مبتسمة:

- كما دخلته أنت. كنت أنشط في نادي السينما عندما كنت تلميذة في المعهد، وتعرفت على شباب كان متحمسًا للفكر الماركسي، ومن ثمة اكتشفت التنظيم وانضممت إليه. والآن أصبح كل حياتي، أهبه كل أوقات فراغي. لا بُد أن نقاوم جماعات الانتهازيين، ونحمي العمال من جشع رؤوس الأموال، ونهيئ البلاد إلى المعاصرة. أليس من أجل هذا دخلت أنت كذلك التنظيم؟.

كان حماسها ينعشه، يجلي عنه همَّه واضطراب نفسه، ومع ذلك لم يقدر أن ينظر في عينيها. لم يكن خجولاً؛ ولكنه يشعر أن هذه الفتاة تعرِّي جراح نفسه. كانت صورة

ذلك الوغد الذي اغتصبه في المعتقل تنخر عقله، تحومُ في ذاكرته، يحسُّ بها جاثمة على أنفاسه. فاحتمى بالصَّمت. انتظرت الفتاة بعض الوقت ثم عادت تسأل:

- هل يؤلمك أن تقص عليَّ ما وقع لك في المعتقل؟.

لم يجب. فقالت له برقة:

- نحن رفاق، يجمعنا نضال واحد ومصير واحد، ونحن مُعرَّضون في أي لحظة من حياتنا إلى القمع والتعذيب والسجن، إنه قدرنا اخترناه عن طواعية. ومن واجب الرفيق أن يساند رفيقه في كل الحالات. فعندما تتحدث معي عمَّا حصل لك في الاعتقال؛ تكون قد أفرغت شحنة الغضب المكبوت داخلك...

قاطعها بصوت أجشّ:

- لا أبحث إلا على الانتقام لنفسي!

أسرعت بالإجابة:

- لن تقدر على الانتقام من جهاز الدولة!

- أريد الانتقام من أشخاص لا من الجهاز.

- والأشخاص يحميهم الجهاز.

التفت إليها فرأت في عينيه كثيرًا من الحزن، وكثيرًا من الحقد، وفهمت أنه يريد فعلاً أن ينتقم من جلاَّديه. فعادت تقول:

- سنفضح ممارسات الجهاز، وسيكون ذلك بمثابة الانتقام وتعرية لأساليبه الإجرامية. أمّا الانتقام من الأشخاص فلن يوقف الجهاز عن تعذيب المعتقلين، إذ سيكلف جلادين آخرين يقومون بتلك المهام.

لم يكن العاتي مقتنعًا بكلامها؛ لأنه كان يرى في الانتقام خلاصًا من عقدته، وشفاءً لآلام نفسه، ولكنه لم يقل شيئًا. بقي صامتًا، ينظر إلى أرض القاعة المبلطة بالرخام. مسكت يده ومسحت عليها قائلة:

- إذا كان الحديث عن التعذيب يؤلمك فلا داعي، لنتحدث عن أشياء أخرى.

ثم أخرجت من حقيبتها ظرفًا ومدته إليه معلنة:

- هذا مبلغ من المال خصَّصه التنظيم لك حتى تستعيد عملك.

بقي متردِّدًا في أخذ الظرف، لكنها وضعته في جيبه دون أن تترك يده. مسكت ذراعه وقالت:

- فلنتمش قليلاً، أثلجني المقعد الرخامي.

♦♦♦

خرجا إلى الفضاء الرحب وهي متشبثة بذراعه كالبُنية لقصر قامتها. كانت تلبس مثله زيًا رجاليًا: سروالاً وقميصًا وصدَّارة ومعطفًا وحذاءً مطاطيًا. دخلا الغابة الغنَّاء صامتين، وانشرح العاتي لرؤية الطبيعة الزاهية تعمُّها الخضرة رغم فصل الشتاء. انحنى عليها يسألها:

- أين تقطنين؟.

- في صلامبو.

وبعد هُنيهة من الصَّمت عاد يسأل:

- وتشتغلين بالبنك مع عمران؟.

- ومن هو عمران؟.

- قائد الخلية!

- لا أعرفه. لا زلت طالبة، أدرس علم الاجتماع، وسأتخرج هذه السنة إذا ما وُفِّقت في الامتحان.

قال لها بتلقائية:

- طالبة وتملكين سيارة!

توقفت عن المشي، ونظرت إليه مليًّا ثم قالت:

- نعم أملك سيارة ولو بقوة حصانين فقط، وأبي غنيٌ يملك أراضيَ شاسعةً في جهة ماطر، وأمي تنتمي إلى الأرستقراطية البلدية. ومع هذا فأنا ثائرة على الحكم، وأنادي بدولة العمال، وأناصر المستضعفين. ألا يطيب لك ذلك؟.

كانت تقترب منه تكاد تضمُّه إليها. وكان يتحاشى نظراتها المتقدة. عادت اضطرابات نفسه تؤلمه، فحدَّق في الأفق اللازوردي غير مصدق ما يحصل له. عاد يمشي ببطء وهي تمسك بذراعه. واصلا مشيهما في صمت. فهمت مدى تصميمه على الانتقام. لقد رأت في عينيه مدى العذاب الذي عاناه وما زال يعانيه من آثار التعذيب في نفسه. عندما اعترضهما مقعد، جلسا، وبعد فترة من الوجوم، أخذت يداهُ تتفحصهما بإمعان. كان لمشهد الإصبعين الخاليين من الظفرين تأثيرٌ على نفسها. تصورته وهو يتعذَّب عندما كانوا يقتلعون ظفريه. سألت بصوت مرتعش:

- ما زالت على جسدك بقايا جراح؟.

عرَّى بطنه وأراها بُقعًا سوداء منتشرة هنا وهناك. وقال دون أن ينظر إليها:

- تلك بقايا لحروقٍ خلَّفها إطفاءُ السجائر مباشرة على الجِلد.

قالت بعصبية:

- سأروي لأمي ما شاهدته حتى تقتنع أن قريبها وزير الداخلية يسمح بتعذيب المواطنين بكل هذه الشناعة!

صمتت قليلاً ثم أضافت:

- ليس الجلادون وحدهم الذين يستأهلون العقاب، بل رجال السياسة الذين أعدُّوهم لتلك المهمَّة وأمروهم بتنفيذها، أولئك هم المذنبون الحقيقيون؟.

لم يكن العاتي يشاطرها ذلك التفكير، فهو يعتقد أنَّ الذي اغتصبه في المعتقل لم يأمره وزير الداخلية ولا حتى المحقق. وانتقامه منه هو قضية شخصية ليس للساسة فيها أي دور. ولكنه لم يفهم كيف أنها تكون قريبة وزير الداخلية، وتنتمي إلى تنظيم عمَّالي. غريبٌ أمر هذه الفتاة! غير أنه استخلص بسرعة أن النضال لديها ليس قضية مصيرية بل هواية، تمضية للوقت، لعبة من لعب الشباب المدلل، لن تدخل السجن حتى ولو ضبطوها

توزع المنشورات. كاد أن ينتزع منها ذراعه المتشبثة به منذ التقيا. وشعر أنه هو كذلك ربما يكون بالنسبة إلى هذه الفتاة لعبة سرعان ما تتركها عندما لم تعد تحلو لها. تفاقمت اضطراباته وأحس بقشعريرة تخترق جسده وبالحرارة تعم وجهه. سمعها تسأل:

- متى يمكنني أن ألتقي ببقية المعتقلين؟.

أجابها دون أن ينظر إليها:

- سأتدبَّر الأمر وسأتصل.

مدت له بطاقة شخصية بها رقم هاتفها.

وقفت وانتصبت أمامه مادة له يديها، أخذ اليدين ونهض، ثم توجها خارج الغابة. وعندما وصلا قرب السيارة، قال لها:

- سوف أطلبك بالهاتف.

تمسكت به قائلة:

- ما زال عندنا متسع من الوقت.

نظرت في ساعتها، ثم أضافت:

- نفترق عند منتصف النهار.

لم يقل شيئًا، استسلم لإرادتها؛ عندما أخذت يده وعادت إلى الغابة وهي تقول متحمسة:

- أريد أن أساعدك على الخروج من محنتك بأسرع وقت. أنت تحتاج إلى صداقة تحميك من التقوقع على نفسك. لقد حطموك، وزرعوا فيك القنوط، وكان ذلك السبب الرئيسي لتعذيب شبان حيِّ البُرج. يريدون أن ينتزعوا منكم الرجولة. كل المعتقلين الشبان الذين أوقفوهم من أجل السياسية عذبوهم بشناعة حتى يكفوا عن تعاطي السياسة مدى الحياة. يخرجون من المعتقل وقد فقدوا الحماس والاندفاع وحتى الرجولة. يريدون شعبًا من الخصيان!

نفذ حديثها في صميم فؤاده. فهمت جيدًا حالته دون أن تعلم حقيقة ما جرى له. لكنه كان مصممًا على استرجاع رجولته، متحديًا آلة القمع والجهاز كما كانت تقول. سينتقم، وسيثبت أنه ما زال رجلاً بكل مقوماته. عادت تتحدث بلهفة:

- إن رجال السياسة أغبياء، فهم لا يفهمون أنهم عندما يمنعون العمل السياسي على الشباب الواعي الذي يحلل المعطيات الموضوعية بطريقة علمية، ويسطر أهدافًا واضحة، ويريد دفع عجلة الزمن إلى الأمام، إنما يقضون على مستقبل البلاد، ويدفعون بقوى الرجعية والظلام إلى الخروج على السطح، والاستحواذ على العقول التي بجهالتها تندفع بسهولة نحو الشعوذة، والتخدير، والهستيريا الدينية، كما كان واقعًا في الغرب عندما كانت الكنيسة تستحوذ على الحكم في أوروبا!

لم يقل لها العاتي أن قضيته الآن ليست السياسة بل الكرامة. إنه مهان في كرامته، يريد الانتقام ليشعر أنه ما يزال إنسانًا. ولكنه كان يشاطرها تحاليلها؛ وإن كان يرى فيها بعض الشطط. فإذا كان الساسة أغبياء فكيف حكموا البلاد منذ ما يقارب الثلاثين عامًا، و لم يأت من كان أذكى منهم وأقنع الناس بذلك. إذن فالشعب غبي لأنه قَبِلَ بحكم الأغبياء... اختلطت عليه الأمور و لم يعد يفهم شيئًا. هذه الفتاة بتناقضاتها تحيره. إنَّها أقرب منه إلى الحكم، يمكنها أن تقول ذلك الكلام لوزير الداخلية قريبها. وهي الآن أقرب منه إلى نفسه، تمسك بيده، ويحس بنعومة يدها، ويروق له حماسها وأفكارها، ولكنه في الآن نفسه لا يستطيع أن يندفع معها بكل تلقائية؛ لأنه يشعر بقوة تكبِّله، تمنعه من أن يكون هو كما كان قبل أن يسلب كرامته. ضغطت على يده قائلة:

- لماذا لا تقول شيئًا؟. تكلم يا العاتي فالحديث يروِّح عن النفس. قل أي شيء! اعتبرني أختك، لا بل صديقتك، كفانا أبوية...

توقفت عن المشي، ووقفت أمامه ونظرت إليه مليًّا، ثم قالت:

- أشعر أن شيئًا يكبِّلك. لماذا هذه النظرة الحزينة؟. لقد مضى على خروجك من المعتقل أكثر من شهر، وجراحك قد اندملت، والمستقبل أمامك. لا تخف لن يرجعوك للاعتقال، فقد حُفظ ملف أحداث حيِّ البُرج بأمر من الرئيس.

قال لها بصوت خافت:

- لست خائفاً. تعلمت منذ الصغر أن لا أخاف.

كانت تنظر إلى ملامح وجهه وهي تتغيّر، وشرر الحقد في عينيه. فهمت أنها لا تستطيع أن تلج قلبه بسهولة. ولكنها وعدت نفسها أن تحاول ما في وسعها حتى تجد فجوة تدخل منها إلى نفسه الكسيرة. قالت له وهي ما زالت تستقرئ ما يدور بخلده:

- إذا لم تجد عملاً أخبرني، وإذا كنت في حاجة إلى مساعدة فلا تتردَّد في طلبها مني. لي كثير من الأصدقاء والأقارب يمكنني أن أستغلهم.

لم يقل شيئًا. ظلَّت واقفة تتثبت في وجهه الجميل. كان بودِّها لو انحنى عليها وقبَّلها، لكنه لم يفعل، ولم تكن ترغب في إرغامه. هذا الرجل صلب لكنه الآن هشٌ، يجب معاملته بحذر. تركته واقفًا وتقدمت خطوات فلحق بها، وأخذ يدها وعادا يتوجهان إلى السيارة الرابضة أمام قُبة الهواء. كان هو كذلك يرغب في ضمها إليه، لقد أحس بنظراتها الملتهبة، وبتشنجها أمام برودة معاملته لها. ظلَّ يفكر في تناقضاته حتى وصلا قرب السيارة. فتحت الباب آملة منه الصعود. بقيَ واقفًا لحظة وهي تراقبه من خلال نافذة السيارة. تراجع قليلاً وانحنى في لطف قائلاً:

- أفضِّل أن أعود راجلاً إلى بيتي، فحيُّنا لا يبعد كثيرًا عن الحديقة.

نزلت من السيارة واحتضنته مقبِّلة، ثم عادت مسرعة إلى السيارة وقالت له بصوت مرتفع بعد أن شغَّلت المحرك:

- لا تنس أن تتحدث إلى أصدقائك في قضية التعذيب، أريد إتمام الملف في أقرب وقت.

أومأ لها برأسه أن نعم، فلوَّحت له بدورها بيدها مودِّعة، ودفعت السيارة تنزل الربوة. بقيَ واقفًا في مكانه حتى توارت عن ناظريه، ولم يتحرَّك من مكانه إلا عندما لم يعد يصله أزيز المحرك الذي عكَّر هدوء الطبيعة.

(١٧)

لم يعد العاتي مباشرة إلى بيته. بعد لحظة من الجمود، تذكَّر الظرف الذي وضعته في جيبه فأخرجه وفتحه، كانت به رزمة من الأوراق النقدية. عدَّها فوجد مائة دينار، إنَّه مبلغ محترم. نزل الربوة متباطئًا حتى وصل الباب الثاني للحديقة، ثم واصل مشيه البطيء حتى شارع محمد الخامس حيث اعترضته جموع من جمهور مباراة كرة القدم بأعلامهم وضجيجهم. وعند نهاية الشارع الجميل ظهرت له بناية وزارة الداخلية محاصرة كالسجن. من هنا أخذوه إلى مكان اعتقاله، ومن هنا سينطلق بحثه عن ذلك المكان، وسيتعرَّف على ذلك الوغد الذي من المؤكد أنه يقيم فيه. سيعثر عليه وسينتقم منه ولو كلَّفه ذلك حياته. انعرج إلى محطة الحافلات، ودخل مطعمًا صغيرًا، وبعد الغداء استقلَّ تاكسي وطلب التوجه إلى زاوية سيِّدي بالحسن، ولكن عند جسر باب عليوة طلب من السائق أن يواصل إلى جهة جبل الجلود.

كان يترصَّد الأصوات القادمة من الطريق، لم تكن دالة على أية معلومة ينطلق منها. ثم فجأة دوت صفارة القطار. لقد سمع نفس الصفارة عندما كان في العربة المظلمة في طريقه إلى المعتقل. وقبل أن تصل سيارة التاكسي إلى محطة البنزين بجبل الجلود أمر السائق أن يواصل به السفر حتى بن عروس. نزل هناك، وألقى نظرة على الشارع الرئيسي، ثم جلس في أحد المقاهي وبقيَ يفكِّر. لم يكن واثقًا من أي شيء. كانت بعض الذكريات عن الرحلة المشئومة ما تزال عالقة بذهنه، لكنه لا يمكنه أن يستحضرها بدقة. سمع عجلات العربة ترتطم بالسكة مرة أو مرَّتين، وتوقفت عدة مرات، وانعرجت على اليمين وعلى اليسار... كل هذه الأحاسيس لا تفيده، ولا تمكِّنه من تحديد الوجهة التي

عليه أن يقصدها للوصول إلى مكان الاعتقال. الشيء الثابت لديه هو أن المكان كان بعيدًا عن ضجيج المدينة وأنوارها. وأنه سمع عويل القطار، وحتى ضجيج ارتطام عجلاته بالسكة، والأكيد أن الرحلة لم تستغرق أكثر من ربع ساعة. كانت تلك كل المعلومات التي في حوزته.

بن عروس ليست بالمدينة ولا حتى بالقرية. عندما كان العاتي جالسًا يبحث عن تحديد الجهات الأصلية للمدينة اكتشف أنها تفتقد إلى مركز. فالجامع لا يحتلُّ وسطها كما هو الشأن في كل المدن العربية. نظر إليه من بعيد، ينتصب في وسط الطريق يسده، وتمر على جانبيه طريقان رئيسييان لا تخلوان من الحركة، وتحيط به أرض صهباء تتكدَّس بها الأتربة. وكانت هندسته دالَّة على انعدام الذوق على عكس المساجد التي بنيت أثناء حقبة الاستعمار؛ حيث كانت هندستها تحديًا لهندسة الكنائس الاستعمارية. واكتشف كذلك أن المدينة عبارة عن تجمعات سكنية منتشرة في السهول ولا تجمع بينها سوى الطريق المؤدية إلى مدينة تونس. أين سيجد ضالته في خضم هذه الفوضى من الأحياء السكنية الزاحفة من كل الجهات على الطبيعة تفتك بها؟. احتار في أمره، ونهض يتمشى دون هدف. شق الطريق الرئيسية من جهة الغرب؛ حيث الروابي التي تؤدي إلى الحقول، وانبرى يتجوَّل بين شوارعها المكدسة بها الأتربة من نفايات الحظائر، حتى وصل قمَّة الربوة، ولم يعد تعترضه الدور القصيرة ذات الطابق الواحد، والتي لم يراع فيها أصحابها أيةَ قاعدة من قواعد البناء الجماعي للمدن. فوضى من الأشكال والألوان لا يجمعها أي قاسم مشترك. عقلية البدوي التي بدأت تزحف على المدينة أمام تقهقر هيمنة الأرستقراطية البلدية، وفقدان المستعمرين الفرنسيين للأصالة الحضارية؛ حيث كانوا خليطًا من الجنسيات الأوروبية المختلفة، لا يجمع بينها سوى الجنسية الفرنسية التي كانت حكرًا على الأوروبيين واليهود.

عندما وقف ينظر إلى الحقول البنية المنتشرة أمامه من جهتي الشمال والغرب ازدادت حيرته، ففي هذه الحقول بنايات فلاحية صغيرة، كل واحدة يمكن أن تكون المعتقل الذي يبحث عنه. ماذا عساه أن يصنع؟. أيزورها واحدة واحدة؟. لكنه سرعان ما تمتم بحنق:

"لست مستعجلاً. سأتجوَّل بين تلك الحقول حتى أعثر على مكان لا يُسمح بزيارته، ويكون ذلك الدليل الساطع على أنه المعتقل". ثم قفل راجعًا إلى الشارع الرئيسي، ومن هناك استقل القطار عائدًا إلى تونس.

بدأت معالم خطته تتضح. لقد حدد المكان ولو بصفة إجمالية. ولا يهمُّه الزمان مهما طال، فالهدف محدد من البداية، ووسائل التنفيذ تأتي عندما تكون كل المعطيات متوفِّرة. شعر بالرضا عن نفسه، إنه في الطريق الصحيح. قرَّر أن يعود إلى بن عروس الأحد القادم، ويقيم هناك يومًا كاملاً يزور خلاله ما استطاع من الحقول البنية والمباني الفلاحية المسقفة بالقرميد الأحمر. وعاد إلى بيته وكلُّه أمل في أن خطته ستنجح وينتقم لكرامته.

عاد إلى سالف عمله. لكنه لم يتوقف عن التفكير في خطة انتقامه، ولا في وردة التي أخذت تشغل حيزًا من اهتماماته. اتصل بإسماعيل أحد المعتقلين الذين عُذِّبوا، وحدَّد معه موعدًا لملاقاة وردة دون أن يحدثه في موضوع اللقاء. واتفق معها بعد أن تعرَّفت على إسماعيل أن تكلِّفه بالاتصال بمعتقل آخر حتى يسلم هو من رقابة البوليس. وعاد إلى الحياة الرتيبة تتكرَّر فتراتُها كحبات المسبحة.

ولما جاء يوم الأحد نهض قبل طلوع الفجر، وترك البيت دون أن يوقظ أمه، وانطلق إلى محطة الأرتال بالعاصمة واستقلَّ القطار إلى بن عروس، ومن هناك صعد الروابي حتى أشرف على نعسان، وأخذ يتجوَّل بين الحقول. لم يعترضه أحد. كانت الحركة منعدمة في هذه الحقول التي كان بعضها على مِلك الدولة، بعد أن انتزعتها من المعمرين الفرنسيين. كان عازمًا على الإقامة يومًا كاملاً بين هذه الحقول؛ فحمل معه ما يسد الرمق وما يطفئ العطش، وانبرى يتنقل من حقل إلى آخر، دون أن يعترضه أي دليل على وجود مكان محروس. لكنه عند المساء، وقد أخذ يدب فيه الملل واليأس، وبينما كان ينظر إلى ربوة على مشارف غابة صغيرة من شجر الصنوبر؛ لمح فجأة خزان الماء يتصدر الربوة تحيط به الخضرة. خفق قلبه بشدَّة؛ لقد لمح ذلك الخزان يوم خروجه من المعتقل..! عاد يتأمل المكان بعينٍ فاحصة ويتثبت كل شبر من الأرض المحيطة به. كانت

السهول من جهة الغرب تنحدر حتى سبخة السيجومي، وتنتشر من جهة الجنوب حتى سلسلة جبال الظهر التونسي، وكانت غابة الصنوبر الصغيرة تحجب المدينة.

صعد إلى الخزّان ودار حوله مكتشفًا الضيعات القريبة منه، لكن الظلام أدركه؛ فلم يتسنَّ له تحديد موقع المعتقل بدقة. وقرّر أن يعود يوم الأحد القادم ليتمم استطلاعه. شعر إنَّه يقترب من الهدف، فعمَّه فرح شديد، وعاد إلى بن عروس وكأنه يحلِّق في السماء. استقل القطار وعاد إلى بيته منشرح الصَّدر متيقنًا أنه على بعض الخُطى من الهدف المنشود.

عاش أسبوعًا آخر من الترقب، منطويًا على نفسه، فحتى عندما ألحَّت عليه وردة في ملاقاته رفض. كان كالجمل يلوك حقده، ويحلم بالانتقام. اشترى منظارًا، وخنجرًا، وحبالاً مختلفة الأحجام، وجرابًا صغيرًا. وكانت طريقة الانتقام من مغتصبه تتبلور في ذهنه، وصورها تتضح، ونتائجها تسليه. وحتى أثناء العمل لم يكن يبادل زملاءه أحاديثهم. انحصرت الدنيا عنده في معركة يكون فيها هو الغالب، ويرى خلالها مغتصبه صريعًا يقاسي ردهات الموت، ويسترجع بعدها مكونات ذاته السليبة.

وفي ليلة الأحد نام باكرًا، ونهض من الغد قبل الفجر، وعاد إلى بن عروس ومنها إلى الربوة وخزان الماء. ألقى نظرة شاملة على المكان مستعينًا بالمنظار، فظهرت عدة جزئيات لا تُرى بالعين المجردة، واكتشف الطريق المؤدية إلى بناية مغمورة بين الأشجار، ولاحظ داخلها شرطيًا يحرسها، تتدلَّى رشاشته على كتفه. كم كانت سعادته كبيرة في تلك اللحظة. خفق قلبه بشدة وقال في نفسه: "لو كنت أملك مدفعًا لمسحت الأرض منه!" وبقيَ مركزًا المنظار على البناية مدَّةً طويلة، يسجل كل ما يحصل من تحرُّكات. كان السُبات مخيمًا، لم يخرج منها أحدٌ، فلولا وجود الشرطي يغدو ويروح أمامها لحسبها مهجورة.

طال انتظاره، و لم يحدث شيء، ولكنه بقي مركزًا المنظار على البناية حتى رجَّت كيانه هيئة الرجل العملاق تتصدر باب المعتقل. لم يقدر أن يكظم غيظه فأطلق عليه وابلاً من السَّب والشتم دون أن تغادر عيناه المنظار الموجه نحو الرجل يتبع كل حركاته. كان يلبس بذلةً أنيقةً، وقميصًا أبيض، وربطة عنقٍ حمراء. لقد وضحت له كل تلك الجزئيات

بفضل المنظار، وهو من مرصده بعيدًا عن المعتقل وظلَّ يثبِّت فيه بصره. لكن؛ عندما ركب الرجل العملاق الدراجة النارية، وشق الطريق المغبرة، ترك المنظار جانبًا، وكاد أن يقفز وراءه ليلحق به. تدارك أمره وبقيَ يتبع الدراجة تنثر من ورائها الغبار حتى توارت. وبعد ساعة من الرَّصد بقيَ خلالها المعتقل في سباته نزل العاتي إلى الطريق التي سلكتها الدراجة وتفحصها جيدًا. كانت تحف بها أشجار الصنوبر العاتية، وكان جزء منها معبدًا، والبقية من الأرض الصلبة الصهباء منتشرة عليها الحصباء والأتربة. وكانت تلك الطريق الضيقة تقف عند سياج المعتقل الذي ينتصب من ورائه الشرطي شاهرًا سلاحَه. راح يتمشى في تلك الطريق حتى ابتعد عن المعتقل، ولم يعد يظهر له السياج. نظر في كل الاتجاهات فلم يلاحظ أية حركة، ولم يستطع من ذلك المكان أن يرى غير الحقول البنية وبعض المباني تظهر بعيدة. كان يقف في منعرج الطريق، وغير بعيد منه تنتصب شجرتا صنوبر عاتيتان.

جلس تحت إحدى الشجرتين، وأخرج من جرابه فطوره، وتناوله وهو يفكر في بقية مراحل الخطة. وبعد تناول الفطور تسلق الشجرة وبقيَ يراقب المكان طويلاً. وقبل غروب الشمس بقليل سمع صدى صوت محرك يقترب منه، فلبد على غصن الشجرة حتى ابتعدت السيارة متجهةً إلى المعتقل. بقيَ يرنو إليها بالمنظار، وشاهد الشرطي الحارس يصعد إليها، ويخلفه زميله الذي أتت به السيارة، ثم غادرت المعتقل مخلفة وراءها غبارًا كثيفًا. بعد فترة من الزمن، وقد أسدل الليل ستاره، غادر مرصده عائدًا إلى بيته، وقد وضحت له كل مراحل الخطة، ولم يبقَ أمامه سوى تنفيذها.

◆◆◆

وترقب يوم الأحد بفارغ الصبر. اشترى ما تبقى له من أدوات لتنفيذ خطته، وكما دأب منذ أسبوعين، نهض قبل الفجر وانطلق إلى بن عروس ومنها إلى المعتقل الذي أصبح لديه موقعه واضحًا جليًا. وبعد فترة من المراقبة فوق الربوة انحدر حتى الطريق، ثم صعد فوق الشجرة العاتية، وانبرى يُعد للعملية بكل دقة وتروٍّ، وكأنه يعالج أحد المحركات التي دأب على إصلاحها في الورشة منذ سنين.

لبس قفازًا حتى لا يترك آثار بصماته في المكان، ثم أحكم شدَّ بكَرَةٍ في أحد أغصان الشجرة المتينة، ومرَّرَ في أخدودها حبلاً غليظًا، وترك أحد طرفيه يتدلّى حتى لامس غبار الطريق، وربط بقية الحبل إلى جذع الشجرة. ثم غرس على امتداد الطريق مسامير حادة لا تظهر من بعيد. وصعد إلى أعلى الشجرة، وبقيَ يراقب عن كثب المعتقل الذي ما زال في سُباته. وجَّه المنظار إلى السياج فرأى الشرطي في حركاته العبثية. نظر إلى ساعته، وقال في نفسه: لم يتبق سوى ساعة. كان عارفًا بأوقات خروج عدوِّه، وإن لم يخرج في ساعته المحدَّدة فسيترقبه، لا بُد له أن يخرج! وإن لم يخرج هذا الأسبوع فسيعود إليه الأسبوع القادم". لن أتركك تعيش ما دمت حيًا!" كان قد وفَّر كل أسباب النجاح لخطته، واحتواها بالسرية التامة، ودقق في كل جزئياتها، ولم يترك للصدفة أن تلعب دورًا.

كانت السماء ملبَّدة بالسحب، ونور النهار باهتًا، لكن العاتي كان يَّتقدُ حماسًا، يترقب عدوَّه بفارغ الصبر. ولم يطُلْ الانتظار. فقد شقَّ السكون المهيمن على المكان فرقعة محرك الدراجة النارية، وتحفزت كل مدارك العاتي، ووجَّه منظاره إلى الرجل العملاق تئنُّ به عجلتا الدراجة، وهي تطوي الطريق. نزل بسرعة كالقط من فوق الشجرة، وظلَّ يلبد عند جذعها يتتبع سير الدراجة وقلبه يخفق بشدة. وما إن انعطفت الدراجة وقربت من الشجرة حتى اصطدمت عجلتاها بالمسامير المغروسة في الطريق، وأضاعت توازنها، وسقط من فوقها الرجل العملاق على حافة الطريق. أسرع إليه العاتي بخفة، وغرس الخنجر في رقبته قائلاً.

- لا تتحرَّك وإلا غرست كامل الخنجر!

أحس الرجل بالدم يسيل منه. كانت المفاجأة كبيرة، فاستسلم للأمر. لثَّمه، ثم ربط عنقه بحبل متين، وأخذ يجر الحبل حتى اختنق. همس العاتي في أذنيه:

- لو تحرَّكت فسأشد العقدة أكثر!

ثم سحب الحبل نحو اليدين؛ فربطها بكل ما أوتي من قوَّة، والرجل في استسلامه غير مصدِّق ما يحصل له، وقد تفاقم اختناقه. أخذ العاتي طرف الحبل المتدلي على الغبار،

وجذبه حتى رجلي الرجل العملاق، وأحكم ربطهما. ووقف أمام مغتصبِه ينظر إليه بتشفٍّ. لقد حصل في الفخ كالفأر. كان الدم يسيل قطرات من رقبة الرجل، وكانت عيناه غائرتين من شدة أثر الحبل، وكان اللثام على فمه يخنق أنفاسه، ولكنه لم يحرِّك ساكنًا، استسلم لقدرِه كالشاة عند ذبحها.

صعد إلى الشجرة، وفك الحبل المربوط إلى جذعها، ونزل به. ثم مسكه بكلتي يديه، وانبرى يجذبه بتأنٍ حتى انطلق من جهتي البكرة. كان أحد الطرفين بين يديه والطرف الآخر يربط رجلي الرجل العملاق. وبدأت عملية شاقة تطلبت من العاتي جهدًا جهيدًا. كان عليه أن يسحب الجسد العظيم الذي يزيد وزنه عن المائة كيلوغرام إلى أعلى الشجرة. واصل مجهوده مستعينًا بجذع الشجرة الذي كان يلوي عليه الحبل، وفي كل جذبة كان الجسد العظيم يتحلحل عن مكانه. وكان العمل شاقًا، وقد بلَّل جسده العرق، وتملكه الإرهاق، ولكنه واصل جهوده حتى ارتفع رأس الرجل العملاق عن الأرض ما يقارب نصف المتر. ربط العاتي الحبل إلى جذع الشجرة بكل قوة، وجلس متكئا على جذع الشجرة يدخن سيجارة، ويستريح بعض الوقت.

وما إن استعاد قواه، حتى نهض وتوجه نحو الجسد المعلَّق إلى الشجرة، وجلس قربه على الأرض المغبرة، ثم عاد يغمد رأس الشفرة في عنق الرجل العملاق الذي احتقن وجهه واحمرَّ. قال له بهدوء:

- لا أظنك تعرفت عليَّ. أنا العاتي. عذبتني عندما كنت معتقلاً، واعتديت عليَّ. سأنتقم منك الآن. لكن إذا ما ساعدتني على معرفة سيدك الذي أمرك بتعذيبي، ربما أصفح عنك. كنت مأمورًا، ولذا لا بُد أن يدفع الثمن من أمرك. أليس كذلك؟.

فكَّ لثامَهُ، ولكنه تمادَى في غرز شفرة الخنجر في عنقه. كاد الرجل يصرخ لكن العاتي أمره بأن لا يفعل. وبعد أن أحسَّ أن العاتي سيتمادى في ذبحه إن لم يعطه ما طلب من معلومات، قال بصوت مرتعش:

- اسم المحقق... فرجاني.

سأله بلطف:

- مقرُّ سكناه؟.

- حي المنار.

دفع الشفرة قليلاً في العنق، فسقط منها بعض قطرات من الدم على الأرض، وعاد يسأل:

- ما اسم الشارع وما رقم البيت؟.

سارع الرجل بالإجابة لأن أوجاع عنقه لم تعد تُطاق:

- المُنَزَّه التاسع ... إقامة البساتين ... عمارة رقم ٤ ... شقة رقم٢ ... الطابق الثالث.

سلَّ العاتي الخنجر، وأعاد لثام الرجل العملاق، ثم وقف يجمع أدواته. وبعد أن اقتلع قفازه، وحزم جرابه ووضعه فوق ظهره، وتفقد رباط الحبل إلى الشجرة ووثاق يدي ورجلي ضحيته، انصرف دون أن يلقي نظرة على الرجل المعلَّق. لقد انتهى أمره، صار في عداد الأموات. إنه متأكد أن أحدًا لن يغادر المعتقل قبل أن تأتي الدورية عند السادسة مساء لتعوِّض الشرطي الحارس.

كان راضيًا على عمله معتزًا بنفسه. لقد انتقم لشرفه وبكل برودة الدم. كانت الساعة تشير إلى التاسعة صباحًا، ما زال عنده الوقت ليتمتع بانتصاره. أحسَّ أن الدنيا تغيرت في عينيه، صارت أجمل، ونفح الهواء أذكى، وألوان الأرض الداكنة مشرقة، والسماء الرمادية نيِّرة، كل شيء جميل ما دامت نفسه راضية. ولم يلتفت ولو مرَّة، كان الجسد المعلَّق، والمعتقل المغمور، والطريق المغبرة، أجزاءً من حياته مُحيت وإلى الأبد. ماضٍ أليم اقتلعه من تاريخ حياته، وعلَّقه لسيارة الشرطة التي ستكتشفه عند المساء وهو جثة هامدة لن تنطق، ولن تكون دالة عليه. وقد احتاط لكل شيء، فلبس "قشَّابية" غطت كل جسده وبدَّلت هيئته. لم يتعرف عليه أحد وهو يتجوَّل بين تلك الحقول البنية. وحالما وصل إلى مكان متروٍ في ركن كانت به فضلات أحرق "القشابية" وما تبقى له من أدوات الجريمة.

كان يمشي مرتفع الهامة، يرنو إلى الأفق ويندفع إلى مستقبل يريد التحكم في أطواره، وقد أصبح ماضيه شبحًا لم يعد يخيفه وينغِّص حياته. عندما وصل إلى خزان الماء وجد حنفية؛ فغسل يديه ووجهه، ونزل إلى المدينة وأحس بالتحول في شخصيته. شعر أنه استعاد رجولته وأن رجلاً آخر ينبثق منه وقد انسلخ منه ذلك الرجل التائه، الهائم في الشوارع لا يحس بالوجود متقوقعًا على نفسه.

أصبح الآن الرجل الإنسان بعد أن محا من الوجود الرجل العملاق الذي كان يسميه الرجل الغوريلا. شعر بإنسانيته تخفق في قلبه كالدم الساخن متحرِّكا ومغذيًا. وأحسَّ بالقوة في عضلاته وفي اندفاعه. فأخذ يتمتم: "أنا الآن حرٌّ من قيود الماضي، انتهى العاتي المغتصب!"

(١٨)

بعد أن تجوَّل في شوارع المدينة معتزًا بنفسه، عاد إلى بيته مستقلاً تاكسي. أمام مدخل الحي توقف عند دكان البقال. كانت الغلال والفواكه معروضة في نظام مُحكم وجميل تجلب الناظر وتستميله. أنواع من البرتقال المختلفة الأحجام متراصة على شكل هرمي، تتخللها صفوف من التفاح جميلة الألوان، عظيمة الأحجام، مستوردة من أصقاع بعيدة، تستهوي الحريف؛ ولكنها تفزعه لأسعارها المرتفعة. وفوق كل تلك الغلال تتأرجح معلقة، عراجين التمر الملفوفة في السلوفان، تتلألأ تحت نور النهار. لم يكن العاتي مهتمًا بالغلال، ولم يتوقف يومًا أمام البقال الذي في الحقيقة كان يعرض سلعته لأصحاب السيارات المارَّة من هنا، ولا لسكان الحيِّ الذين لا يقدرون على اقتناء مثل تلك الغلال والفواكه. كانت أمّه قائمة بشؤون البيت والمصاريف. ولكنه اليوم تفطن إلى العناية التي كان البقال يخصها ببضاعته، واسترعى انتباهه تناسق الألوان والأشكال، وفاحت في أنفه روائح التفاح والإجاص المنعشة، فبقيَ ينظر إليها بإعجاب، ثم طلب رطلين من البرتقال، وآخرين من التفاح والأجاص، وعاد إلى بيته محمَّل اليدين. طرق الباب ولما فتحته أمه؛ وضع بين يديها الفواكه واحتضنها، وضمَّها إليه، وكأنه عائد من سفرة طويلة، وتقدم بها إلى غرفته وهو يضمها إليه منحنيًا عليها يقبِّل خدَّها.

لم تفهم سبب كلِّ هذه الحفاوة، وكل تلك السعادة البادية على وجهه. كان حزينًا طيلة هذه الأيام، فما باله تغيَّر فجأة؟. ظلَّت تنظر إليه تستقرئ ما يدور بخلده. كان انشراحه يضفي على وجهه مسحة من السعادة. وجدته أجمل؛ ولو أنه هزل وبانت عليه علامات الإرهاق. إنه ابنها في ريعان شبابه، هنيئًا للعروس التي ستحتضنه! اقتربت منه أكثر

وكأنها خائفة أن يفتكوه منها. كانت تريد أن تسأله عن سبب انشراحه المفاجئ، لكنها تساءلت: " ألا يكون عاشقًا؟." لا بُد أنه تعرَّف على فتاة أحبها، إن للحب سحرًا لا يقاوَم، وهو الوحيد الذي يغيِّر النفوس فجأة. وراح خيالها يسبح في أجواء الزواج، وترى العروس في حلَّتها، ستكون بنتًا جميلة عاقلة، أو لعلَّها تكون شريرة تستحوذ على ابنها فتنتزعه منها. لا بُد له أن يتزوج، ولا بُد أن يشاطرها في حبها له امرأة.

قبَّلها قُبلة رنانة معلنًا كعادته:

- ما أعذبك من أم!

خرجت تحضِّر له الطعام. ارتمى على الكنبة وبقيَ ممدّدا ينظر إلى السقف فترةً من الزمن؛ حتى صبت عليه صور أحداث صباح هذا اليوم: الرجل المعلق في شجرة الصنوبر العاتية، مراحل الكمين الذي نصبه له، قطار بن عروس الذي لم يغادر المحطة في توقيته المعتاد، بقي رابضًا ربع ساعة بعد وقت رحيله، أصابه الوهن. وعندما تحرَّك هبَّت عليه العاصفة فجأة؛ وهو يتزلق بين سباخ مقرين المتعفنة، وغسلت شبابيكه القذرة. لكنه سرعان ما تحول بخياله من الماضي إلى المستقبل. فاستحضر صورة وردة، وقال في نفسه لو أطلبها في الهاتف ونلتقي؟. وأخذت الفكرة تختمر في ذهنه، واندفع يتصور المكان الذي يمكنه أن يلقاها فيه. لقد تغيَّر الطقس وهطلت الأمطار، فلم يعد بإمكانهما اللقاء بحديقة البلفدير. سيستدعيها للعشاء في أحد مطاعم العاصمة، وسيتحدث إليها بأكثر جرأة، وسينظر في عينيها، وربما يغازلها...

دخلت أمه وقطعت عليه أحلامه. وضعت المائدة وعليها الطعام، فنزل وجلس متربعًا، ولم يأكل اللقمة الأولى إلا عندما بدأت أمه تأكل. أرغمها على ذلك. أكل بشهية ونهم، ثم أخذ برتقالة وقبل أن ينزع القشرة ويشطرها بقي ينظر إليها باهتمام. راعه شكلها، كانت مستديرة الشكل وألوانها منعشة تظهر على شكل وجنتين حمراوين، واصفرار مختلف الدرجات يكسو جسمها، وكان نصفها السفلي مدوَّرًا والعلوي مسنَّنًا. مسح عليها وكأنه يلاطفها. كانت ملساء رطبة تتخلل قشرتها حبات رقيقة مرصعة. رمى بها في الفضاء ثم تلقفها. لقد أحس أن لتلك البرتقالة وجودًا، فقشَّرها وهو يدقق في شكلها

الداخلي، وظهرت الأبراج في تناسق تربط بينها قشرة رقيقة ناصعة البياض. وعندما قضم أول بُرج وامتص عصيره شعر بنكهته المنعشة.

♦♦♦

بعد الغداء عاد يتمدَّد على الكنبة سعيدًا بالحياة، يلتهمها بوعي كما كان يفعل مع البرتقالة. الحياة برتقالة جميلة علينا أن نعي كل ما تقدمه لنا من أشكال وألوان ونكهة، وأن ننتفع بها بتأنٍ، برجًا برجا كالبرتقالة اللذيذة. وعندما أحضرت أمه أواني الشاي وامتلأت الغرفة بحرارة الكانون وعبق الشاي، عاد ينظر إلى السقف وعادت مخيلته تستحضر صورة وردة، ووجهها الصغير المورَّد. قال في نفسه: "لا بُد أن لها نكهة وعذوبة تضفي على الحياة السعادة". لم يقع العاتي بعد في حب فتاة. مغامرات طائشة فوق السطوح في ليالي رمضانية صيفية، لم تتبلور إلى الحب الحقيقي. والحب والنكاح شيئان مختلفان عند العاتي. فهو يرى الحب سموًا بالرُّوح قبل كل شيء.

عندما مدَّت له أمه كأس الشاي العطر يتصاعد منه بخار رقيق، سألها:

- ألم تقولي أنك ورثت عن جدِّك بندقية كان قد استعملها لصدِّ المستعمر الفرنسي؟.

التفتت إليه وظلَّت تُحدِّجه بعينيها، فعاد يسأل:

- أين تلك البندقية؟.

ضحكت باستهزاء، وقالت وقد عادت للكانون تؤجِّج ناره:

- رحم الله أجدادنا، ذهبوا وذهبت معهم خيراتهم، وورثنا نحن محن الزمان.

لم يكن في صوتها أي تعبير. فالتاريخ عندها شيء جامد فقد الحياة، مثل الصورة الفوتوغرافية تنظر إليها من حين لآخر لتتسلى بها. ولكن العاتي أصرَّ على معرفة ذلك التاريخ فألح سائلاً:

- وكيف ضاعت تلك البندقية؟. إنها رمز كان عليكم المحافظة عليه.

قالت له دون أن تلتفت:

- اسمع يا بني، ذلك زمان غابر، وأولئك رجال غمرهم زمانهم.

ثم سكبت الشاي أحمر قانيًا، ومدَّت له بكأس وبقيَت ترتشف. لكن العاتي أصرَّ من جديد:

- لم تقولي لي كيف نجا جدُّك من بطش المستعمر بعد معركة قرنبالية.

- قلته لك عدَّة مرات، ولكنك ككل شباب جيلك سهل النسيان. لقد هاجر جدي بعد الهجمة الاستعمارية إلى طرابلس، وعندما عاد بعد عدَّة سنوات، عندما داهم المحتل الإيطالي طرابلس، وجد القبيلة مشردة في كل مكان. لقد انتقم منها المستعمر الفرنسي وافتكَّ منها أراضيها، ووزعها على الأوروبيين الذين نزحوا من كرسيكا وصقلية ومالطا.

وضع رأسه على ركبتها، وتمدَّد قربها على جلد الخروف، وقال لها:

- أريد اليوم أن أعرف عن جدنا كل شيء. أعدك أني لن أنساه أبدًا، وسأرويه لأطفالي عندما أتزوج.

مسحت على خده ونظرت في عينيه، ثم سألت بلهفة:

- أحقًا ستتزوج؟.

- لم أقل أني سأتزوج اليوم! عندما أتزوج ويصبح لي أطفال، سأروي لهم تاريخ جدهم. هيا قُصِّي عليَّ!

عادت تملأ الإبريق بالماء والسكَّر، ووضعته على الكانون، ثم نظرت إلى ابنها، وانبرت تروي تاريخًا تعلَّمته من قريباتها:

"كان الرجال رجالاً، وكان الزمان زمانًا، وكانت قبيلتنا لا ترضى بالهزيمة أبدًا . جابهت جيوش الباي، و لم تقبل بدفع الضرائب المجحفة، وصدَّت هجمات القبائل الأخرى. ولما هجم المستعمر الفرنسي وفتح له الباي القواد أبواب البلاد على مصراعيها، قامت قبيلتنا، وكلَّ القبائل المؤمنة بقداسة أرض الإسلام، ووقفت في وجه المستعمر. تجمَّع كل رجال القبيلة تحت لواء واحد، وانضمت إلى فرسان القبائل الأخرى، وتصدوا لجيوش المستعمر

المدججة بالسلاح، والمتفوقة عدة وعتادًا، يعينها بتواطئهم إدارة الباي وعساكره ومرشدوه. لكن قوَّة الرجال الصناديد وإيمانهم، واعتزازهم بكرامتهم، وبتعاليم دينهم جعلتهم يندفعون وراء الجيوش الفرنسية يناوشونها أحيانًا، ويخترقونها مرات، ويلتحمون معها في معارك ضارية في بعض الأحيان".

صمتت لتصب الشاي في الكأسين، ثم عادت إلى الحديث بصوت هادئ:

"فكانت معارك في الشمال ومعارك في الجنوب ومعارك حول العاصمة. وقد روَى لي جدِّي عندما عاد من ليبيا أن المعركة الأخيرة كادت تكون حاسمة لولا تهديد المستعمر بهدم مدينة القيروان التي طوَّقها فرسان القبائل من كل الجهات، ومنعوا المستعمر من دخولها. لقد صوَّب مدافعه إلى مدينة عقبة ابن نافع، وكاد أن يمحقها لولا تعقُّل رؤساء القبائل، وأمروا بإخلائها حتى يدخلها المستعمر دون قتال بعد أن وعد أن جيوشه لن تطأ الأماكن المقدسة في المدينة".

كانت تحكي التاريخ وكأنها تقصُّ أساطير الأولين. وكانت تعتبر جدّها عظيمًا من عظماء ذلك التاريخ. لكن عندما عاد العاتي يسأل:

- أين البندقية إذن؟.

ثارت ثائرتها ونهرته قائلة:

- أو تعتقد أن المستعمر ترك لنا سلاحًا؟. لقد شردنا، ونفى رجالنا في أقاصي الدنيا، وحكم علينا بالعيش على هامش المدينة وهامش التاريخ! ما لك لا تفهم هذه الأمور وأنت المتعلِّم في مدارس الدولة؟.

عاد العاتي يحقق معها متناسيًا ثورتها:

- ما اسم جدِّك؟.

- لقد نسيت حتى اسمه يا العاتي! قلت لك إنه العاتي بن نصر البادي. فآل البادي صناديد يا العاتي لكن الزمان خذلهم.

احتضن أمه وقبَّلها، ثم قال:

- إني معتز بجدك وبقبيلتنا وبك، لكن قولي لي أين البندقية؟.

ابتسمت له وقبّلته، ثم ودون أن تنظر إليه قالت:

- لقد دفنتها يا العاتي إثر قيام الثورة المسلحة قبل أعوام من الاستقلال. جاء في أحد الأيام إلى حيِّنا قائد من قواد الثورة المسلحة في الجنوب يُدعى الساسي لسود، وقد وشى به الوشاة، فطوَّق جيش المستعمر الحيَّ طيلة يومين كاملين باحثًا عن الرجل، ومفتشًا عن الأسلحة. خفت أن يضبطوا البندقية معي فيودعوني السجن وأتركك وأخواتك للذئاب، فدفنت البندقية في قاع بئر ونسيتها كما نسيت أنت جدِّي.

لاذا بالصَّمت. ولكنها بعد فترة سألته:

- لماذا تذكرت البندقية في هذا اليوم بالذات؟.

لم يُجبها، ظلَّ يحتضنها في صمتٍ حتى كاد يأخذه النعاس. لقد ارتاحت نفسه وهدأت، ووجد في جسد أمه النحيف الهرم الحرارة والسلام. نهض متثاقلاً متثائبًا، وارتمى على السرير ليستريح قليلاً من عناءِ يومٍ مُضنٍ، ولكنه لن يُمحى من حياته.

(١٩)

عندما نهض العاتي من غفوته وجد أمه قد أظلمت الغرفة، وأوصدت الباب، وتركته يستريح. وأول صورة استحضرها خياله عندما أشعل الفانوس الكهربائي، كانت صورة وردة بابتسامتها العذبة. خفق قلبه وبقيَ يستعرض صورتها في خياله، ثم قال في نفسه: "لو أجرِّب وأطلبها بالهاتف؟. فإذا ما رغبت في مقابلتي هذا اليوم أكون سعيدًا، وإذا ما مانعت فسألح عليها ونلتقي في يوم آخر". وفي الحين خرج إلى بهو الدار وملأ طاسًا بالماء واستحضر أدوات الحلاقة، وبعد أن حلق ذقنه وتعطَّر، لبس أنظف ما يمتلك من ملابس، ولمَّع حذاءه، وخرج إلى المدينة ليخاطب وردة.

اتفقا على أن يلتقيا أمام مبنى الكوليزي بالعاصمة، وبعد نصف ساعة من الترقُّب وصلتْ، وسلَّمت عليه بقبلتين على الخدين أنعشاه. تأبطت ذراعه وهمست له:

- لا يجوز أن يرانا البوليس السياسي معًا، فهذه الأماكن ملغَّمة بهم، فلنذهب إلى مكانٍ ناءٍ.

جرَّته معها حتى سيارتها، فصعدا، وانطلقت بهما السيارة إلى خارج المدينة. وما إن أخذت الطريق السريعة حتى سألها:

- إلى أين نذهب؟.

قالت له دون أن تنظر إليه:

- إلى أحد النُّزُل في برج السِّدرية، يمكننا أن نتحدث دون رقيب.

لم يكن مقعد السيارة مريحًا، أحسَّ وكأنه يغطس في لُجة، فركَّز ظهره على الباب، وبقيَ ينظر إليها وهي تتأبط المقود العريض، ومحرِّك السيارة يخرُّ، يعطي أقصى ما عنده من قوَّة،

لكنه لم يفلح في دفع السيارة بسرعة كبيرة، فقد تخطتها كل السيارات وراءها. التفتت إليه مبتسمة، ثم سألت:

- ما لك تنظر إليَّ بإمعان؟.

وبعد أن عادت تنظر إلى الطريق أجاب:

- لأملأ عينيَّ بوجهك الجميل.

عادت تلتفت إليه وقد تورَّد وجهها ثم سألته بالفرنسية:

- أوَ تتغزَّل بي؟.

ثم عادت تتثبت في الطريق. أجابها بتلقائية:

- و لم لا؟. أليس من حقي أن أتغزل برفيقتي التي فتنني جمالها؟.

أجابت دون أن تنظر إليه:

- الغزل طريقة برجوازية تكرِّس التضليل والمنفعة، عادة ما يستعملها أصحابها لنصب الشِّراك للفتيات السَّاذجات.

أجابها بحدَّةٍ:

- لا أبحث عن المنفعة، ولن أطلب منك شيئًا. كل ما في الأمر أني اكتشفت اليوم أن الدنيا جميلة وجمالها في مخلوقاتها. شدَّني وجهك المتورِّد، وعيناك مثبَّتتان في الطريق فراقني المشهد الجميل...

قاطعته قائلة:

- لم أكن أتصوَّرك بهذه الرومنطيقية!

- كنت تتصورينني عاملاً بسيطًا لا يفقه في الحياة سوى العمل والنضال من أجل تحسين ظروف العيش!

أوقفت السيارة على حافة الطريق، ونظرت إليه بإمعان. كان جبل بوقرنين بشموخه وروعته يشرف عليهما من بعيد، وكانت سهول مرناق بتربتها البُنية تطل عليهما من نافذة السيارة، وكان زفيف السيارات المسرعة إلى أعماق البلاد يعكرُّ الصَّمت الذي

اكتنفهما وهما ينظران إلى بعضهما، وكانت السماء الرصاصية تلفُّ حبهما الناشئ.
قالت له بعد صمتٍ طويلٍ:
- لقد اكتشفتُك من النظرة الأولى. عرفت أنك رقيق وشجاع وصريح. لكني خفت أن تمر علاقتنا بطرق عبَّدها المجتمع الاستهلاكي الذي يرى في المرأة بضاعة على الرجل أن يسعى لاقتنائها.

♦♦♦

وبكل تلقائيةٍ مدَّت يديها إلى وجهه تلفه، ثم اقتربت منه ولثمت شفتيه. كانت قُبلة خفيفة، لكنها معبِّرة عمَّا يختلج داخلها من مودَّة وشوق لرجل لا تعرفه جيدًا، لكنها تشعر نحوه بحبٍ لم ترغب في كبته. وبحركات سريعة مرتبكة ضغطت على المدوس، وعادت تتأبط المقود العريض، وخرجت السيارة إلى الطريق السريعة، ثم انعرجت في اتجاه حمام الأنف، ومنها إلى برج السدرية، وقد خيَّم صمتٌ عميقٌ، وبقيَ كل منهما يلوك أحاسيسه. كانت المفاجأة كبيرة بالنسبة إلى العاتي. لم يتصوَّر أنها كانت تحبه. ولم يخطر على باله أن تقبِّله فتاةٌ بكل تلك التلقائية، وتقول له ذلك الكلام. وكانت هي مضطربة، لم تكن مرتاحة لتصرفها التلقائي. كانت ترغب من اللحظة الأولى التي نظرت في عينيه أن تقبِّل شفتيه، لكن ليس كل رغباتنا تعبِّر فعلاً عن واقعنا. هناك رغبات واعية، وأخرى غير واعية علينا أن نكبتها، وإلا لاعتبرنا المجتمع مجانين. أليس تصرفها التلقائي هذا نوعًا من الجنون؟. ولكنها استخلصت في نفسها: "وليكن الجنون! إني أحب هذا الرجل، ولن أترقب حتى يغريني بكلام معسول لأستسلم إليه".

عندما وصلا إلى نُزُل سلوى، ونزلا من السيارة، لفحت وجهيهما ريحٌ باردةٌ قادمةٌ من البحر. أسرعا الخُطى حتى دخلا بهو النُزُل، وتوجها إلى ركنٍ خالٍ، وجلسا جنبًا إلى جنب على أريكة وثيرةٍ، وعادا ينظران إلى بعضهما البعض. مسكت يده بين يديها وسألته:

- ما الذي غيَّرك اليوم؟. كنت خجولاً عندما خرجنا إلى حديقة البيفدير، و لم تعبِّر وقتها عن عواطفك. ماذا جدَّ في حياتك؟.

بقيَ ينظر إليها دون أن يجيب، حتى قدم النادل، فالتفتت إليه قائلة بالفرنسية:

- ككتالين.

ثم التفتت إلى العاتي متداركة:

- لعلَّك تريد شيئًا آخر؟.

أكَّد للنادل:

- ككتالين.

وحالما انصرف النادل سألها:

- هل أعلمتِ والديك بأنك ستعودين متأخرة؟.

أجابت مبتسمة:

- لي من العمر اثنتان وعشرون سنة. إني راشدة ومسؤولة عن تصرفاتي. ثم إن أبي قليلاً ما يكون بالبيت، وأمي أعلمتها أني سأخرج مع صديق.

سأل مستغربًا:

- و لم ترغب في معرفة العلاقة بينك وبينه؟.

- حتى وإن رغبت؛ فلن أتركها تتصرف في حياتي. إني حرَّة وأريد ممارسة حريتي.

وبعد صمتٍ أضافت:

- لا أظنك تمانع في حرية المرأة؟.

- لا، أبدًا ...

وصمت. كان يريد أن يقول أشياءً أخرى؛ لكنه سرعان ما اكتشف أن تلك الأشياء ربما تورطه أمام هذه الفتاة المتحررة، والتي تنادي بحرية المرأة، حرية كاملة بلا قيد ولا شرط. بقي يلوك كلامه ويقول في نفسه: "هذه الفتاة غريبة الأطوار، ولكنني أحبها رغم ما بيننا من التناقضات". عاد النادل يحمل طبقًا، ووضع أمامهما كوبين يطفح بهما سائل مختلف

الألوان. أحمر وأصفر وبرتقالي، وعلى حافة كل كوب قطعة ليمون، ثم انحنى أمامهما وانصرف. اقتربت منه أكثر وعادت تقول له برقّة:

- لم تُجبني عن سؤالي.

سألها مبتسمًا:

- ألا يرضيك أن أكون مسرورًا بوجودي قربك؟.

- بالطبع. لكني أشعر أنك تخبئ عني أشياءً.

قال لها بصوتٍ خافتٍ:

- ماذا فعلت مع معتقلي حيِّ البُرج؟.

فهمت أنه لا يريد الجواب على سؤالها فقالت بفتور:

- كانت لقاءاتنا صعبة. كنت محتاطة من البوليس، ففي كل لقاء أغير المكان. كان أوَّل من اتصل بي رجلٌ قصيرُ القامة عصبيٌّ المزاج أظن أنه يُدعى إسماعيل، وبعد أن انتهيت من تسجيل أقواله، طلبت منه أن يتصل بمعتقلٍ ثانٍ ويحدِّد لي موعدًا معه. وكنت في كل مرة أغير لباسي وحتى ملامحي. وفي غضون أسبوع سجلت كل أقوالهم، ونقلتها إلى العربية الفصحى وكذلك إلى الفرنسية، وأسمعتها لأمي التي لم تصدِّق أن قريبها وزير الداخلية أمر بتعذيب المعتقلين إلا عندما أطلعتها على تلك الشهادات المخجلة.

نظرت في عينيه وسألت بصوتٍ مرتعشٍ:

- أعذبوك مثلهم؟.

- وأكثر لأني رفضت التعامل معهم.

- وتحمَّلت العذاب؟.

- كنت أُفضِّل الموت على الاستسلام.

التفتت إلى القاعة الفسيحة، وتأكدت أنهما في عزلة تامة، وعادت تقترب منه وقبَّلته قُبلة طويلة، ثم قالت:

- لا بُد أنك الآن شُفيت من آثار التعذيب؟.

قال لها بصوت متهدِّج:

- تمامًا. ولعلَّ وجودك في حياتي سينعشها.

ثم عادا إلى العناق. كان جوُّ القاعة حارًّا فخلعت معطفها، وظهر من خلال صدارتها نهدان بارزان. تمنى العاتي أن تلبس عوض سروال الدجين الخشن تنورة قصيرة. وتمنى أشياءً أخرى عندما ثبَّت بصره على جسدها الظريف. لكنها أخرجته من أحلامه عندما سألته:

- ما رأيك في النقاشات الدائرة الآن بين مناضلي التنظيم؟.

أجاب مستغربًا:

- لستُ على علم بها! وما هو موضوعها؟.

- تكوين حزب عمَّالي، والخروج من السرية إلى العمل السياسي العلني، والمشاركة في الانتخابات المتعددة التي تنوي تنظيمها السلطة.

لم يكن العاتي يرغب في الحديث في السياسة. كان يريد احتواء ذلك الجسد الرقيق، ولثم ذلك الوجه المورَّد. رغب أن يحملها بين يديه، ويطير بها إلى أي مكان لا تكون فيه السياسة، وقيود المجتمع، ومستلزمات الحياة حاضرة. نظرت إليه تترقب جوابه، ومن خلال نظراته الفاحصة لجسدها أدركت ما كان يدور بخلده. عادت تقترب منه حتى غمرها جسده وأحسَّت بخفقان قلبه، ثم اشرأبت إليه مبتسمة فانحنى عليها يقبِّل ثغرها بنهم. ثم همس قائلاً:

- ألا يمكننا أن نعيش دون سياسة؟.

أجابته وهي تطوِّق جسده:

- السياسة في المجتمعات البشرية كالماء والهواء من ضرورات الحياة.

عادَ يهمس:

- أحِبُّوا ولا تتسيَّسوا!

أجابت غامدة رأسها في صدره:

- يكون ذلك في الجنة إذا ما وجدت.

بقي يمسح على شعرها القصير، حتى سمعها تقول:

- لست على يقين من أن العمَّال يربحون من النظام الديمقراطي البرجوازي. سيضحكون عليهم كما ضحكوا على رفاقهم في دول أوروبا الغربية. همَّشوا قضيتهم، وبهروهم بالاستهلاك. فكرة الديمقراطية البرجوازية في بلاد العالم الثالث هي نوع من الاستعمار الجديد. فالاشتراكية تمكِّن البلاد من تنمية شاملة لخيراتها، وتغرس الوعي في نفوس الطبقات المسحوقة، فتتصدَّى للنهب، وبالتالي لكل أشكال الاستعمار.

كان يُصغي إليها وهي تتحدث بصوتٍ خافتٍ وكأنها تناجي نفسها. لم تكن عنده فكرة واضحة حول الموضوع. كان يريد ثورةً شاملةً على كل الأوضاع حتى تتمكن الطبقات المسحوقة من الحياة. وكان يبحث من خلال انتمائه إلى التنظيم تلبية تلك الرغبة. فهمس لها:

- الثورة لا تتأتى عن طريق البرلمان.

رفعت بصرها نحوه وقالت:

- للثورة رجال وظروف موضوعية وعتاد. لا نملك من كل هذه العوامل سوى الأحلام.

كان إيمانه في قدرة التنظيم كبيرة. نظر إليها مليًّا ثم قال:

- الرجال مستعدون للمعركة، والظروف الموضوعية متوفِّرة، فالشعب ملَّ عبث الساسة، والنظام هرم، والحزب الحاكم لم يعد يسيطر على الجماهير. أما العدة والعتاد فتوفيرهما مرتبط بالقرار السياسي لقيادة التنظيم...

قاطعته قائلة:

- لا تحلم يا العاتي! فقد سُحب من تحت أقدامنا البساط. لم يعد بإمكاننا تحريك الجماهير؛ لأننا لم نوفِّر لها شيئًا سوى الكلام، وبعض المناشير. لم نخض أية معركة حقيقية، ولم نتزل إلى الشارع، ولم نصارع رموز النظام. اعتقدنا أن معركتنا مع النظام هي معركة عقائدية، ثقافية، اجتماعية، ونسينا أنها سياسية بالدرجة الأولى. كنا نحشد قوانا لدى شرائح هامشية: طلبة ومثقفين وبعض العمال النيرين الذين يمكنهم فهم خطابنا

النخبوي، وتجاهلنا القوى الحقيقية التي بمقدورها إشعال الثورة. العمَّال والمزارعون والشباب العاطل عن العمل...

قاطعها من جديد:

- لماذا هذه النظرة التشاؤمية؟.

- إنه الواقع. والأدهى من كل ذلك أن قوَّةً ظلامية هائلة بدأت تزحف على البلاد والعباد. وخطابها ولو أنه غوغائي، فهو بسيط يفهمه غالبية الشعب، ينحصر في شعار واحد: حكم الله. جرِّب يا العاتي وخُض معركةً من أجل كسب شعب جاهل لا يفكر بعقله، مع عدو ينادي بحكم الله!

أجابها منفعلاً:

- لكننا نحن نخوض معركة من أجل العيش الكريم للجميع، من أجل المساواة، من أجل التحرُّر، من أجل العلم والتقدم. لا أظن أن الشعب لا يفهم أهدافنا.

- الشعب الذي يؤمن بالأولياء ويقدسهم، وبالشعوذة ويمجدها، والذي لا يهتم بالكتاب ويحتقر المعلم، ويعود أبناؤه إلى الأمية حالما يغادرون المدرسة، والذي جرَّب حكام يدعون إلى الحداثة ولم يحققوا منها الكثير، تستهويه أكثر شعارات الظلاميين الذين يعدونه بالجنة وبحكم الله.

لم تكن الصورة التي كانت تريد أن تعطيها عن الواقع السياسي في البلاد واضحة للعاتي. كان فكرُه مشوشًا، فقد نسي السياسة والسياسيين عندما تفرَّغ لما كان يسميه معركة الكرامة. واليوم في نشوة الانتصار، وهو يكتشف أنه يمكنه أن يحب، وينعم بقرب هذه الفتاة العذبة، ها هي تعكِّر عليه نعمته، وتدفع به إلى متاهات السياسة والأيديولوجيات. جذبها إليه بقوة وقال لها هامسًا:

- تبًا للسياسة والسياسيين. اكتشفت الحب معك، فلنحب دون حديث في السياسة!

وانحنى عليها يقبِّلها بلهفة. كانت شفتاها ألذَّ ما قبَّل في حياته، أنعشته القُبلة، فراح يضمها إليه يريدها أن تسكن جنان قلبه. أحسَّ بكل جسده ينتعش، وثارت فيه شهوة

عارمة، ولكنه تفطن أنهما في محلٍ عمومي لا يمكنهما أن يواصلا عناقهما دون أن يجلبا الأنظار إليهما. همس لها:

- بأدعوك للعشاء.

نظرت إليه وعلى محياها بهجة زادت في هيجان عواطفه. كانت شفتاها متورمتان، ينساب من عينيها بريق خلاب، وعلى خديها حمرة وردية تنعشهما. قالت بصوتٍ خافت:

- العشاء هنا غالٍ، ولكني أعرف مطعمًا جميلاً ورومنطيقيا على طريق قبرص، هيا نذهب إليه. اليوم عشق وغدًا سياسة!

نادى على النادل وأنقده ما استهلكاه، ثم خرجا وهو يضمها إليه. توجَّها إلى السيارة ولحا البحر يُزمجر، فانحنى عليها يطلب منها إذا ما كانت تريد مثله مناجاة البحر، قبَّلته ثم همست:

- إنك حقًا رومنطيقي!

وجرَّها معه إلى البحر. صعدا كثبانًا من الرمل وظهرت لهما شماسي القش المنتشرة على الشاطئ. كانت الريح الباردة تعصف فاحتمت به، وطوَّقها بذراعيه، وأحسَّ بجسدها يرتجف. احتضنها بين يديه، وأخذ شفتاها بين شفتيه فأحسَّ بأسنانها تصطك من البرد، فحملها بين ذراعيه وعاد بها إلى السيارة. وقبل أن يضعها على الأرض عاد يقبِّلها بلهفة. امتطيا السيارة واندفعا خارج النُزُل وقد عمَّت الأرجاء ظلمةُ الليل. كان جبل بورقرنين يظهر لهما كالشبح الأسود، ولكنه سرعان ما اختفى عندما دارت السيارة في اتجاه سليمان. قالت له بصوت مرتجف:

- ما زلت أرتجف من البرد.

أجابها:

- وأنا ألتهب من الحب.

التفتت إليه وقالت:

- لا يمكنني التوقف في هذه البراري الخالية. سيعترضنا السكارَى والمنحرفون. أنا كذلك أريدك!

وضغطت على المدوس بأقصى ما استطاعت، وانطلقت السيارة في الطريق السياحية الضيقة حتى لاحت أنوار مدينة سليمان، ولكنهما لم يتوقفا إلا عندما وصلا إلى المطعم. وأثناء العشاء طلبت من العاتي أن يسقيها خمرًا، أدخل عليها النشوة، وأنساها هموم السياسة وتحاليلها الأيديولوجية. وتحدثا في الحب مكتفيَيْن بلمسات رقيقة ونظرات معبرة. ثم عادا إلى العاصمة منشرحين، فرحَيْن بحبِّهما الناشئ، وتواعدا على اللقاء حين تُتاح الفرصة.

(٢٠)

بقيَ العاتي أسبوعًا يحلم بالسويعات القليلة التي لقي خلالها وردة. كانت لحظة من حياته خارج الزمن، شعر خلالها ولأول مرة أن الحب أرقى ما في الوجود. لم يُحب من قبل، فبعض المغامرات التي تعرَّف خلالها على فتيات وبادلهن القُبل واللمسات لم تكن حبًا حقيقيًا، لم يعرف معهن الوصال والتواصل من خلال النظرات المعبِّرة، والكلمات التلقائية التي ترتقي إلى التلاقي العقلي. اكتشف عالمًا جديدًا مُمتعًا، فاندفع خياله يستحضر له تلك اللحظات الجميلة التي قضاها مع وردة وكأنها زمن خرافي لا علاقة له بواقعه الرديء الذي شعر أنه يحاصره، ويخنق أنفاسه. ظلَّ يستحضر كلماتها، وحركاتها، وانفعالاتها. ويشعر بها وكأنها معه ما زالت تشاطره حياته. وفي تلك اللحظات التي يهرب فيها من واقعه. كان طيفها يغمر كل كيانه، ويجلو عنه اضطرابات نفسه التي ما زالت تعاني رجة اغتصابه، وعنف الثأر الذي مارسه على عدوِّه. لم يكن سهلاً عليه أن ينسى الرجل الذي تركه مصلوبًا يعاني ويلات الموت البطيء. كان جحيم الماضي ما يزال يلتهب وراءه، وكان حلم الحاضر لطيفًا منعشًا، فكان يمنِّي النفس أنه سيلقاها يوم الأحد كما وعدته. وكان يعدُّ أيام الأسبوع يتعطش إلى يوم الأحد بفارغ الصبر.

وتعاقبت الأيام بسرعة، وجاء يوم الأحد، فنهض باكرًا، وتوجَّه إلى حمام باب الأقواس كما اعتاد قبل أن يُعتقل، ودخل مع جمع المستحمين ملتحفًا بفوطة، وبينما هو في الغرفة الحارة يتصبَّب عرقًا، ورجلاه في حوض الماء الحارِّ الذي يصعب أن يتحمله المستحم من الوهلة الأولى، إذ بيد توضع على كتفه. التفت، وإذا به عمران يطلب منه أن يترك له مكانًا بقربه. ورغم الضباب الكثيف الذي يسبح في الغرفة الرطبة ذات الحرارة الخانقة،

فقد تعرَّف على صديقه، فصافحه بحرارة دون كلام. ظلاّ جنبًا إلى جنب ورجلاهما في الماء الحار حتى همس له عمران أن يلقاه بعد قليل في ركن من أركان القاعة الكبيرة؛ حيث يسلِّم المستحمون أجسادهم إلى "الطيَّاب" يدلكها. وبعد لحظة عادا يلتقيان في الركن، وعاد عمران يهمس لصديقه:

- عليك أن تحتاط لكل الطوارئ، ستقوم السلطة بحملة اعتقالات في صفوف الحركة، وربما يعودون لاعتقال بعض الذين اعتقلوهم من سكان حيِّ البُرج، خاصةً إنَّهم اكتشفوا جثة أحد أعوان أمن الدولة مقتولاً في أحد الضواحي.

بقي العاتي يفكر، ثم سأل صديقه:

- هل بإمكاني أن أختبئ قبل أن يعتقلوني؟.

وبعد فترة من الصَّمت، قال له عمران:

- لا تريد أن تعود إلى المعتقل.

أجابه بسرعة:

- لو اعتقلوني ثانية وعذَّبوني كما فعلوا من قبل فسأنتحر!

وبعد صمتٍ طويل قال له عمران وهو يربت على كتفه:

- إذا ما تفطنت إليهم قبل أن يعتقلوك، اهرب، واتصل بي في بيتي، فسأتدبَّر الأمر. حذارِ أن تتصل بي في النهار، وخُذ كل الاحتياطات حتى لا يراك أحد، أنت تعرف طريقة اتصالنا.

ثم تفرَّقا، وتوجَّه كل واحد نحو "طيَّاب" يدلك جسده وينتزع منه أوساخ الأسبوع. تعكَّر مزاج العاتي، واضطربت نفسه، وحضرت في ذهنه صور كثيرة كلُّها مرعبة. لو ألقوا القبض عليه هذه المرة لتوصلوا إلى انتزاع الاعترافات منه، ولكان مآله الشنق لا محالة. كان الطيَّاب يدلك جسده بقطعة من قماش الخيش يكاد ينتزع جلده، لكنه لم يكن يبالي. كان فكرُه خارج الحمام مع صور متناقضة: المعتقل والزنزانة المظلمة النتنة، والرجل الذي صلبه يتجرَّع الموت قطرات، والمحقق الذي نسيَ حتى أن يتأكد من العنوان الذي مدَّه به مغتصبه قبل أن يصلبه. سوف يذيقونه عذابا أليمًا، سيمحقونه حتى يعترف

بجريمته. لا، لن يتركهم يمسكون به، سيفر إلى أي مكان في الدنيا، ولن يعود إلى جحيم التعذيب وويلاته. وسرعان ما تزيح صورة وجه وردة الصغير المتورِّد، وجسدها الممشوق الظريف، تلك الصور المرعبة، فيشعر بالراحة، وبالنور يملأ نفسه، ويجلو عنه صورة الزنزانة المظلمة التي كانت تهيمن على مداركه. وأفاق من أحلامه عندما صبَّ عليه الطيَّاب سطلاً من الماء البارد، بعد أن أتمَّ مهمَّته وقال له بصوت مرتفع:

- بالشفاء.

♦♦♦

وحالما غادر الحمام توجه إلى بيته مسرعًا وهو يفكِّر في خطة للفرار من قبضة المحقق. كان همُّه ألا يقبضوا عليه وهو نائم في بيته كما فعلوا في المرة السابقة؛ لكنه لا يريد أن يجلب إليه الشبهات بمغادرة بيته قبل أن تتوجَّه أصابع الاتهام إلى معتقلي الحي. وانبرى يمحِّص احتمالات كثيرة عن كيفية اقتحام رجال الأمن بيوت المعتقلين. لا بُد أن يأتوا ليلاً؛ لأن في النهار لا أحد يجرؤ على اقتحام البيوت ولو كان مدججًا بالسلاح. فشبان الحي وأطفاله له بالمرصاد، سوف تنهال عليه الحجارة من كل مكان، وسوف يمكِّنون المعتقل من الفرار والاختفاء بسهولة. لا بُد على أعوان الأمن إذا ما رغبوا في القبض على أي رجل مطالب لدى الشرطة أن يأخذوه على حين غفلة قبل أن يتفطَّن إليهم سكان الحي. إذن عليه أن يبيت في بيته دون أن يجده رجال الشرطة عندما يقتحمون البيت فجأة في الليل. لم يجد من وسيلة سوى أنه يبيت على السطح كما يفعل كثيرون في فصل الصيف. وبما أن الطقس بارد، عليه أن يبني مخدعًا فوق السطح دون أن يتفطن له الجيران، وعليه أن يكون منتبها أثناء النوم. إذن لا بُد أن يكون بجواره كلب ينبهه إلى كل تحرُّكٍ حول بيته. وسرعان ما تبلورت الخطة، وأخذ يعد لها بكل جدِّية.

وهو عائد إلى بيته، مرَّ على صديق له عنده كلب عظيم له به علاقات طيبة فاستعاره منه. ثم توقف عند النجار أخذ منه بعض قطع الخشب، وعاد إلى بيته. حالما رأته أمه

يدخل بالكلب إلى البيت استغربت، كانت تكرهُ الكلاب، تقول أن الكلب نجس، وهي امرأة طاهرة. ولكن العاتي شرح لها معطيات خطته، ودعاها أن تكتم السِّر، وتساعده على تضليل رجال الأمن إذا ما عنَّ لهم وقدموا لإلقاء القبض عليه مرة ثانية. تفهَّمت الخطة، وتحمَّست لها. لن تتركهم يأخذونه ويعذبونه هذه المرة. ثم صعد إلى السطح متسلقًا إحدى النوافذ، وركَّز الخشب الذي سيكون له بمثابة المخدع، وعاد يترل ليأخذ الكلب ويضعه فوق السطح. وبعد أن أعدَّ العُدة، بقي ينظر إلى السطوح المجاورة، وتيقن أن رجال الشرطة لن يلقوا عليه القبض؛ حتى وإن صعدوا فوق السطح. اطمأن للخطة، وخفَّت اضطراباته، وعاد يترل إلى بهو البيت تاركًا الكلب على السطح، وقد ملأ نباحه الأرجاء.

وما إن تغدَّى حتى لبس بدلته الأنيقة، واندفع خارج البيت متوجهًا إلى المدينة ليطلب وردة. كانت دقات قلبه تدوي وهو يدير الأرقام، ويستمع إلى طنين الهاتف. وعندما أجابه صوت رجالي، تلعثم و لم يقدر على طلبها إلا بعد برهة من الزمن. وكان صوتها مريحًا منعشًا، أزاح عنه كل ارتباكه. وكاد يطير من الفرح عندما حدَّدت له مكان وزمان الموعد، وكاد أن يقبِّل السماعة قبل أن يعلِّقها. نسيَ فجأةً كل همومه، وانشرحت أساريره، وخرج من غرفة الهاتف وهو يرى الدنيا تشع نورًا ورديًا.

كانت الساعة تشير إلى الثانية بعد الظهر، وهو يترقب أمام معهد باستور قدوم السيارة. كانت حركة السيارات فاترة ككل أيام الأحد، خاصة أن مباريات كرة القدم كانت متوقِّفة، فبقيَ ينظر في كل الاتجاهات إلى الساحة الجميلة بحلَّتها المزدانة خضرةً وورودًا. وما إن وصلت سيارتها حتى خفق قلبه بشدَّة وعمَّه الفرح، وبقيَ يتبع وصول السيارة متطلعًا إلى وجهها بشوق كبير. فتحت له الباب وصعد، بقي لحظة مرتبكًا، ثم ضمَّها إليه معانقًا، رغم انتصاب المقود حاجزًا بينهما. كان وجهها مشرقًا رغم خلوه من مواد التجميل. ابتسمت له ابتسامة عريضة ثم قالت بالفرنسية:

- كيف حالك يا شيخ؟.

قال لها وهو ينظر في عينيها بإمعان:

- عندما أراك يكون كل شيء على ما يرام.

قالت ضاحكة:

- عدت إلى الغزل! ألم أقل لك إنَّك لست بحاجة إليه. علاقتنا ستكون متينة بدونه.

ثم دفعت السيارة، وانطلقت إلى جهة أريانة. لم يسألها إلى أية وجهة تسير به، كان يريد رؤيتها وكان له ذلك. فأحسَّ بسعادة عارمة تثلج صدره. لم يقل لها شيئًا، اكتفى بالنظر في وجهها وهي مركزة على الطريق، يرنو إليها كالمتعبد أمام صنم يمثل ربه. ونسيَ الدنيا وكل مشاكله، وخوفه، وحيرته أمام المستقبل المبهم. أحس أنه حقًا خارج الزمن، ولولا خرير المحرك واهتزاز السيارة لشعر أنه خارج الدنيا. لكنه لم يكن يعيش في الخيال، كانت بجانبه يحسُّ بها وكأنها داخل قلبه. و لم تكن تدفعه رغبة فيها، كان وجودها يغمره فامتلأ طمأنينة، وغبطة، وهناء. ولما التفتت إليه مبتسمة راعتها نظرته، شعرت بسعادته، وبلهفته إليها. سرى بينهما تيار من العواطف جمع بين روحيهما قبل أن يلتحم جسداهما

قالت له لكسر الصَّمت الذي لم تعد تتحمَّله:

- إلى أين تريد أن نذهب؟.

أجاب حالماً:

- أي مكان تكونين فيه أنت بجانبي يكون أجمل الأماكن.

سألته بعد أن شقت السيارة مدينة أريانة، وأخذت طريق بنزرت:

- هل تعرف رمال بنزرت؟.

- أعرفها جيدًا، فقد خيمت بها عندما كنت كشافًا.

- إذن ننطلق إلى الرمال، ونقضي هناك ساعة أو ساعتين، ولو أن البحر هائج هذه الأيام.

◆◆◆

وعادت تنظر إلى الطريق، وهو ما يزال يرنو إليها متعبدًا. حتى سألته:

- هل لديك علم بما يقع هذه الأيام بالجامعة؟.

لم يكن يرغب في الحديث في السياسة، فرد بلطف:

- لا بُد أن تكون السياسة حاضرة بيننا؟.

التفتت إليه وقالت:

- لا يعيش الإنسان خارج السياسة يا العاتي!

فردَّ بتشنج:

- السياسة كفر ونفاق، وهيمنة وتعسف، ومراوغة وتضليل...

قاطعته قائلة:

- والسياسة نضال من أجل الأفضل، ومحاربة للطغاة، وانتصار للعدالة والقيم الإنسانية. لولا السياسة لما تقدَّم الإنسان ولما عرف التطور الاجتماعي الذي هو عليه الآن. وتناقضات السياسة هي تناقضات الإنسان. هكذا هو دائمًا: صراع بين الخير والشر، أو بالأحرى جدلية الخير والشر التي تهيمن على العقل البشري منذ نشأته. لا مناص لك من السياسة يا العاتي، أحببت ذلك أم كرهت.

استسلم لحججها متسائلاً:

- وماذا وقع في الجامعة حتى تُجند كل وسائل الإعلام لتشن حملتها المسعورة؟.

وبعد برهة من التفكير قالت وكأنها تحادث نفسها:

- لعبة حقيرة يمارسها بعض أقطاب الحكم. لقد أصبحت الجامعة لهذا الرهط من السياسيين سلاحًا يستعملونه لتدعيم نفوذهم، وربما للتخطيط للاستيلاء على الحكم. كانت لهم أيادٍ في بعث أحد التنظيمات الدينية، وما إن اشتد ساعده حتى ثار على سيده. وهو الذي وراء الصراعات المستمرة بين التنظيمات الطلابية، وهو الذي يريد اليوم أن يدفع بتناقضات الأوساط الطلابية إلى الساحة السياسية، ويخلق مناخًا من عدم الاستقرار ليهيِّئَ للتغيير الذي سيقع في قمِّة هرم السلطة إذ لم يعد يقوم بوظيفته.

لم يستوعب العاتي الكثير من حديث رفيقته، فسأل:

- و لم يتفطن الطلبة لكل هذه الخزعبلات؟.

- الطلبة ككل التجمعات البشرية يتصرفون كالقطيع، يتبعون التيار. عندما كان اليسار قويًا كان كل الطلبة يساريين. واليوم وقد برز اليمين بإعانة شق من الحكم أصبح كل الطلبة يمينيين. وتعرف اليميني وأساليبه العنيفة، إنه مُتعجلٌ على الحُكم؛ ولذلك خرج إلى الشارع وهو يحاول، بإعانة بعض أقطاب في الحكم، زرع الفوضى في الشارع، والإسراع بتفكيك الطبقة الحاكمة وتشتيتها، حتى يكون الجو متاحًا لتغيير قمَّة هرم السلطة. وتكون بالطبع الغلبة للذي جهَّز نفسه لتلك المهمة.

عاد العاتي يسأل وقد تشعب الأمر وضاع في متاهات التحليل:

- وما هو دور التنظيم إذن؟.

- التنظيم كان وما زال يسعى إلى تدعيم المنظمة الطلابية، وهي وحدها الكفيلة بالدفاع عن مصالح الطلاب. ليس للطالب مصلحة في الصراعات الجارية على سُدة الحكم. اليمين والحزب الحاكم وجهان لعملة واحدة، كلاهما دكتاتوري، لا يؤمنان بالديمقراطية، ولا بالحداثة، ولا بالرقي. هَمُّ الأول أن يفرض ما يدَّعيه حُكم الله، والثاني أن يستولي على خيرات البلاد. وهما انتهازيان؛ يقولان ما لا يفعلان، بارعان في الكذب والتضليل. وما مصلحة الطلبة وحتى الشعب في هذه الأرهاط السياسية؟.

قال العاتي بحسرة:

- ولا يوجد غيرهما لتسيير البلاد!

- مع الأسف لا يوجد. نحن كتنظيم سياسي لم نكن نرغب في الوصول إلى الحكم. كنا ولا نزال نصبو إلى بلورة المشروع الحضاري الذي يُمَكِّن الشعب من فرض حكم الأغلبية أي الطبقة الكادحة، ولكن الحكم أنهكنا وتصدَّى لنا بكل الوسائل، أضف إلى ذلك قلَّة وعي الجماهير، وتخاذل القيادة النقابية بارتمائها في أحضان السلطة، وتضاؤل دور المثقفين في شعب أكثر من نصفه أمي. كل هذه العوامل الموضوعية لم تساعدنا على

القيام بالدور الذي كنا نريد من خلاله تهيئة الشعب للحكم الشعبي الحقيقي، والقضاء على الاستغلال، والاستعمار الجديد.

كان يصغي إلى تحليلها بكل انتباه، لقد بهرته معرفتها الدقيقة بمجريات الأحداث، وإطلاعها الجيد على ما يجري في الساحة السياسية، فازداد شغفًا بها. لكنه كان يرغب في أن يتحدَّثا عن أشياءٍ أخرى غير السياسة. يريد أن يقول لها إنَّه مولعٌ بها، وأن حبها قد ملأ فؤاده، أنه يصبو إلى مشاركتها الحياة. ولم تفارق عيناه وجهها، رغم جمال الطبيعة التي كانا يعبرانها بسرعة. وعندما طلبت منه أن يدلي برأيه في الموضوع بقي صامتًا. قالت له بفتور:

- أعرف أن العمال يعتبرون الطلبة برجوازيين، وأن نضالاتهم لا تؤدي إلى بلورة نضالات العمال، وأنهم يُسراويون في تحاليلهم، ولا يعترفون بالواقع. لكن كل الطلبة ينتمون إلى الطبقة المتوسطة، ويمثلون إطارات المستقبل. والحركة اليمينية فهمت جيدًا الوضع، وتفشت في الأوساط الطلابية بطريقة مهولة. إنها تحضِّر للاستيلاء على الحكم، وتعويض إطارات الحزب الحاكم التي تهيمن على دواليب الدولة، بإطارات جديدة تستوعب إيديولوجيتها بسهولة، وتعمل من أجل تركيز الحكم الجديد في أسرع وقت.

التفتت إليه قائلة:

- إننا يا العاتي على أبواب مرحلة جديدة. لا نعرف من سيحكم البلاد في الأعوام القليلة القادمة. البلاد تغلي كالمرجل وأصحابها نائمون!

عادت تثبت بصرها في الطريق، ثم واصلت حديثها قائلة:

- لو وصل اليمين إلى سدة الحكم لحلَّت بنا الكارثة. إنه العدوُّ اللدود لتنظيمنا، سيسحقنا سحقًا!

خرج العاتي من صمته سائلاً باحتشام:

- وهل كان الحكم الحالي رحيمًا بنا؟.

- لم أقل ذلك، لكن حكم اليمين لن يترك لنا ولا لغيرنا أي مجال للتواجد.

قال بحدَّة:

- لا يوجد أكثر خبثًا من الحكم الحالي، يقتلك عِرقًا بعد عِرق.

وبعد صمتٍ طويلٍ قالت له بصوتٍ خافت:

- لقد عثروا على عون من أعوانٍ أمن الدولة مقتولاً بطريقة شنيعة قُرب المعتقل الذي عذَّبوك فيه.

ارتبك العاتي، والتفت إلى الطريق يثبِّت بصره في الشريط الأسود الملتوي المُمتد أمامه كالثعبان. صرَّ جسده داخل المقعد العريض غير المريح للسيارة، وقد تعكَّر مزاجه. لا يريد أن يتذكر المعتقل، ولا التعذيب، ولا الرجل المصلوب. يريد أن يرتشف سعادته بوجودها قربه، تملأ حياته دون أن يكون حاضرًا بينهما لا السياسة ولا الماضي ولا كل منغصات الدنيا. يريدها سعادة خالصة، حب بدون أبعاد المجتمع. ودون أن تلاحظ التغيُّر الذي طرأ على سماته ولا على وضعه، واصلتْ:

- لقد جُنَّ جنون شرطة أمن الدولة، وتوعدوا بالانتقام من المجرمين.

ثم التفتت إليه وسألته:

- من يكون وراء العملية يا ترى؟.

لم ينظر إليها، بقيَ يراقب الطريق في صمت. فعادت تتحدث وهي تدفع السيارة بأقصى سرعتها:

- حسب الأخبار التي استقيتُها، فعملية اغتيال العون كانت مدبرة من طرف عصابة، فواحد بمفرده لا يقدر أن يقوم بما قام به أصحاب العملية. فقد جرُّوه حتى شجرة، وهو لا يزال على قيد الحياة، ثم رفعوه إلى غصنٍ عالٍ بعد أن قيدوه، وتركوه يموت. لا بُد أنه تعذب أشد العذاب، فقد مات عِرقًا بعد عِرق كما كنت تقول. والغريب أنهم لم يسرقوه، ولم يضربوه، ولم يأخذوا حتى دراجته النارية التي بقيت قرب جثَّته.

اكفهرَّ وجهُ العاتي. لا بُد أنها تشك فيه. وإذا ما سألته عن دوره في عملية الاغتيال فكيف سيكون ردُّه؟. أيكذب عليها أم يقول لها جُل الحقيقة؟. ولم يتأخر سؤالها، إذْ التفتت إليه سائلةً:

- ألم تكن ترغب في الانتقام من جلاَّديك في ذلك المعتقل؟.

وعندما لم يُجب قالت:

- ها هو أحدهم قد قضى نحبه. لا بُد أنك مسرور لذلك.

تنفس الصَّعداء، فهي لم تشك أنه كان قاتل ذلك الرجل الغليظ. فسارع بالقول:

- الفناء لكل الجلاَّدين!

لكنها قالت له بفتور:

- لم يكن سوى عون تنفيذًا لوسائل قرر استعمالها غيره. لعلَّه كان أبًا لأسرةٍ وأطفال، وكانت تلك وسيلته الوحيدة للإنفاق على أسرته. المجرمون الحقيقيون هم أصحاب القرار من سياسيين وإداريين ومستشارين. وإذا ما وجب معاقبة من ساهم في تعذيب المعتقلين لا بُد أن يبدأ العقاب برجال السياسة الذين أمروا باستعمال تلك الوسائل، أو تغافلوا عن مستعمليها.

♦♦♦

لم يحرك ساكنًا حتى انعرجت السيارة إلى طريق ضيقة، ثم انحدرت نحو الغابة الشاسعة، وقُرب مطعم صغير مغلق توقفت، وصمت محركها، والتفتت وردة إلى العاتي تنظر إليه وابتسامة غامضة تهلل وجهها. كان لا يزال مطرقًا يفكر في الرجل المصلوب، وفي وعيد رجال شرطة وأمن الدولة، لكنه عندما رأى على وجهها تلك الابتسامة المعبِّرة، عاد قلبه يمتلئُ بالحب، وتلاشت شيئًا فشيئًا حيرته، واضطراباته. فتح الباب ونزل متباطئًا. نظر من حوله، كان المكان قفرًا. لا يروم الناس التجوال في هذه الأماكن في فصل الشتاء. وكانت الغابة تهمس بأنَّات حزينة، وكان صدى البحر يأتيه من وراء كثبان الرمل التي تغطيه، يعزف نغمًا رتيبًا. وعندما التفت وجدها تخطو نحوه، فترقبها حتى وصلت، والتفَّ حولها بقامته الطويلة، وانحنى يروي غليله من ثغرها الملتهب. فكانت القُبلة التي حلم بها أسبوعًا كاملاً، وكانت لذيذة، منعشة، أجَّجت فيه رغبة عارمة.

بقيا يتعانقان لحظات طويلة، ثم توجَّها نحو الغابة الكثيفة، وهو يضمها إليه وكأنه خائف أن تطير من بين يديه. كان شعوره أن هذه اللحظات لن تدوم، وأن عليه أن يرتوي منها ما استطاع. وما إن تقدَّما في مسربٍ بين الأشجار العاتية حتى انحنى عليها هامسًا بصوت مرتجف:

- كم اشتقت إليك طيلة الأسبوع!

توقفتْ في وسط المسرب، وغمدتْ رأسها في صدره وضمته إليها بقوة، وبقيَت تمرِّغ وجهها على صدره، وكأنها تريد النفاذ إلى قلبه. عاد يهمس لها بحرارة:

- أحبك!

قالت له بالفرنسية دون أن يغادر وجهها صدره:

- وأنا كذلك.

أعاد بالعربية نفس الجملة، فرفعت نحوه عينيها لتلاحظ مدى صدق عواطفه، وبعد بُرهة من التأمل حنت رأسه وعادا إلى العناق الملتهب. وتماديا على تلك الوتيرة؛ لحظات من العناق تليها تجوال بطيء بين مسارب الغابة الكثيفة، وهمسات قليلة لكلمات قليلة. لم يكونا في حاجة لأكثر منها ليعبِّرا عن الحب الذي جمعهما. وعندما جلسا على كثبان الرمل التي تفصل الغابة عن البحر، سحرهما مشهد الأمواج العاتية تتسارع لتموت على الشاطئ المبلل. كانت المياه الخضراء تمتد أمامهما إلى الأفق البعيد، والسماء تكتنفها سحب رمادية عالية، وأنشودة البحر تتكرر كالنغم الحزين. قال لها متردِّدًا:

- أسنبقَى طويلاً نلتقي خفية كالفئران؟.

كانت تجلس على الرمال الباردة، وهو يلفها بين رجليه. فالتفتت إليه قائلة:

- لمْ أفهم سؤالك.

عاد يقول بعصبية:

- أريد أن أراك كل يوم وكل ساعة! لقد اكتشفت السعادة، ولا أرغب في التخلي عنها.

أجابته بصوتٍ خافتٍ وهي تنثر الرمل بين رجليها:

- ذلك هو قدرنا. لقد اخترنا أن نناضل من أجل المجتمع فلا مناص من التضحية.

انحنى عليها، وهمس لها بحرارة:

- لكن حياتي تغيَّرت منذ أحببتك!

عادت تنظر إليه بحدة. ثم سألت بعنف:

- ماذا تريد؟. هل لديك مشروع زواج؟.

صمت. ولكنها عادت تتحدث إليه بنفس النبرات الحادة:

- الحب شيء والزواج شيء آخر. أنا لا أرغب في الزواج، ولا أفكر فيه الآن. اتركنا نتمتع بلحظات سعيدة ولا تشغل بالك بالمستقبل.

ثم التفتت إليه ونظرت في وجهه الحزين، وعادت تتحدث برقة:

- أنا سعيدة معك، وأشعر بسعادتك. ألا يكفينا ذلك؟.

لم يُجبها، بقيَ ينظر إليها ولا يراها. كان فكره يلوك كلامًا لم يقدر أن يقوله. شعر أنها لا تريد الارتباط به. هل هي الفوارق الاجتماعية؟. أو أنها تجد المتعة معه، وذلك كافٍ لتمضية وقت طيب؟. ألا يكفيه ذلك؟. ماذا يريد منها؟. أن ترتبط به مدى الحياة، وهو العامل الذي لا يزيد راتبه على خمسين دينارًا!

نهضت ومسكته من يديه محاولة أن تجره إليها لكنه لم ينصع. بقي متسمرًا على الرمال فارتمت عليه تحتضنه وتقبِّله وتهمس له:

- يحزُّ فيَّ أن أراك غاضبًا. ماذا تريد بالضبط؟.

كان يحس بجسدها وهي تطوقه فاحتواها، وبقيَ لحظة يضمها إليه، ثم همس لها:

- سأموت شوقًا إليك عندما سنفترق.

جلست على صدره وهو ممدَّد فوق الرمال، ثم قالت:

- سأحاول أن نلتقي أكثر من مرة في الأسبوع. تعرف أن الامتحانات على الأبواب، ولو أن الإضرابات عطَّلت كثيرًا من الدروس، لكني أرغب في مغادرة الجامعة هذه السنة. أريد أن أستقل بحياتي.

نهضت وقالت له أنها تريد السير حتى أنقاض السفينة الراسية على الرمال يغطي الماء جزء ضئيلاً منها. قام وتبعها، وانطلقا يمشيان يدًا في اليد على الرمال المبللة. وعندما اعترضتهما أكوام الحجارة رفعها على كتفيه كالبُنية، ومشى بها حتى أنقاض السفينة. ثم عادا إلى السيارة، ورجعا إلى العاصمة والحب يظللهما وينعشهما.

كانت سعادة العاتي لا توصف، شعر وكأنه يحلق في سماء صافية في بداية فصل الربيع، وكأن الدنيا تحس بسعادته، وكأن الأشجار سواء التي كانت تطل عليه في الغابة أو التي تودِّعه في طريق العودة، تهنئه بالانتماء إلى عالم الحب. كان يرتشف لحظاتِ حبه وكأنه الخمر المعتق ذات النكهة العذبة، فيمتلئ نشوةً ومتعةً. وكانت هي كذلك تشاطره تلك السعادة. وجدت عنده ما لم تجده عند أي رجل دنا منها يستلطفها ويطلب ودَّها. كانت في تلقائيته، وصدق عواطفه، وفي اندفاعه متعة رقت بحبهما إلى مرتبة العواطف النبيلة التي كانت تحلم بها كلما تعرفت على فتى. ولم تكن في البداية تبحث معه عن الحب، كان يروق لها جسده المتكامل، ووجهه القمري، وفحولته، لكنها لم تفكَّر أنها تتعلَّق به، وتبادله العواطف بصدق واندفاع. لقد استغربت تصرفها. لم تفكر يومًا أنها تعشق رجلاً وتهيم به. كانت تعتقد إنَّه فعل صبيان البرجوازية. لكنها تكتشف اليوم عالم الحب، وترتوي من ينبوعه. وهما عائدان إلى العاصمة والظلام يهيمن على الأرجاء، كانت تلك الأفكار تخالجها. فقالت له فجأة:

- أحقًا تحبني؟.

كان سعيدًا بهذا السؤال فأجاب:

- أكثر من الحب! إني مجنون بك. الفرنسيين يسمون هذه الحالة "صاعقة الحب". ولكنها صاعقة من السعادة.

لم تقل شيئًا فترة طويلة حتى همست له:

- لا أريدك أن تفكر في المستقبل. الحب حاضر دائمًا كالحياة. نحب دون تفكير، ودون مشاريع، ودون هيمنة. ولنكن متساوين أمام حبنا، آخذ منك وتعطيني، وكفى.

قال لها بعد فترة تفكير:

- لكن حبي كالنار تتأجج في فؤادي فتحرقني، ولا تهدأ إلا عندما أراك أو أسمع صوتك. لقد ملأت حياتي فلم أعد أرى سواك. الدنيا كلها صارت وردة أتنشق عبقها.

ضحكت بصوتٍ عالٍ ثم سألت:

- من أين لك كل هذه الشاعرية؟.

- فتّقتها أنت.

أوقفت السيارة على حافة الطريق وقبلته قبلة طويلة، ثم عادت تدفعها في صمت حتى وصلا المدينة، وغمرهما نورها المتلألئ. وتفارقا عند ساحة باستور دون أن يتمكن من ضبط موعد معها. قالت له أن يطلبها بالهاتف متى شاء دون أن يعطي اسمه الحقيقي. وما إن توارت عن ناظريه حتى زاد حنينه شوقًا إليها.

(٢١)

كان الليل جميلاً والسماء صافية يسبح فيها القمر زاهيًا ينثر نورًا فضيًا. وكان السكون مخيمًا على الحي الفخم، تعطِّر شوارعه روائح العشب والأزهار. وكانت الفوانيس المنتشرة في كل أرجائه تسكب النور وتطرد الظلمة وتشعر الزائر بالأنس والطمأنينة.

شقَّ بُرهان تلك الشوارع حتى وصل أمام فيلا فخمة، ذات طابقين، حيث توقَّف، وأطفأ أنوار السيارة، ونزل صحبة زوجته التي كانت على غاية من الأناقة، تلبس معطفًا من الفرو الطبيعي أهداه إياها بُرهان إثر زيارة للاتحاد السوفياتي. وكانت تضع تحت المعطف فستانًا من المخملي الناعم الأحمر القاني، يحتوي جسدها ويظهر كل محاسنها. كان بُرهان متضايقًا من تلك الأناقة التي فرضتها عليه زوجته. كما ألحت عليه أن يلبس بدلةً داكنة، وقميصًا أبيض ناصعًا، وربطة عنق.

تردَّد قليلاً قبل أن يخطو خطوات نحو الفيلا، فقد أفزعهما نباح كلب عظيم، غطَّى جسمه باب الفيلا، وانبرى يقفز ملوِّحًا بعدوانيته نحو الزائرين. تقدَّم بُرهان ودقَّ الجرس، فازداد هَيَجان الكلب حتى قدم الحارس وفتح لهما الباب، وقد انتشرت في أرجاء الفيلا أنوار بيضاء انبعثت من العشب، وكست الجدران وظهرت الفيلا كقصر من النور.

تقدَّم الزائران نحو الدرج المغطى بالمرمر، يلمع تحت انعكاس النور. ووقف رزق خال زوجة بُرهان عند الباب يستقبلهما بترحاب متكلِّف. لم تكن علاقة بُرهان برزق طيبة، علاقة فرضتها المصاهرة، ولكن بُرهان حين اكتشف حقيقة صهره؛ لعن اليوم الذي تعرف عليه. ومع ذلك فالنفاق الاجتماعي فرض عليه أن يتحمَّله، وكانت هذه زيارته الأولى إلى بيته، لبَّاها ترضية لرغبة زوجته.

حالما دخلا الصالون الفخم؛ انتزعت زوجة بُرهان معطف الفرو، فظهر جسدها ممشوقًا في الفستان الأحمر، وقد نثرت على كتفيها شعرها الأسود الناعم، وظهر نهداها عاريين حتى الحلمة. احتواها خالها، وأطرى على جمالها وأناقتها، ثم التفت إلى بُرهان وقال:

- إنك لمحظوظ بهذه الفاتنة!

ثم أجلسهما على أريكة وثيرة، وأخذ يداعبهما علّه يفلح في انتزاع التوتر البادي على وجه بُرهان. لقد أحس بُرهان بالضيق داخل كل ذلك البُهرج من الأضواء المتدفقة من أماكن عديدة من الصالون: ثريات من الكرستال، وعاكسات أنوار من المرمر، ومناوير مختلفة الألوان موجهة إلى نافورة وسط الصالون. وتمادى بُرهان يتغافل عن حديث صهره، يتفحص محتويات الصالون، عرض للثراء ينقصه الذوق السليم. لا يوجد على الجدران ولو لوحة واحدة أصلية، في الوقت الذي تزخر البلاد برسّامين من الطراز الرفيع. وحتى الكتب المرصّفة داخل مكتبة خشبية فخمة، كل مجلّداتها الفاخرة مجعولة للزينة أكثر منها كمراجع. وكان بُرهان يؤكد لنفسه أن رزق لم يفتح ولو مرة إحدى تلك المجلدات المسفّرة والمزوّقة بماء الذهب. كان بُرهان يؤكد لنفسه أن رزق يحذق التزييف حتى في اقتناء أثاث بيته. "تلك هي البرجوازية الانتهازية التي قفزت من لا شيء لتستحوذ على خيرات البلاد دون أن تكسبها شيئًا، لكن رزق نهض فجأة وتوجّه إلى ركن في الصالون به خزانة بلورية فخمة، يُعرض داخلها عددٌ من الأواني الفخمة المذهبة، وأخذ منها كوبين، ثم انحنى على البوفيه وأخرج منه قارورة من الكُنياك، وعاد يجلس بالقرب من بُرهان، وانبرى يسكب الرحيق الذهبي في الكوبين، مدَّ يده بكوب لبُرهان قائلاً:

- ربما تريد ثلجًا؟.

أومأ له بُرهان برأسه أن لا. ونظر إلى الكوب العريض يطفح داخله السائل يتلألأ. قال له رزق متباهيًا:

- هذا كُنياك فرنسي من أرفع الأنواع، اقتنيته بنفسي عند زيارتي لجهة الشارونت.

ولما رآه غيرَ مبالٍ بكلامه، انحنى عليه قائلاً بصوتٍ خافتٍ:

- لا تقل لي إنك لا تشرب!

ابتسم له بُرهان ابتسامة مجاملة، ثم رفع كأسه ورشف من الرحيق. كان حقًا لذيذًا منعشًا. وفجأة دقَّ الجرس، فارتبك بُرهان والتفت إلى زوجته التي كانت تلاطف كلبًا صغيرًا ذا فرو كثيف متجعِّد. وقف رزق متوجهًا نحو الباب، وبعد أن فتحه واستقبل الزائرين بحفاوة كبيرة، وأدخلهما الصالون، قدَّمهما إلى بُرهان وزوجته قائلاً:

- أنور وزهيرة من أعزِّ أصدقائي.

كانت المرأة التي جلست قُرب زوجة بُرهان بدينة، وقد ملأ عبق عطرها الفواح المكان، وكانت تضع على صدرها العاري كل ما تملك من الحُلي. جلس زوجها قُبالة بُرهان، وأخذ يحملق فيه بإمعان. عاد رزق يقدِّم صديقه إلى صهره قائلاً:

- أنور موظف سامٍ في وزارة الداخلية، لا بُد أن تتعرف عليه. كلنا في حاجة إلى خدماته الجليلة!

أحس بُرهان بالكآبة. ألا يكفيه رزق؟.! انزوى داخل ذاته يلعن نفسه على قبول القدوم إلى بيت رزق. لكن عندما ظهرت زوجة رزق في باب الصالون وقد وقف الموظف ومعه زوجته بإجلال لاستقبالها؛ نسيَ بعض غمِّه. كانت زوجة رزق امرأة جميلة حقًا رغم ذبول شبابها. عندما سلَّمت على بُرهان ونظر في عينيها وجد فيهما سحرًا لم يقدر على مقاومته. كانت أنيقة دون ترف، بشوشة دون تكلُّف. وسرعان ما غادرت حلقة الرجال وانزوت بالمرأتين في أحد أركان الصالون. سأل رزق صديقه الموظف:

- ما الجديد؟.

أجابه مبتسمًا وهو لا يزال يحملق في بُرهان:

- اسأل صهرك فهو أقرب الناس من القلاقل.

قال رزق ضاحكًا:

- صهري عريس جديد له اهتمامات أخرى!

وغادر الرجلين ليأتي بكوب لصديقه. وبعد أن صب له الرحيق ومدَّه بالكوب، عاد يتحدث عن الأحداث الطلابية الأخيرة وينعت الطلبة بكل النعوت.

ملأ فمه رحيقًا، وبعد أن ابتلعه، التفت إلى صديقه الموظف وأعلن بصوت مرتفع:
- لا بُد من التصدِّي لهم بكل حزم!

صمت لحظة ثم أضاف:
- سمعت أن في أحد بلدان المشرق يوجد في كل مركز شرطة فلَقة يستعملونها لجلد المخالفين، كما كان يقع عندنا في الكُتَّاب. هؤلاء الطلبة لا ينفع معهم إلاَّ العودة إلى الفلَقة!

لم يكن بُرهان يتصوَّر أن صهره أحمق إلى هذه الدرجة. سمع عنه الكثير، وتأكد الآن من طينة الرجل. فازداد غمُّه وحسرته على المجيء. التفت إلى الجهة التي احتلت فيها النساء الثلاث، فتقاطعت عيناه مع عيني زوجة رزق. كانت نظرتها حالمة، غامضة، لكنها ساحرة. فتساءل عمَّا إذا كانت هذه المرأة الرقيقة سعيدة مع هذا الرجل الغليظ التافه. وتذكَّر ما أشيع عنها من أقاويل حول علاقتها المسترابة مع أحد رموز الحكم، وحول دور هذا الأخير في صعود رزق السريع إلى جهاز الحزب، وثرائه الفاحش. ولكن عندما عاد الموظَّف يتحدث بصوته الهادئ وهو ينظر إليه بإمعان ارتبك. فقد أكد أن وراء الطلبة تنظيمات سياسية تدفعهم إلى التظاهر وخلق الفوضى، وأنَّ النظام بصدد كشف تلك التنظيمات اليمينية منها واليسارية. واستخلص على طريقة رزق قائلاً:
- نحن لها بالمرصاد!

وما إن احتسى ما تبقَّى في كوبه حتى عاد رزق يصب له الرحيق معلنًا:
- فإذا كان أهل اليمين تحرِّكهم إيران، وأهل اليسار تحرِّكهم روسيا، فنحن نتحرَّك بمحض إرادتنا!
- أتوافق رزق فيما يقول وأنت من الميدان؟.

ارتبك بُرهان و لم يدر إذا ما كان عليه أن يجيب. وماذا سيقول؟. أيواصل لعبة النفاق الاجتماعي إلى النهاية أم يبقى صامتًا؟. وبعد صمتٍ قصير قال للموظف:
- وأنت؟.

همز الموظف رزق وقال:

- صهرك لا يرغب في مشاركتنا الحديث!

فأجاب رزق بامتعاض:

- هكذا هم المثقفون يدَّعون في العلم فلسفة!

ثم سكب الكُنياك لجليسَيْه، وعاد يتحدث في السياسة، واصفًا كل مُعارض لسياسة الحزب بالفاشل الطامع، ثم ختم حديثه معلنًا:

- فلنحمد الله على هذه النعمة!

نظر صديق رزق إلى بُرهان مليًّا، ثم دنا منه وأعلن بصوتٍ خافت:

- البلاد على حافة هاوية... تصور أنَّ مجموعة من مرتزقة السياسة تتحرَّك نحو خلق الفوضى في البلاد، وقد التجأت إلى الأساليب الدموية...

كان رزق مادًّا رأسه نحو صديقه يلتقط الكلمات بانتباه شديد، فما إن سمع الأساليب الدموية حتى قاطع صديقة سائلاً:

- وهل ضبطتم مَنْ هم وراء ذلك؟.

- نحن في بداية التحقيق، والشبهات تتجه نحو تنظيم يساري أفلس فالتجأ إلى هذه الوسائل الستالينية.

قال رزق بعنف:

- امحقوهم. نحن لسنا مثل بعض دول الشرق العربي. نحن بلاد أمن وأمان.

♦♦♦

ثم نهض ودعا ضيوفه إلى العشاء.

التفوا أزواجًا حول طاولة مستديرة، فكان رزق بين زوجته وابنة أخته، وبُرهان بين زوجته وزوجة الموظف البدينة، وكان الموظف بين زوجة رزق وزوجته. كانت الطاولة قد مُلئت أطعمة مختلفة، ووزعت عليها الصحون والكؤوس المذهبة، والملاعق والشوك الفضية. لم ينس رزق الشموع في شمعدانات طويلة من الفضة. عندما جلس الجميع وقف رزق وأعلن:

- أردتُ من هذا العشاء أن أبارك لبُرهان ومنيرة بزواجهما. ولذلك السبب أحضرت الشموع تكريمًا لحبِّهما الناشئ.

ثم أزاح الغطاء عن سطلٍ صغير على طاولة بلورية تُجرُّ على عجلات، ورفع قارورة الشمبانيا، وبعد أن مسحها، أخذ يفتحها بكل حذر حتى أسال الرحيق في الأكواب، وعاد يتمنى للعروسين السعادة. ثم أعلن بكل فخر:

- لكي تسلما من العين؛ أردته أن يكون عشاءً بحريًا تأكلون خلاله أرقى ما يُنتج البحر من ملذات.

وبعد أن جلس انحنى على بُرهان وهمس في أذنه:

- مأكولات البحر تنمي الغدد الجنسية!

واندفع يضحك بصوتٍ عالٍ.

لكن بُرهان كان متضايقًا من وضعه، لقد نزلت عليه أخبار موظف الداخلية كالصاعقة وبعثرت كل تماسكه. وكاد يصرخ عندما أخذ رزق يسمي بالفرنسية معروضات مائدته "بطارخ حمراء وسوداء"، قال إنها متأن من بحر قزوين، جراد البحر وردي اللون، محار سوداء مطهية في مرق رمادي، ويتصدر كل تلك الصحون الجميلة الألوان سرطان البحر بمشابكه الحادة، والذي قال عنه رزق بكل فخر إنه يزن خمس كيلو غرام، ويفوق طوله نصف المتر. شعر بالتعاسة لفظاظة هذا الرجل.

وعندما بدأ جيرانه على الطاولة يأكلون، لم يتجرأ على الأكل. كانت الدنيا أمامه ملآنة بويضات سوداء وحمراء تزحف إلى بلاعيم عظيمة تلتهمها. وعندما تفطنت زوجته إلى سهوه، مسكت يده وضغطت عليها ضغطًا خفيفًا، ثم لمحته بنظرة مترجية حتى انصاع إلى رغبتها، وانغمس مع رفاقه في السهرة، يملأ قطع الخبز المطلية بالزُّبد بالبطارخ، ويبتلعها، ورشف الشمبانيا، وسكب لزوجة الموظف بجانبه حتى ملأ كأسها متمنيًا داخله أن تنفلق وتريحه من خساستها. فقد انبرت تغني أغنية بذيئة، وتصفق مترنِّحة يُمنةً ويُسرةً. وشاركها الجميع الغناء والتصفيق، وانتشر الصخب والهرج، فازدادت تعاسته، واستسلم للرداءة وصبَّ همَّه في الشمبانيا.

وتلا البطارخ جراد البحر. وبقيَ بُرهان يشاهد الأيدي تمتد إلى تلك الحشرات الملساء ذات الأرجل المتعدِّدة والغلاف المتين كيف تقطع رؤوسها، وتقلع أرجلها، وتسلخ أغلفتها، ويظهر لحمها أبيض متورِّد سرعان ما تبتلعه الأفواه النهمة. بقيَ ينظر إليهم دون أن يشاركهم نهمهم. وتفطن إلى نظرات الموظف المسترابة إلى زوجة رزق التي فقدت وقارها، وانقشعت من محياها تلك الابتسامة الغامضة. كانت تبتعد عن زوجها، وتقترب من الموظف حتى لاحظ بُرهان تبادل النظرات المعبِّرة. ولما أمعن النظر لاحظ بعض اللمسات. أخذ يتسلى بتلك المبادلات الخفية بين الموظف وزوجة صهره الذي لم يكن متفطنًا لها، أو هو متغافل عنها. لم يتبادل رزق مع زوجته ولو كلمة منذ أن حضرت تستقبل ضيوفه. كان الموظف يحث زوجته على التمادي في الابتذال ليتسنَّى له الاختلاء ولو بلمسات خفيفة بزوجة صديقه. فكانت نظراتٌ، وضحكاتٌ، وغمزٌ، ويدٌ توضع عفوًا على الفخذ وتبقى تتلمس... كانت كل تلك السينما مكشوفة لبُرهان، ولكنه سرعان ما ملَّها. تجرَّع تعاسته لوحده، وأغرقها بفيض من الشمبانيا حتى اعتراه الغثيان. فكانت أشكال الحاضرين على المائدة تتغير شيئًا فشيئًا. تتقلَّص أحيانًا، وتنحرف أخرى، وتتغير سمات الوجوه فتصبح بشعة مخيفة. وما إن نظر إلى زوجة رزق حتى ظهرت له عجوزًا شمطاءَ، وتحوَّل رزق في عينيه إلى دبٍ أسمر يكشر بأنيابه ويغرز مخالبه في جسم الكركدن، ينقضُّ عليه بكل شراسة ووحشية. فكانت تلك الصور المريعة تظهر وتختفي، ثم تستقر أمام عينيه، وتتحوَّل إلى واقع ملموس يراه يتكوَّن. ولما اختلطت في ذهنه الأشياء وتفاقم غثيانه وداهمته أوجاع بطنه، نهض متثاقلاً مترنحًا مسرعًا إلى الحمام.

كبَّ رأسه على مقعد المرحاض وتقيأ. أخرج كل ما احتوته بطنه، وكان الألم يقطع أحشاءَه. بقيَ لحظةً يتوجَّع ثم تحامل على نفسه وتوجَّه إلى المغسل وبلَّل وجهه بالماء البارد. وعندما استقام ونظر في المرآة لم يتعرَّف على وجهه نتيجة الضباب الذي كان يملأ عينيه. كان الصداع يدوِّي في رأسه، وأوجاع بطنه ما زالت تؤلمه، وإحساسه بانعدام التوازن يجعله لا يستقر على نظرة جلية للأشياء التي تحيط به. بقي فترةً من الزمن يتكئ على المغسل حانيَ الرأس، شاردَ البال، حتى دخلت زوجته واحتضنته تسأله

مضطربة. أخذت وجهه بين يديها وبقيَت تنظر إليه بإصرار، ثم ضمته إلى صدرها العاري، وأخذت تمسح عليه بحنان.

بقيا لحظة متماسكَيْن. ارتاح لحنان الصَّدر ورقَّة الشعور، فخفَّت أوجاعه، وهدأت نفسه، وداخلته بعض السكينة، ونسيَ همَّه وتناقضاته. بقيَ يغمد رأسه بين الثديين مستنشقًا عبقهما، وشعر بالدفء يغمره. لم يدْرِ كم من وقتٍ بقيَ على ذلك الوضع، فقد استرخى ذهنه وتقلَّص تشنجه، وابتعد رويدًا رويدًا عن ثقل العالم الدنيء من حوله، وشعر أنه ينتقل على بساط ناعم طري إلى عالم بدون جاذبية. وانقلب الوجود عنده إلى إحساس واحد: الدوران على نفسه في بحيرة تكسوها ظلمة وردية، ويخترقُها صدًى مدوٍّ منتظمٌ لا ينتهي.

عندما عاد إلى رُشده، وأفاق من غيبوبته، نظر إلى زوجته نظرة ودٍّ وترجاها أن يعودا إلى بيتهما. ورغم إلحاح رزق فقد غادرا المكان.

(٢٢)

بات ليلته فوق السطح وقد وفَّرت له أمه كل ما تملك من أغطية. لم ينم كثيرًا فنباح الكلب أرَّقه، والخوف من اقتحام البيت أقضَّ مضجعه. ولكنه نهض عند الصباح الباكر كعادته، وعندما نزل من السطح وجد أمه قد أحضرت له فطور الصباح. وبعد أن هيأ نفسه توجه إلى عمله سالكًا طريقًا غير التي اعتاد سلوكها. وحتى أثناء العمل كان محتاطًا لكل زائر غريب. وكان على استعداد دائم للفرار في أي لحظة. كان تشنجه على أشده كامل اليوم، يشعر بالخطر يطوقه من كل مكان. وكانت صورة المحقق الذي لم يتسن له رؤيته، والتي تصورها خياله تهيمن على عقله. يعرف جيدًا أنه لو وقع في قبضته فلن يفلت هذه المرة. وسيتفنن في التعذيب حتى يستسلم ويقرَّ بالجريمة، ويكون مآله الموت كما فعل مع مغتصبه. سوف يشنقونه، وربما يتشفون منه قبل أن يرموا به في غياهب السجون يترقب تنفيذ الحكم.

وكان عزاؤه الوحيد صورة وردة يستنجد بها كلما حلكت الدنيا في عينيه. فيتخيلها واقفةً أمامه، ويتفحصها بدقة، فتنجلي كل همومه وكل مخاوفه. وتعود إليه كلماتها تثيره، ويعود طعم الحب ينعشه، ويتمنى أنه يراها في الحقيقة لا في الخيال. رؤيتها فقط تملؤه سعادة. وعند الزوال، أثناء فترة الاستراحة، توجه إلى مركز البريد القريب من مكان عمله، وطلبها. لم يجدها فكانت خيبته كبيرة، ولكنه منَّى النفس أنه سيطلبها عند المساء. لن يقدر أن يتخلَّى عن فكرة الاتصال بها ولو ليقول لها "أحبك" كانت تلك الكلمة كافية لتجعله سعيدًا.

وعند المساء عاد إلى بيته، وانزوى في غرفته يترقب نزول الليل ليصعد فوق السطح يشاطر الكلب سهره. ولم يكحل النوم جفنه، رغم الإرهاق وأرَّق الليلة الماضية. كانت وردة تملأ خياله، وكان شوقه إليها يثير كل حواسه. نظر في ساعته. كانت تشير إلى التاسعة ليلاً. أطفأ المصباح الكهربائي وبقيَ يفكر. لا بُد أنها بالبيت. ودون تردُّد، نهض ونزل إلى بهو البيت، وخرج إلى الشارع مسرعًا، دون أن تنتبه إليه أمه. واندفع يشق الأزقة الملتوية حتى غادر الحي، ونزل إلى وسط المدينة ليجدَ غرفة هاتف عمومي. كانت كل الغرف فارغة. لا يسهر الناس كثيرًا هذه الأيام، فحوادث السطو والاغتصاب تفاقمت. بقي لحظة متردِّدًا قبل أن يرفع السماعة ويشكل الرقم. وجاءه صوتها، تعرَّف عليه من الوهلة الأولى. وعرفت هي كذلك صوته. قالت له:

- لا بُد أن أمك ولدتك ليلة القدر. كنت أبحث كيف أتصل بك...

قاطعها قائلاً:

- صحيح أني وُلدت ليلة القدر، وإلا لما تعرَّفت عليكِ.

ثم صمت. ترقبت قليلاً ثم سألت:

- لماذا طلبتني؟.

قال بلهفة:

- أحبك!

- الوقت ليس للمزاح. أمور خطيرة تترقبك وأنت تتحدث عن الحب!

- أؤكد لك أني خاطبتك في مثل هذه الساعة، وقد تركت فراشي ومشيت أكثر من كيلو مترين لأقول لك أني أحبك.

- حسنًا فعلت. غلّق واطلبني من مكان آخر، ربما نكون مراقبين.

وصدمته خشخشة فرقعت كيانه. خرج يجر رجليه. وبعد لحظة من البهتة، توجَّه إلى مركزٍ ثانٍ للبريد وعاد يطلبها. فقالت له بحزم:

- اسمع جيدًا ما سأقوله لك: لا تعُد إلى بيتك.

وقفلت الخط.

لم يضع السماعة إلا بعد برهة من الزمن، كان طنينها يثقب أذنه، لكنه تركها على أذنه وكأنه يترقب أن تعود إلى محادثته. خرج إلى الشارع العريض القليل الإضاءة تشقه السيارات مزمجرة، وبقيَ برهة من الزمن يفكِّر. لقد بدأت محنتُه. الفرار من الجحيم. الاختفاء كالفأر. التستر على الناس، وتغيير شخصيته، وهيئته، وتصرفاته. لا يمكنه العودة إلى بيته ولا إلى أمه، ولعلَّه لم يعُد بإمكانه أن يرى وردة. خفق قلبه بشدَّة لهذه الفرضية. سيتحمل كل شيء ولكن شوقه إليها سيكون أشدَّ الحرمان.

تقدَّم نحو المدينة العتيقة، ثم تمادى في نهج زرقون الذي كان قفرًا، وانبرى يتسلل بين الأزقة الضيقة لحي الحفصية حتى وصل إلى ساحة باب سويقة، ومنها انتقل إلى ساحة الحلفاوين، وبعد أن التف على بعض الأزقة، وصل إلى بيت عمران. نظر في كل الاتجاهات، ثم نقر على الباب ثلاث نقرات اثنتان قصيرتان والثالثة طويلة. وبقيَ يترقب حتى فتح الباب، وخرج له عمران وصافحه بحرارة. ودون أن يستدعيه إلى الدخول انطلق به بين أزقة حي الحفير حتى وصلا أمام زاوية سيِّدي الوزان. أدخله السقيفة التي كانت مضاءة، وتبقى مضاءة كامل الليل، وأجلسه على إحدى الدِّكك المفروشة عليها جلود الخرفان، وانصرف إلى داخل الزاوية، ثم بعد بُرهة عاد وأخذ معه العاتي وصعد به درجًا ضيقة مظلمة حتى توقف وتحسَّس المكان، ثم بدأ يدير قفلاً في باب لم يكن يرى منه العاتي شيئًا. وعندما فتح الباب وضغط عمران على زر الكهرباء، انقشعت الظلمة وظهرت الدرج الملتوية الواطئ سقفها، وجد الغرفة طويلة مُقببة مفروشة أرضها بحصير وتحيط بأركانها الحشية والمخاد. وكانت رائحة الرطوبة تطغى على جو الغرفة. دخلا وبعد أن أغلق عمران الباب قال لرفيقه:

- ستكون هنا في أمان. وستحل ضيفًا على أصهاري، وتبقى هنا حتى يتدبر التنظيم أمرك. لن يتفطن لوجودك أحد سوى أم زوجتي التي ستعتني بك، وتأتيك بالأكل. إنها امرأة طيبة ومضيافة، فلا تتحرج منها.

بادره العاتي بالسؤال:

- وتتصور أنه عليَّ أن أبقى سجينًا هنا ليلا نهارًا؟.

أجابه عمران مبتسمًا:

- إذا ما أردت الخروج عليك ألاَّ يتعرَّف عليك البوليس.

وبعد قليل من الصَّمت وهو ينظر إليه مبتسمًا قال:

- سأتدبر لك في الغد ملابس تغير تمامًا من هيئتك. عندما تلبسها ستكون إنسانًا آخر، ولن يتعرَّف عليك أحد.

غادر الغرفة مسرعًا ثم عاد تصحبه امرأة على أبواب الشيخوخة، قدَّمها للعاتي قائلاً:

- أمي زنوخة نسيبتي. اعتبرها أمك، وقد أكدت لي ونحن قادمان إليك أنها مسرورة بضيافتك؛ لأن من عادات الزاوية العناية بالضيوف وعابري السبيل، وينال على ذلك الشيخ سيِّدي الوزان أجرًا عند الله. أليس كذلك أمي زنوخة؟.

قالت المرأة التي لم تتوقف عن تفحص العاتي بصوت هادئ:

- هو ضيفُ سيِّدي لا ضيفي أنا. أنا خادمة سيِّدي. ولن يرضى عني إذا ما قصَّرت في حق ضيوفه. مرحبًا بك يا ولدي، لا تخجل واطلب كل ما ترغب فيه، سنحاول تلبيته لك بقدر الإمكان. بيت الراحة توجد فوق السطح، وبها حنفية، وسآتيك بكل ما تحتاج من مناشف وغطاء. غدًا إن شاء الله سأحضر لك فطور الصباح، وكذلك الغداء والعشاء. اعتبر نفسك ببيتك يا بُني.

ثم سألته إذا ما كان يريد أن يتعشَّى. أعلمها العاتي أنه قد تعشى، وقبَّلها عمران شاكرًا، وقال لها إن العاتي صديق حميم في حاجة إلى الانزواء بعض الأيام. وسلَّم على صديقه وخرج مع نسيبته متمنيًا للعاتي ليلة سعيدة.

قضى ليلة هادئة ومريحة رغم كل همومه. كان لخلو المكان من كل ضجيج، والفراش الأثير، والملاحف النظيفة ذات الرائحة الطيبة، وحسن ضيافة المرأة تأثير كبير عليه، فنام نومًا عميقًا لم ينهض منه إلاَّ عند الصباح لَمّاَ سمع طرقًا على الباب، وعندما فتحه وجد نسيبة صديقه تحمل طبقًا عليه فطوره. وضعته على المائدة وغادرت بسرعة الغرفة. ثم

جاءه بعد قليل عمران يعلمه أن كل معتَقلي حيِّ البُرج قد دوهمت بيوتهم وأُلقي عليهم القبض. وانصرف بسرعة إلى عمله. كان أنيقًا يلبس كسوة داكنة، وقميصًا أبيض، وربطة عنق من النوع الرفيع. بقي العاتي لوحده يفكر في كل ما سيحدث له. لا يمكنه أن يبقى أسير الزاوية زمنًا طويلاً.

عند المساء عاد عمران وهو ما يزال بكسوته الأنيقة. بقي معه زمنًا يتجاذبان أطراف الحديث، ثم انصرف وعاد في الليل حاملاً معه كتبًا للمطالعة، ولباسًا تقليديًا، ونظارات سوداءَ، وكيسًا به لحية وشوارب مزيفة، أوصى العاتي بوضعها إذا ما أراد الخروج. فبهذا اللباس لن يتعرَّف عليه أحد خاصة إذا خرج في الليل. أخذ العاتي يتصفَّح الكتب، كانت كلها بالفرنسية: "البؤساء" لفكتور هيجو، "السيدة بوفاري" لفلوبار، "مجنون إلزا" لأراجون، وبعض روايات توفيق الحكيم ونجيب محفوظ ومجموعة قصص لحسن نصر.
قال له عمران:

- المطالعة تعينك على تمضية الوقت، وتنسيك همومك.

أجابه العاتي:

- لقد قرأت كل هذه الكتب سأحتفظ "بمجنون إلزا" و "ليالي المطر"، لم أقرأهما بعد، أما البقية فيمكنك أخذها.

♦♦♦

وما إن غادر صديقه الغرفة حتى لبس الزِّيّ التقليديّ: جُبة وبُرنسًا وشاشيَّة، ووضع على عينيه النظارات السوداء، وألصق اللحية والشارب على وجهه، وغادر الزاوية متسترًا بظلام الليل حتى وصل إلى أقرب مركز بريد وهتف لحبيبته. كانت هي نفسها على الخط. حالما سمعت صوته قالت بسرعة:

- غدًا في نفس مكان وساعة الأحد.

وقفلت الخط.

عاد أدراجه يجر مرارةً كالعلقم. كان يترقب وصالها بفارغ الصبر، فكانت خيبته كبيرة. ولكن غدًا ليس بالبعيد. انساب بين الشوارع والأزقة حتى وصل إلى الزاوية، وتسلل داخلها دون أن يتفطَّن إليه أحدٌ. صعد الدَّرج الضيقة المظلمة، واندسَّ في الغرفة الرطبة، وبعد أن أشعل النور وأغلق الباب، تمدَّد في فراشه يتصفَّح "مجنون إلزا" حتى ساعة متأخرة من الليل.

وجاء صديقه في الصباح بكسوته الأنيقة يطمئن عليه. وقبل ساعة من الموعد كان قد لبس الزِّيَّ التقليديَّ، وخرج من الزاوية دون أن يجلب انتباه أهلها وزوارها. واندفع يشق الشوارع المكتظة بالمترجلين والسيارات والحافلات حتى ساحة باستور. بقي يرقب عن كثب كل ما يدور في الساحة حتى رآها تغدو وتروح أمام باب معهد باستور. تقدم منها بتأنٍ، وعندما وصل أمامها قال لها بصوتٍ خافتٍ:

- من أين يدخلون المعهد يا بُنيتي؟.

نظرت إليه مليًّا، ثم التفتت يُمنةً ويُسرةً، ومسكت يده ودارت به جهة شارع ألان سفري، وبعد أن مشيا مسافة طويلة همست له:

- لولا صوتك لما تعرفت عليك. إنك حقًا بارع في التضليل!

بعد مسافة من المشي الصامت همست له:

- نأخذ تاكسي تحملنا إلى مكان نكون فيه آمنين.

أوقفا تاكسي، وطلبت من السائق أن يحملهما إلى ضاحية حلق الوادي. وحالما وصلا توجَّها إلى البحر وجلسا على الصخور التي كانت مكدَّسة على الرمال لتوقف زحف البحر نحو المدينة. عادت تصرح له بدهشتها أمام التنكُّر الذي أحسن تقمُّصَه، ثم أعلمته بما وقع بحيِّ البُرج، وبما سيقع للتنظيم حيث يعتزم الحكم اعتقال قيادته وعدد كبير من مناضليه. وقالت إنَّها خائفة حتى على نفسها، فمخالب الذئب تنهش كل من يقع بينها. انتزع من عينيه النظارات السوداء وطفق يتفحصها وكأنه يراها لأول مرة، ثم قال لها:

- لماذا لا تفرين كما فعلت؟.

طمأنته قائلة:

- لا داعي للفرار، فحتى إن ألقوا القبض عليَّ فلن يطول اعتقالي. لن ترضى عائلتي أن أُسجن وأن يُحكم عليَّ. أسرتي من أصحاب الامتيازات، وكما يقول المثل: "لو ألحق عيني أشرمها لكني أخاف على عدمها"

عاد يلحُّ:

- سيعذبونك ولن تقدري على تحمل العذاب.

- لا تشغل بالك بي، المهم ألاَّ تقع بين أيديهم. أكيد أنهم قد انهالوا على المعتقلين تعذيبًا. إنهم يبحثون عن المجموعة التي اغتالت عون أمن الدولة، ويريدون معرفة مَنْ وراء المقالات التي نُشرت في الخارج، والتي تفضح ممارساتهم، والأكيد أن الذين صرَّحوا لي بما لقوه من تعذيب في معتقل نعسان سيدلُّونهم عني وعنك.

قال العاتي داخله: "إذا توقفوا عند تلك الجريمة لهان الأمر". ثم سألها:

- هل توصلوا إلى معرفة من قام باغتيال الجلاد؟.

- يتهمون معتقلي حيِّ البُرج، ويريدون توريط التنظيم في تلك الجريمة.

لم يكن بإمكانه وهو في زيِّه التقليديِّ أن يسرق منها ولو قبلة. كانا يجلسان على الحجارة، ينظران إلى بعضهما البعض بشغف، وكان ذلك كافيًا بأن يطفئ شوقهما. وبعد صمتٍ طويل سألها:

- وهل سأبقى طويلاً مختبئًا؟.

- ترقب حتى يعثروا على مدبِّري عملية الاغتيال. ربما يكون معتقلو حيِّ البُرج أبرياء منها. ولعلَّ معطيات أخرى تحدث. هم الآن يركزون على تنظيمنا، ويتجاهلون الخطر الحقيقي وهو التنظيم اليميني الذي يرغب في الحُكم أكثر منا.

وبعد صمتٍ سألته:

- أين تختبئ؟.

- عند صديق.

- والمكان آمن؟.

- بالطبع.

- إذن ابق هناك حتى إشعار آخر.

وقبل حلول الليل تفرقا.

(٢٣)

تواصلت لقاءاهما كل يوم في أوقات مختلفة طيلة أسبوع. وفي أحد اللقاءات أعلمته أنَّ الشرطة أصدرت بطاقة تفتيش في شأنه، وإنَّه لم يعد بإمكانه مغادرة البلاد. كما أكَّدت له اعتقال أعضاء قيادة التنظيم الذين سيقدَّمون للمحاكمة بتهمة تكوين جمعية غير قانونية، والتحريض على العنف، ونشر أخبار زائفة، والتعامل مع أطراف أجنبية لتقويض النظام. ثم أعلمته أنها ستُرغم على مغادرة البلاد إلى فرنسا؛ حتى لا يقع زجُّها في السجن ومحاكمتها مع بقية أعضاء التنظيم. لكنها قالت له إنَّها إذا ما وافق على مغادرة البلاد فسوف تعينُه على الهروب والالتحاق بها إلى فرنسا.

كان اللقاء يجري في حديقة البلفدير في أحد الأماكن النائية من الحديقة التي لا يعرفها سوى العاتي. كانا يجلسان على العشب، يضمها إليه وهي تروي له كيف تم اعتقال رفاقهم دون أن يحرك الرأي العام ساكنًا. ثم استخلصت:

- كانت مباراة كرة القدم بين الترجي والنجم الساحلي أكثر أهمية من تلك الاعتقالات التي تمت في ظروف منافية لأبسط حقوق الإنسان.

سألها بسذاجة:

- و لم يتحرَّك العمال؟.

أجابته بامتعاض:

- لم يتحرَّك لا العمَّال ولا الطلبة ولا المثقفون.

صمت قليلاً ثم سألها:

- وما أخبار معتَقلي الحَيِّ؟.

- لقد مات أحدهم نتيجة التعذيب. الشرطة تقول إنَّه مصاب بمرض السُكري، ولكن يبدو أنه قضى نحبه تحت التعذيب.

سألها بعصبية:

- هل تعرفين اسمه؟.

- أظنه يُدعى إبراهيم أو إسماعيل لست متأكدة.

قال بصوت متهدِّج:

- إنه إسماعيل الجلاصي، الوحيد الذي كان معتقلاً وهو مصاب بمرض السُكري، فقد أعلمت أمه الشرطة أثناء اعتقاله المرة الأولى أنَّه مريض ويتناول الأدوية.

لقد زعزع هذا الخبر كيانه، فاكفهرَّ وجهه، وبقيَ صامتًا حزينًا، ثم قال:

- كان إسماعيل رجلاً مسالمًا، لم يقم بأي شيء حتى يُقتل. إنَّه أب لبنت صغيرة وعائلته فقيرة جدًا.

التفت إليها يسأل:

- وهل مكَّنوا أهله من دفنه؟.

- لا أعلم. الحادثة أشارت إليها اليوم بعض الجرائد في صفحة داخلية، في ركن صغير لا يلفت أي انتباه، وكأنه كلب صدمته حافلة.

قال وكأنه يحادث نفسه:

- لا بُد أن أعزِّي أهله!

نظرت إليه باستغراب قائلة:

- وتعرِّض نفسك للخطر!

- لقد مات الرجل من أجلي ولا أعزِّي أهله!

- سيتعرَّفون عليك. وسيشون بك ويلقون القبض عليك بسهولة.

- وليكن! لا بُد أن أعزِّي أهله! سآخذ كل الاحتياطات، ولن يتعرَّف علي أحد.

مسكت يده وأخذت تمسح عليها. كان حقًا حزينًا، لم تفلح لمساتها في تهدئة نفسه. ثم أخذت نظراته تحتدُّ وعضلاته تتشنج، وقد شعرت بها وهي تمرغ وجهها على صدره. وعندما سألته إذا ما كان بحوزته جواز سفر صالح للاستعمال، لم يُجبها في الحين. أعادت سؤالها بلطف، فأومأ برأسه أن نعم. قالت له متردِّدةً:

- سوف أتدبَّر لك تذكرة سفر من الجزائر إلى باريس. وسأبحث كيف يمكنك اجتياز الحدود الجزائرية دون خطر.

ثم قبَّلته وهو لا يزال في وجومه وقالت:

- سأسافر في غضون أسبوع إلى باريس. كان ذلك قرار وزير الداخلية أملاه على أمي.

قال لها بصوتٍ خافت:

- نترك البلاد للذئابٍ تنهشها ونفر كالقطط!

أجابته دون تشنج:

- أو نعمِّر السجون. أكثر من ثلاث آلاف سجين يقبعون في زنزانات مُميتة ومع سجناء الحق العام. وبقيَة الشعب مُراقب بالبوليس والحرس والجيش وميليشيات الحزب وغيرها من القوادين. أنت تختبئ، وأنا على عتبة البلاد، وبقيَة الناس نيام تهدهدهم مباريات الكرة، والمسلسلات الوردية.

عادت تضع شفتيها على شفتيه وهو لا يزال في وجومه لا يريد حتى تقبيلها، فهمست في أذنه:

- لست قاتل إسماعيل الجلاصي، لقد قتله الجلاد الذي لا يراعي أي اعتبار للروح البشرية.

لثمت شحمة أذنه، وعادت تهمس وفي صوتها رقة ودلال:

- أنت وديع لطيف شاعري، وهذا العالم لا يعترف إلا بالقوة والجشع. فلنترك هذه البلاد التي لم نفلح في تغيير أهلها حتى يحبّ بعضهم بعضًا، ويتقاسموا خيراتها الوفيرة، ويدفعوا اللصوص المهيمنين عليها. ولنعش في عالم يعترف لنا بحقنا في الوجود ولو من خلال الغربة.

ومع ذلك لم تفلح في تحريك مشاعره، بقي جامدًا في مكانه ينظر إلى العُشب في صمت. جلست على ركبتيه وطوقت جسدها بالبُرنس البُني الذي كان يضعه على كتفيه فتوارى نور النهار بينهما. عادت تهمس برقة:

- تصور أن الدنيا تتقلص حتى تصير بُرنسا يلفنا، يحمي حبنا من متاهات العالم المتشعب.

ثم هوت عليه تُقبله بلهفة لم يعهدها منها من قبل. كانت تلتف على جسده، تقبل شفتيه، تلمس خديه حتى ثارت رغبته، وانغمسا معًا يرتويان من ينبوع اللذة، ناسيًا آلامه لفقدان صديقه. وطال عناقهما وقد توارت الدنيا من ذهنهما. أصبحت بحرًا من الحواس الملتهبة، لذة تُسكب فتسري في عروقهما تنعشهما، دفء يغمرهما ويجلو عنهما الخوف والحيرة وكل منغصات الدنيا.

وعندما شعرا بالحاجة إلى الإطلال على المحيط حولهما، ورفعا البرنس الذي كان يعزلهما، لاحظا تغير لون السماء، وزحف الليل عليها، فلملما شملهما وتركا المكان بحسرة، وانطلقا إلى المدينة. وقبل أن يفترقا، عادت تؤكد عليه أن لا يعزِّي أهل إسماعيل، وأن يجد وسيلة للحصول على جواز سفره، وأن يتهيأ لسفرة طويلة محفوفة بالمخاطر حتى عاصمة الجزائر. لكنه كان مصممًا على أن يعزِّي أهل إسماعيل مهما كان الثمن. وعند الباب الثاني لحديقة البلفدير ودَّعها، وبقيَ يترقب حتى توارت في خضم المارَّة.

◆◆◆

وبعد فترة من التفكير عاد إلى حديقة البلفيدير وتوجه نحو ملعب كرة القدم، وقد أخذت تتضح عنده خطة انتقام ثانية. عاد إليه تشنجه، وانبرى يلعن داخله المحقق وينعته بكل النعوت، وهو يتسلق الطريق المؤدية إلى الربوة المطلة على أحياء المنزه الجديدة. ثم انحدر، وشق الطريق السيارة التي تحزم العاصمة، واندفع يشق الأحياء الجميلة. كان الليل قد بسط سلطانه على وجه البسيطة، وكانت الحركة على الطريق السيارة مكتظة، وفوانيس

السيارات تتعاقب بيضاء وحمراء تؤجج شريط الإسفلت. لكن العاتي لم يكن يحس بكل تلك الحركة. كان يشعر بالدنيا وكأنها المقبرة تسيطر عليها رائحة الموت. وكانت صورة إسماعيل ماثلة في مخيلته. كم كان طيبًا، يهوَى لعب الورق، والمزاح، والليالي الحمراء. كان همه الوحيد، كل ليلة أحد، أن يشرب حتى يرى الديك حمارًا. وعندما يعود إلى الحي سكرانًا، يلقاه جمع من الشبان، ويلتفون حوله يراقصونه وهو يترنح حتى يسقط على الأرض، يحملونه على الأعناق ويوصلونه إلى بيته. وكان يخاف رجال الشرطة، كلما رأى أحدهم في الطريق وهو سكران إلا وأُغمي عليه. لقد قتلوه وهو بريء من كل جرم!

صرَّ أضراسه وعاد يلعن المحقق ويتوعّده بشر انتقام. عندما وصل إقامة البساتين، وقف يتثبت المكان. كان مُسيجًا بالأشجار القصيرة المتكاثفة. وعندما تفطَّن إلى فجوة بين الأشجار، خلع بُرنسه ورمى به في ركن مظلم، ثم اندفع إلى الساحة التي تطل عليها العمارات. بقي يتثبت أرقام العمارات حتى عثر على رقم ٤ منحوتًا فوق باب عريض. تقدَّم نحوه بتأنٍ وثباتٍ، دخل العمارة، وأشعل النور وكأنه متعودٌ على المكان أو ساكنٌ من سكانها. صعد حتى الطابق الثالث وتأكد من الشقة رقم ٢. لم تكن بها أية حركة. ترقب أمامها فترة من الزمن، ثم نزل وتوجه إلى مدخل الإقامة حيث وجد الحارس، سأله إن كان الفرجاني بشقته، فأجابه أن من عاداته العودة متأخرًا. حيّا الحارس وانصرف معلنًا أنه قريبه وسيعود لزيارته بعد قليل، وانصرف وقد تأكد أن المعلومات التي أدلى بها الجلاد كانت دقيقة.

◆◆◆

ثم عاد أدراجه إلى حديقة البلفيدير، بعد أن التقط بُرنسه، والتف به، ولم يعد يظهر منه سوى وجهه المغطى بلحية كثيفة وشارب غليظ. شق المدينة حتى وصل حيّ البُرج. لم يكن الحي غريبًا عنه، فهو يعرف كل مسالكه وكل خباياه. ويعرف رجاله ونساءه،

ويعرف من يثق به ومن يجب الحيطة منه. كان مسعاه واضحًا، وكانت وجهته دقيقة. عندما طرق الباب وسمع الرد، دفعه بنطرة فانفتح، ولما رأته المرأة، أسرع يقول لها بصوتٍ خافت:

- لا تخافي. أنا العاتي.

ولّما همّت بالكلام، أومأ لها بالصّمت، فلم تحرّك ساكنًا. توجه إلى غرفة مسدولٌ على بابها قطعة من القماش فقدت لونها، وما إن دخل حتى لحقت به المرأة، وظلّت تنظر إليه مستغربة. سألها بصوتٍ خافتٍ:

- صحيح أنهم قتلوا إسماعيل؟.

قالت هامسة:

- مسكين، جاءوا بجثّته الليلة، وقد منعوا الناس من الاقتراب من بيته، وتوعدوهم بالسلاح إذا ما خالفوا.

- والمعزّون؟.

- قالوا إنّه عليهم الحضور غدًا في المقبرة بعد صلاة العصر ليعزّوا أهله بعد دفنه.

- أين فرحات؟.

- لم يعد بعد من المقهى، وهي بدورها محاصرة برجال الشرطة شاهرين أسلحتهم.

بعد فترة من التفكير، قال لها:

- ستذهبين حالاً إلى بيتي، تتصلين بأمي وتطلبين منها أن تسلمك جواز سفري. قولي لها إنّه يوجد في صندوق من الخشب قديم ورثته عن جدّها، أتى به من طرابلس. وستفهم كل شيء. أسرعي ولا تتباطئي.

وضعت المرأة سفساري على رأسها وخرجت تاركة العاتي في غرفتها. وبعد فترة من الزمن عادت، ومدّت له الجواز، وقالت أن أمه مشغولة البال في أمره. أجابها بحدّةٍ:

- أعلميها أنني سأسافر خارج البلاد، وسوف أبعث لها بكل ما يلزم في القريب العاجل.

وهو يغادر البيت قال لها:

- لم تريني..! ولا شيء حدث أفهمت؟.

أومأت له برأسها أن نعم. فانصرف.

كانت المرأة ابنة عمه، يعتبرها أخته، ويعرفها جيدًا. خرج مطمئنًا أنها لن تفشي سره أبدًا. عاد إلى الزاوية، وحالما دخل الغرفة وجد فوق المائدة العشاء. التهمه، واستلقى على فراشه يطالع "ليالي المطر". ولم ينم إلا عندما التهم كل قصصها التي أبحرت به في عالم الرطوبة والقلق.

وعند صلاة العصر كان أمام باب المقبرة يترقب موكب الجنازة، وعند وصوله كانت تحيط به كوكبة من رجال الأمن مدججين بالسلاح. حضر مراسم الدفن وعزَّى أهل الميت دون أن يتفطن لهويته أحد. كان الصَّمت يخيم على الجميع، وكانت الوجوه مكفهرة، والأفئدة تنحرها الغُصَّة.

لكن أحدًا لم يقم بأية حركة.

غادر المقبرة مسرعًا، وعاد إلى مخبئه، يترقب عمران. ولما حضر، بادره بالسؤال:

- هل بإمكانك أن تتحصل لي من الحداد على شك المفاتيح التي يستعملها ليخلع بيوت الذين فقدوا مفاتيحهم؟.

- وما حاجتك بها؟.

- لي بها حاجة ماسة لا أريد إطلاعك عليها قبل نجاح العملية.

- ولكن الحداد لا يفرِّط في مفاتيحه بسهولة.

- بالمال تُحل كل المهام الصعبة.

- ربما لا يكون هذا ممكنًا إلاَّ يوم الأحد؛ عندما يخلد الحداد للراحة.

- فليكن. إني أعوِّل عليك.

وما إن تحصل على شك المفاتيح حتى غيَّر زيَّهُ وتحول إلى حداد، وقد وضع على رأسه باروكة رمادية حوَّلته إلى شيخ. ثم غادر الزاوية إلى إقامة البساتين. وتسلل إلى العمارة رقم ٤ ، ثم صعد إلى الطابق الثالث وبقيَ يرقب الشقة رقم ٢ ، حتى خرج منها صاحبها. وهو ينزل الدرج سأله العاتي إذا ما كان يعرف شخصًا يُدعى زكريا، وعندما أجابه بالنفي دون أن يلتفت إليه، تأكد العاتي من الصَّوت وأنه المحقق. ترقب فترة من

الزمن حتى همدت الحركة، ثم بدأ يروّم المفاتيح حتى دار أحدها في القفل، وانفتح له الباب. أسرع بإغلاقه، ثم نظر في الدرج، ولما تأكد من خلوِّها، انطلق بسرعة خارج العمارة، وعاد إلى المدينة. وبعد بحث مضنٍ وجد كُشكًا يصنع له مفتاحًا، إذ كانت كل المحلات مغلقة يوم الأحد.

عاد إلى حي البساتين يوم الاثنين عند المساء، وبقيَ يترقب وصول المحقق. وعند الساعة التاسعة ليلاً وصل، وتأكد من دخوله شقته عندما اشتعلت أضواؤها. ثم عاد يوم الثلاثاء وكان المحقق في نفس موعده. وانجلت له الخطة، و لم يبق له سوى تنفيذها.

(٢٤)

ومن الغد كان كل شيء جاهزًا لتنفيذ خطته. ترقب المساء حتى غادره صديقه عمران، ثم وضع لباسًا داكنًا، وخرج إلى المدينة العصرية؛ حيث دخل إلى أول قاعة سينما اعترضته.

قبل نهاية الشريط تسلل خارج قاعة السينما تاركًا صور الشريط تتدفق وراءه على الشاشة، شادة إليها أنظار المتفرجين.

خرج من عتم القاعة، وارتمى في خضم المارَّة المزدحمين داخل الشارع الكبير المتأجج أضواءً حادة، تنبعث من الواجهات الكثيرة المنتشرة على جانبيه.

مشى خطوات جهة الشمال، ثم انعرج على يمينه، وشق الشارع العريض المزدان أشجارًا عاتية، تنبعث منها أهازيج العصافير. وانزعج لسماع ذلك الهدير من الأصوات الحادة المسترسلة كامل الليل. شعر وكأن ذلك التغريد المتواصل ينعي المدينة المتأهبة للسبات؛ لكن سرعان ما لفه شارع باريس بأنواره المتدفقة من كل الجهات. أحس بشيء من الراحة لما ابتعد عن مقهى تونس؛ كان يخشى أن يراه أحد في تلك الساعة المتأخرة من الليل؛ فالتف في معطفه الداكن، صارًّا كتفيه وكأنه يريد تقليص جسده؛ ثم أعاد ربط بخنقه على رقبته، واتكأ على عمود الإنارة في مكان كان خالٍ من المارَّة، واستلَّ من جيب معطفه قفازًا صوفيًا، وانبرى يمرِّره بين إصبعيه ببطء وكأنه يترقب وصول أحد. نظر إلى حذائه المطاطي الأسود ثم التفت يُمنةً ويُسرةً، واندفع يسير بسرعة وكأنه يعدو، غير مبالٍ بالنسيم الرطب البارد المتهاطل على المدينة كالرذاذ في تلك الليلة الشتوية الباردة.

كان العاتي ينساب على الرصيف بخطًى ثابتة سريعة وهو ينظر إلى الشارع يستقيم أمامه، تحفُّ به العمارات على جانبيه حتى وصل إلى ساحة البساج. توقف أمام مستودع مظلم، فتملكه شعور بالضيق لرؤية الأرض الوسخة ملطخة ببقايا زيوت محروقة، تلمع تحت الإنارة الخافتة المنبعثة من فوانيس الشارع المعلقة في الفضاء. ولما رفع رأسه فاجأه منظر حديقة ثامر الجميلة تطل عليه من خلال القضبان الحديديَّة العاتية وكأنها تدعوه إلى نزهة بين الأعشاب والأزهار والأشجار المستسلمة للسُبات.

بقيَ متردِّدًا لحظات، ثم توجه إلى شارع الحرية الذي كانت إنارته ضئيلة، وكل حوانيته مقفلة، مسدلة عليها أسترة حديدية سوداء. وقبل أن يلج الشارع السابح في شبه الظلمة، التفت إلى شارع باريس، فظهر له كالزقاق، تقف في وسطه العمارات تسده. لم يعد بمقدوره أن يتراجع ويعدل عن تنفيذ الخطة. فارتمى في شارع الحرية شبه المظلم؛ واكتشف فجأة أنه افتقد ظله، كان يؤنسه في سعيه المضني بين حنايا المدينة المستسلمة لليل. لم تكن فوانيس الإضاءة الملطخة بالغبار، والتي ربما لم تنظف منذ أمدٍ طويل، قادرةً على مصارعة الظلام الحالك المهيمن على شارع الحرية منذ أن أُغلقت الحانات ولفظت زبائنها يترنحون بين حنايا المدينة، تفور في أدمغتهم كحول البيرة الذهبية. كان الشارع قفرًا ساكنًا، حتى السيارات توقفت عن عبوره. نظر في ساعته: منتصف الليل، أربعة أصفار تتراقص على لوحة الساعة. حثَّ الخُطى؛ ما زالت الطريق طويلة وشارع الحرية كالسرداب لا تظهر نهايته.

تحسس الخنجر الثقيل داخل جيب معطفه وقال في نفسه: "ستكون نهايته... سيسيلُ دمُه كما أسال دم إسماعيل... لن يفلت من العقاب... وإذا لم أجده بالشقة؟...". لم يخطر بباله هذا السؤال إلا في هذه اللحظة فارتبك. كان الخنجر بين أصابعه الملفوفة في القفاز. تذكر كيف اشترى ذلك الخنجر من عند بحار إغريقي تعرَّف عليه في حانة. كان الخنجر لا يفارقه منذ أن غادر بيته هربًا من ملاحقة رجال الأمن". هذا الوغد عذَّبني، وعذَّب مئات من المعتقلين... وعذَّب المسكين إسماعيل حتى الموت..".

عند مفترق شارع بارتلو التفت إلى الوراء؛ ففاجأه جامع الفتح يشع نورًا. تضاعف إحساسه بالعزلة والطريق ما زالت طويلة، و لم يعترضه أحد منذ ولج شارع الحرية. كان يستعجل نهاية هذا الشارع؛ ملَّه، وملَّ حوانيته المعتمة. لا يقطن هنا سوى الأجانب، وكلهم نيام. وتوقفت حركة الحافلات وهيمن السكون. يتنقل في المدينة وكأنه الساكن الوحيد الذي بقيَ على قيد الحياة. انقرضت الحركة، و لم يبق سواه القادر على تحريك قدميه ومواجهة الليل، يشق النسيم الرطب غير مبالٍ، لا ينشد سوى نهاية شارع الحرية.

"لماذا يسمونه بالحرية وهو الذي يشبه السجن بسكونه، وقلة إنارته، وضيق أرصفته.؟". ولكنه واصل سعيه الحثيث إلى هدفه المنشود.. "لو لم أعثر عليه داخل الشقة، لعدت إليه ثانية... لن ينجو من الموت..". ضغط على الخنجر بكل قوة وصرَّ أضراسه، والتفت يُمنةً ويُسرةً باحثًا عن ظله؛ ضاع في عتمة شارع الحرية. ولَّما عاد ينظر إلى الوراء بهرته من جديد أنوار جامع الفتح تلتهب أشعة تتصاعد إلى عنان السماء، مكونة غمامة من الكويرات المتلاطمة. لكنه سرعان ما أعاد تماسك نفسه التي خلخلتها صورة الصراع، الذي ربما ينساق إليه لو وجد الرجل يقظانَ لم ينم بعد.

◆◆◆

عندما أنهى شارع يوغرطة تنفس الصعداء. توقف قليلاً، وقال في نفسه: "ما أطول هذه الشوارع!" ثم استجمع كل قواه، واندفع إلى أحياء المتزه الراقية. وما إن وصل إلى حي البساتين حتى توقف من جديد. فقد تملكه خوف شديد لم يقدر على السيطرة عليه. أخذ قلبه يخفق بشدة، ووجد نفسه يرتجف لأول مرة. لكنه عضَّ على شفتيه، وبقيَ دون حراك ردهة من الزمن. انتزع القفاز، وأدخل يده في جيبه يبحث عن المفتاح. ولما وجده اندفع إلى سياج الأشجار يتخطاه بخفة، وانطلق إلى العمارة رقم ٤ يتسرب إليها كالقط دون أن يُحدث أي صوت. صعد الدَّرج دون أن يفتح النور الكهربائي حتى وصل إلى الطابق الثالث، وهو يجرُّ رجليه على الدرجات، ممسكًا بالدربز بيدٍ، ومتحسسًا المفتاح باليد الأخرى. عندما تأكد من وجوده بالطابق الثالث، انبرى يتحسس الجدران ويعد

الأبواب حتى وصل باب الشقة التي كان يقصدها. توقف لحظة يسترجع أنفاسه، ثم انحنى على ثقب قفل الباب ونظر منه مليًّا، وتأكد أن أنوار الشقة منطفئة. أخذ المفتاح وشرع في إدخاله في القفل بكل عناية متحاشيًا إحداث أي صوت. وحتى عندما أدار المفتاح في القفل كانت حركاته دقيقة وبطيئة، ولم يحدث أي صوت يمكنه أن يوقظ ساكن الشقة. وبعد أن دار المفتاح مرَّتين ونصف، انفرج الباب، فدفعه بلطف، وانسلَّ داخل الغرفة.

كتم أنفاسه بُرهة من الزمن، وبقيَ يتأمل حتى تعوَّدت عيناه على المكان. كانت مدفأة نفطية كبيرة تتربع نهاية الممر، تدفع من وراء المنفذ الزجاجي لهيب نار تتراقص ألسنته، زرقاء حمراء، تنشر الدفء في هدوء وطمأنينة كأنفاس الحياة.

وبعد تردُّد طويل اتجه بكل حذر نحو باب غرفة كان مفتوحًا. ورغم قصر المسافة التي تفصله عن الغرفة، فقد كانت الطريق صعبة شاقة. كان دليله الوحيد نور المدفأة الخافت. فكان يدقق في كل حركاته، ويتحاشى كل اصطدام، ويترصد كل صوت، متمسكًا بقبضة الخنجر، مستعدًا لكل طارئ. عندما وصل إلى الغرفة بقي يتفحصها بدقة: كانت غرفة نوم. لاحظ السرير ولكنه كان فارغًا، والخزانة موصدة، والنافذة لم يكن الستار مسدولاً عليها، فكان نور الشارع يتسلل إليها خافتًا.

ارتبك وبقيَ واجمًا لا يعرف ما سيفعل. أيكون المحقق خارج الشقة؟. ربما يكون نائما في غرفة ثانية؟. التفت إلى الممر فرأى بابًا آخرَ مغلقًا. بعد فترة من التردُّد اتجه إليه بنفس الحذر، وفتح الباب، فاعترضته رائحة الطعام، عاد يغلق الباب، ووقف ينظر في كل الاتجاهات. توجه إلى باب الخروج، ولما أدركه، فاجأه الصالون منتشرة فيه الأرائك. بعد أن تفحصه بكل دقة دون أن يغادر مكانه، فتح الباب بحذر وأعاد غلقه بالمفتاح، وانبرى ينزل الدرج في الظلام حتى أدرك باب العمارة. قبل أن يخرج إلى الفضاء الرحب، نظر في كل الاتجاهات ثم اندفع خارج العمارة، وقفز إلى ما وراء السياج المشجر. ولم يتوقف عن السير السريع إلا عندما وصل إلى الطريق العريض. توقف تحت شجرة عظيمة، وأشعل سيجارة، وبعد أن نفث الدخان كثيفًا، قال في نفسه: "لن يفلت مني سأعود ثانية... وأراقب وصوله... وأريح من وجوده الدنيا..". وعاد يلف الشوارع كالظل.

(٢٥)

عندما التقى بوردة في مساء يوم الخميس لم يقل لها في البداية شيئًا عما فعله البارحة. التقيا كالمعتاد أمام معهد باستور، وتوجها إلى حديقة البلفيدير، ولكن قبل أن يشقا الشارع العريض طلبت منه أن يترقبها عند شارع يوغرطة، وعادت أدراجها إلى شارع سافاري. وبينما هو يترقب في قلق في شارع يوغرطة ينظر إلى الحديقة، ويتذكر أنه كان هنا الليلة الماضية، لكن في وضع آخر، توقفت أمامه سيارة مرسيدس بيضاء، وسمع منبهها يدعوه، التفت نحوها، فانفتح الباب، وبعد تردُّد تقدم من السيارة، وصعد إليها مستغربًا وجود وردة أمام المقود. قالت له إنَّها استعارتها من أبيها، نظرًا لملاحقة البوليس لها. ثم اندفعت بهما السيارة إلى خارج المدينة.

عندما سألها إلى أي وجهة تأخذه، أعلنت:

- ستكون مفاجأة. اصبر قليلاً وسترى!

بعد أن صعدت شارع يوغرطة إلى آخره، انحدرت إلى الطريق ومنها إلى مدينة أريانة، وهو في استغرابه لم يتجرأ على سؤالها من جديد. وما إن غادرت مدينة أريانة واتجهت في طريق سكرة حتى عيل صبره وعاد يسأل:

- ما زالت الطريق طويلة؟.

لم تجبه. انعرجت إلى طرق ضيقة، وبعد بضع أمتار توقفت أمام باب فيلا فخمة لا يُرى منها سوى حديقتها الشاسعة. نزلت وطلبت منه أن يتبعها، بقيَ متردِّدًا عندما فتحت الباب تطلب منه بإلحاح النزول، وهي تقول له:

- لا تخشَ شيئًا! هذا بيت عمَّتي، وهي متغيبة لن نجد هنا سوى ابنتها ولن تراها.

دخل متردِّدًا، مسكته من يده وجرَّته وراءها حتى أدخلته الفيلاَّ الفخمة، وصعدت به درجًا، وهو في حيرة ينظر في كل الاتجاهات. عندما أغلقت وراءه الغرفة، التفتت إليه واحتضنته مقبلة. ثم همست له:

- سنختلي إلى بعضنا دون رقيب.

كان متضايقًا من المكان رغم جمال الغرفة المشرفة على حديقة جميلة وشاسعة. لم تحدثه من قبل عن هذا المكان، ثم إنه لا يدري ما كانت تحضِّر له من مفاجأة. كان على موعد معها، فقد قررا أن يلتقيا كل يوم عند الظهيرة في ساحة باستور ليتبادلا الأخبار ويترويا في أحد أركان حديقة البلفيدير يتبادلان القبل. اقتربت منه تقبله بجموح. ففاجأه تصرفها، وبقيَ مستسلمًا إلى إرادتها وهي تنهل منه بشغف. ولما أحسَّت باضطرابه، أجلسته على أريكة، وقالت له:

- ماذا تريد أن تشرب؟.

مسكها من يدها قبل أن تغادر الغرفة، وقال لها:

- لست مطمئنًا لهذا المكان. نكون أسعد في الهواء الطلق.

جلست على ركبتيه وقالت له بكل جرأة:

- أريد السفر في بحر الحب إلى الأعماق. لقد مللت كبت شهوتي.

ودون أن تسمع ردَّه، غادرت الغرفة. وبعد لحظة عادت تحمل بين يديها طبقًا عليه عصير الغلال وبعض الحلوى والفواكه. وجلست قربه.

رغم شغفه بها لم يكن اليوم في صفوة عقله. فصورة المحقق الذي قرَّر أن يغتاله ما زالت تهيمن على مداركه. لم يكن يرغب في شيء سوى الانتقام لإسماعيل. كان لفشله في المرة الأولى تأثير على نفسه. بقي صامتًا لا يحرك ساكنًا. وبعد بُرهة من الوجوم سألها متردِّدًا:

- وما هي المفاجأة التي حدثتني عنها؟.

أغمدت وجهها في صدره وقالت:

- سأمنحك نفسي!

◆◆◆

لم يحرك ساكنًا. بقيَ في وجومه. لاحظت سهوه فسألته:

- ما لك حبيبي متغيِّر، أحدث شيء ؟.

لم يجب في الحين، لكنه بعد فترة من الصَّمت وقد عادت مراحل خطته تستولي على تفكيره، قال بصوت متهدج:

- لا بُد أن أقتله!

اكفهرَّ وجهها وسألت:

- من؟.

- ذلك الوغد المحقق الذي عذبني وعذب الكثيرين ولا يزال يعذبهم، وهو الذي قتل إسماعيل. لا بُد أن أريح البشرية من شرِّه!

أخذت وجهه بين يديها، ونظرت في عينيه مليًّا، واقتنعت أنه صادق في أقواله. عانقته فترة، ثم عادت تتحدث بصوتٍ خافت:

- لم أكن أتصوَّر أن أراك على هذا التصميم. أنا أحببتك لأنك رقيق، لطيف، شاعري. وها أنت تُظهر لي وجهًا آخر.

صمتت لحظة ثم سألت:

- وكيف ستقتله؟.

أخرج الخنجر الأمريكي من جيبه، وضغط على زرٍّ فاندفعت الشفرة تلمع. ثم أراها المفتاح وقال:

- لقد كنت في شقته الليلة الماضية و لم أجده هناك! لكني سأرصده هذه الليلة وسيستريح إسماعيل في قبره!

لم تصدِّق ما سمعت، لكنها قالت بفتور:

- ويبدأ عذاب ضميرك.

أجاب بحِدَّةٍ:

- البادي أظلم.

اقتربت منه أكثر، ومسكت يده بين يديها تمسح عليها، نظرت إليه مليًّا، ثم قالت:

- لقد انتهى يا العاتي زمن الثأر والانتقام، نحن نعيش داخل مجتمع مدني له أسس حضارية رغم تعسف الحكام. ونحن نناضل من أجل أن تحلَّ العدالة بين الناس، وأن يسودَ التآخي والمحبة، وأن يجد الناس في العدالة الحق والإنصاف...

قاطعها بحدة:

- أمن العدل أن يُقتل الناس في مراكز الأمن؟.

صمت لحظة ثم أضاف:

- أمن العدل أن يتجوَّل المجرمون في أمانٍ يحميهم جهاز الدولة؟.

أجابته بهدوء:

- لقد اخترنا أن نناضل لتسود قيم جديدة في مجتمع مهترئ يعيش بين عقلية القرون الوسطى والقرن العشرين. إننا أصحاب رسالة يا العاتي ولسنا عصابة من فرسان القرون الوسطى.

قال بغضب:

- ودم إسماعيل يذهب هدرًا؟.

أسرعت بالإجابة:

- سأقوم أنا شخصيًا حالما أصل باريس بكل ما أستطيعه لنشر خبر اغتياله تحت التعذيب في كل أنحاء الدنيا. وسيكون لذلك نتيجة تفوق انتقامك من موظف مأمور، ربما لا بالقتل بل بالتعذيب، حتى يتحصل على المعلومة بأسرع ما يمكن.

ثم دنت منه وقبَّلته، ولمَّا شعرت بتشنجه، وفهمت أنه مصر على الانتقام، انفجرت بالبكاء. اشتدت اضطرابات نفسه. كان الانتقام بالنسبة إليه خلاصًا من أوجاعٍ كان يحس بها في كامل جسده. ولكن رقة هذه الفتاة تطوقه وتجعله يتمزق بين قوَّتين متضاربتين. بللته دموعها فرفع نحوها رأسه، ونظر إليها مليًّا، فرقَّ قلبه. وبعد فترة من الصَّمت، همست له بصوت مرتعش:

- اعطني الخنجر والمفتاح، وعِدني أنك سوف تعدل عن مشروع ثأرك.

♦♦♦

لم يحرك ساكنًا، بقي في سهوه وقد خلخل حديثها كل قناعته. نهضت وتركته متوجهة إلى خارج الغرفة، ثم عادت وقد تبدلت أسارير وجهها. انجلى الحزن من عينيها، وأسدلت على كتفيها شعرها الطويل الذي كانت تعقفه على رأسها، وفاح منها عطر ذكي أنعش العاتي، رغم كل اضطرابات نفسه. اقتربت منه، وانتزعت منه معطفه ووضعته على المعلاق. وعادت تجلس على ركبتيه وتلامس صدره برقة. مسكت يده التي ما زالت تحتفظ بالخنجر الأمريكي وسلَّته منه. ظلَّت تتفحصه باهتمام، ثم سألت:

- من أين أتيت به:

- اشتريته من عند بحار إغريقي تعرفت عليه في أحد الحانات بالعاصمة.

- أين المفتاح؟.

مدَّه لها. فعادت تسأل:

- وكيف تحصلت عليه؟.

- قصَّة طويلة. لقد قضيت أكثر من أسبوع في تحضير خطتي، وتأتين أنت في لحظات لتبعثريها ببعض الكلمات!

قالت بدلال:

- لا بالكلام فحسب، وبالفعل أيضًا.

وعادت تعانقه وتقبِّله بجموح. بقي في تردُّده، فنفسه لم تزل مضطربة. نهضت وخلعت سروال الدجين الذي كان يغطي فتنتها، وعادت تجلس على ركبتيه. ولما وضع يديه على فخذيها، انطفأت اضطرابات نفسه كالجمرة في الماء، واكتنفت الحرارة جسده. وضعت خدها على خده وهمست له وهو يلامس جسدها الملتهب:

- الحب ألذُّ وأمتع ما في الوجود!

لانت شكيمته فهمس لها:
- وأنت ألذُّ امرأة في الدنيا!

توقفت عن عناقه، وظلَّت تنظر إليه وقد خلبتها عيناه السوداوان تشعان ببريق الشهوة، وشفتاه القرمزيتان حُبلى بالحب. قالت له:
- ألا تحس بحرارة الغرفة؟.

خلع سترته وصدارته، واقتربت منه وانتزعت القميص وعرّت صدره. ثم عرَّت صدرها والتحمت به، والتحم بها. وشعرت بحرارة جسده وهو يلفها، وانتقلا إلى عالم بدون كتلة، شعرا وكأنهما يرفرفان في السماء تلفهما غمامة من اللذة. وكانت نغمة رقيقة تصاحب تنقلها عبر حنايا جسده ترتل هامسة: " أحبك أحبك أحبك" زادت في لهيب شهوته، لم يكن وضعه مريحًا، فهمس لها راجيًا:
- ما رأيك لو نستلقي على السرير؟.

قالت مرتجفة:
- لم نأت إلى هنا إلا من أجل ذلك.

عندما وقفت أمامه وقد خلعت كل ملابسها، شعر بسعادة عارمة. هذه أول مرة في حياته تتعرَّى أمامه امرأة. وربما تكون هذه المرأة العارية الأولى في حياته. رأى صورًا خليعة، وحتى أفلامًا شبقية، ولكن عُري هذة الفتاة طار بعقله. بقي ينظر إليها بشغف ثم اقترب منها وضمها إليه، وشعر بحرارة جسدها. قالت له بصوتٍ خافت:
- لا تضحك مني. رغم تحرُّري فإني ما زلت بكرًا.

لم يقل شيئًا. كان لالتحام جسدها به فعل المخدر، فلم يعد يحس بالعالم. لم يفكر في الكلام الذي قالته وكأنه لا يخصُّه. ولكن بعد لحظة تفطن إليه فأسرع يقول:
- لن أمسَّك بسوء...

قاطعته هامسة وهي تضمه إليها:
- إني أحبك إلى حد الجنون! وإلى متى سأبقى طفلة؟.

رفع رأسه إليها، ونظر في عينيها مليًّا ثم قال بكل عفوية:

- لماذا لا نتزوج؟.

أغمدت رأسها في صدره، وهمست:

- ألم أقل لك إنَّ الحب شيءٌ والزواج شيءٌ آخر؟.

عاد ينظر إليها بنشوة سائلاً:

- وما الفرق؟.

صمتت قليلاً ثم أجابت:

- الزواج مشروع اجتماعي، والحب تحرر من المجتمع.

كان كلامها مثل الطلاسم فأسرع يستفسر:

- لم أفهم!

ضمَّته إليها وهمست:

- لا عليك. لا تنغِّص حبنا بالتفكير في المستقبل. لكن قبل أن نبحر بعيدًا، عدني أن تتخلى تمامًا عن فكرة اغتيال المحقق، لا يمكنني أن أسلم نفسي لرجل ينوي قتل إنسان.

لقد نسي تمامًا خطته، وعزمه على الانتقام لإسماعيل، وبعد برهة من الصَّمت قال لها:

- لقد سلمتك أدوات الجريمة، وها أنا أسلمك نفسي افعلي بي ما شئت.

عادت تصرُّ:

- أريده وعدًا صريحًا!

قال وهو يضمها إليه:

- باسم حبنا لن أقتل أي إنسان، ولو أن ذلك الرهط ليس جديرًا بأن ينتمي إلى الإنسانية.

وأبحرا إلى أعماق اللذة. وانتشيا إلى حدٍّ نسيا الدنيا. وارتويا من ينبوعٍ عذبٍ ملأهما سعادة خالصة. وتطهر العاتي من عفونة دنيا السياسة التي لا تعترف إلا بتطاحن الإرهاب بالإرهاب. ولمَّا رجعا إلى شاطئ الواقع، سألها متلهفًا:

- متى سنلتقي؟.

قالت له بجدية:

- غدًا سأطير إلى باريس. لن نلتقي إلا بعد زمن لا أريده أن يكون طويلاً.

ارتبك وسألها:

- أتتركينني لوحدي؟.

علت ضحكتها. فعاد يقول:

- لن أقوى على فراقك!

قالت وهي ما زالت تضحك:

- أعرفك صبورًا...

قاطعها قائلاً:

- لقد اكتشفت معك طعم الحياة.

توقفت عن الضحك وقالت بجدية:

- ولكي نلتقي في أقرب الأوقات، عليك تنفيذ الخطة بكل دقة

وغادرا الفيلاَّ الفخمة دون أن يلتقيا بأحد. عادت به إلى ساحة باستور، وقبل أن يترل من السيارة، عادت تؤكد عليه بأن يسافر في أقرب الأوقات، وألاَّ يُعلم أحدًا بسفره، ثم سلَّمته حقيبة صغيرة. وبعد أن تعانقا طويلاً، تفارقا وكلهما أمل في أن يلتقيا في مدينة النور.

(٢٦)

عاد إلى زاوية سيِّدي الوزان، وترقب عمران. كانت سعادته كبيرة، لكنها لم تكتمل. وكلّما اشتغل فكره بالمستقبل صدَّه واستحضر تلك اللحظات من السعادة الخالصة. سعادة خارج المكان وخارج الزمان وخارج حتى الحاجة. شعر وكأنَّ جسده ارتوى من ينبوع اللذة، وتطهر من دنس الزمن. وما هي السعادة سوى تلك اللحظات التي نقضيها في تناغم مع الآخر، ومع الزمان والمكان، والتي تنسينا رتابة الحياة ومنغصاتها. قال بصوت مسموع: تلك هي الجنة.

غير أنَّ جحيم الواقع كان ينتظره بكل همومه. أخرج من جيبه الحقيبة الصغيرة التي مدَّته بها وردة. وقبل أن يفتحها تنشق عبقها، كانت تحمل نفس العطر الذي طغى على حواسه وهو يمرغ وجهه على جسد حبيبته. فتحها وأخرج محتوياتها. جلبت انتباهه الأوراق النقدية الفرنسية وكانت بنية اللون رهيفة، نظيفة تلمع تحت نور الفانوس. عدَّها: عشرون ورقة من صنف المائة فرنك. قال في نفسه: لا بُد أن أخبئها داخل جسدي إن لزم الأمر. تصفَّح ورقة بيضاء كتبت عليها ثلاثة أرقام أمام كل رقم اسم. جلب انتباهه الاسم الأخير: مارك تيبو. ما هي علاقته بوردة؟. تمتم داخله. ظلَّ يفكر، ثم انتبه أنَّ عليه أن يحفظ على ظهر قلب تلك الأسماء، وألاَّ يعثر على هذه الورقة أحدٌ. ظلَّ يتمتم: "بلقاسم العرباوي"، "عبد القادر مزيان"، "مارك تيبو".

طُرق الباب فجمع الأوراق وأخفاها مع الحقيبة. دخل عمران فقبله بترحاب كبير. قال له دون مقدمات:

- سأرحل في الصباح الباكر.

- إلى أين تذهب والدنيا تحاصرك؟.

- أرض الله واسعة.

- هل لديك خطّة؟.

- لا تشغل بالك.

- متى سترحل؟.

- غدًا في الصباح الباكر.

- وإلى أي مكان.

صمت لحظة ثم أجاب:

- إلى الجبل.

فهم عمران أنَّ صديقه يريد التكتم عن المكان. ظلاَّ واجمين فترة من الزمن، وقبل أن يغادر عمران الغرفة قال له:

- لقد فاجأتني بقرارك فلم أحضر معي نقودًا تحتاجَها لسفرك. ترقب يومًا آخر سأتدبَّر لك بعض المال.

- لا داعي لذلك عندي ما يكفي. سوف أبعث لك بأخباري عندما أستقر.

حالما خرج صديقه، أعدَّ نفسه للخروج، ثم توجه متسللاً إلى حيّ البُرج. كان الليل قد انقضى شطره، وكانت الشوارع خاوية من المارَّة، لكنه كان على دراية بالمكان. وصل إلى بيت ابنة عمه، فتح الباب الذي لم يكن موصدًا. نقر على باب إحدى غرف البيت فسمع أحدًا يقول:

"آش كون" أجابه بصوتٍ خافتٍ: "العاتي". بعد لحظة خرج رجل نصف عارٍ يفرك عينيه. نظر مليًّا في العاتي ثم ارتمى عليه يحتضنه ويقول له: "وينك وينك، هبطت من السماء". لم يقل العاتي شيئًا، ثم همس له:

- أرغب أن تمدّني ببطاقة تعريفك، ربما تعود إليك في أحد الأيام، أو استخرج غيرها.

ودون تردُّد رجع الرجل إلى الغرفة المظلمة وأشعل النور، وبعد ردهة من الزمن عاد يمدُّ البطاقة للعاتي. ضمَّه العاتي طويلاً، ثم انصرف دون أن يلفظ كلمة.

عند طلوع الفجر توجَّه إلى باب عليوة، واستقل سيارة أجرة إلى فريانة. كان لباسه وهيأته لا يميِّزانه عن بقية ركاب سيارة الأجرة. وما إن سلكت السيارة الطريق خارج المدينة حتى غطَّ في نوم عميق رغم خرير المحرك، وصياح المذياع الذي كان في البداية يبث تراتيل ومدائح، ثم تلتها بعض الأغاني، لم يكن العاتي يسمعها. كان يجلس في المقعد الأخير بجانب شيخ كان يغطُّ مثله في النوم.

توقفت سيارة الأجرة عدة مرات، تفحَّص أعوان الأمن بطاقات تعريف المسافرين دون أن يتفطَّنوا لوجود العاتي الذي مدَّ ببطاقة زوج ابن عمِّه فرحات، والذي كانت له نفس سمات شبان القبائل النازحة من شمال البلاد على الأحياء الفقيرة للعاصمة؛ وجهٌ قمري أسمر، وعينان سوداوان، وشعرٌ حالك السواد. وشاربٌ غليظ فوق شفتين قرمزيَّتين.

لم يتحدث إلى أحد أثناء الرحلة. عندما وصل إلى مدخل مدينة فريانة، وقد تعرف عليها العاتي من اللافتة المعلقة على الطريق تعلن ترحيب شعب الحزب بزيارة أحد الوزراء، طلب من السائق أن يتوقف ويُمكِّنه من النزول، وناوله أجرةً، ثم اختفى في الغابة الكثيفة. ظلَّ يترقب أن يعمَّ الليل المدينة، ثم خرج إلى الطريق الرئيسية وهي الوحيدة المعبدة، وأخذ يبحث عن مركز البريد حتى وقف أمامه. نظر في كل الجهات، كان الشارع قفرًا. قال في نفسه يستحضر الاسم: "بلقاسم العرباوي" تقدم إلى البيت المجاور لمركز البريد، كان ذا طابقين، طرق الباب وترقب. فُتح شباك في شرفة الطابق العلوي، وظهر منه رجل في مقتبل العمر يلبس بيجاما. سأله الرجل:

- ماذا تريد؟.

- أطلب بلقاسم العرباوي.

- ترقب قليلاً سأنزل إليك.

انغلقت النافذة ثم انطفأ الضوء، وبعد لحظات فُتح باب الطابق السفلي، وخرج الرجل الذي كان يخاطب العاتي. سلَّم عليه مصافحًا، فمدَّ له الخطاب الذي أعطته إياه وردة. قرأه على ضوء الفانوس القائم أمام مركز البريد، ثم عاد يصافحه معلنًا بصوتٍ خافتٍ:

- أهلاً بالرفيق.

مشى به خطوات ثم انعرج إلى زقاق مظلم. وقف ينظر إلى العاتي ثم أعلن:

- الحدود الجزائرية تبعد ثلاثين كيلومترا، والساعة الآن منتصف الليل. لو سافرنا في حيننا لوصلنا إلى الحدود حوالي الساعة الرابعة صباحًا. ترقب هنا سأعود إليك بعد حين، وننطلق معًا إلى الحدود.

ترقب العاتي فترة من الزمن في الظلام والصَّمت المهيمنين على الأرجاء؛ حتى سمع فرقعة محرك دراجة. لما وصلت الدراجة قربه صعد وراء رفيقه وانطلقت في طريق وعرة بين المنعرجات، متبعين ضفة وادي الهجّاف.

توقفت الدراجة عند سهل. أسكت بلقاسم المحرك، ووقف أمام رفيقه ينظر إليه مليًّا، ثم ربت على كتفه وقال:

- لا أظنك تخاف شق طريقك بين الجبال، انظر إلى ذلك الجبل إنه جبل السراقية، عليك أن تسلك مسربًا يحاذي الجبل حتى يظهر لك من الجهة الغربية، عندها تكون قد تخطيت الحدود. تقدم حتى تعترضك طريق غير معبدة لكنها سهلة، سر بها نحو الشمال إلى أن تصل بلدة تدعى أم علي، منها يمكنك أن تركب سيارة أجرة إلى مدينة تبسة. سيتطلب منك مشيًا حثيثًا مدَّة أربع ساعات. وعلَّمتنا التجربة أنه من الساعة الرابعة صباحًا إلى الثامنة صباحًا لن تعترضك في تلك الطريق أي دورية تونسية أو جزائرية.

ضمه إليه بحرارة ثم سأله:

- هل لديك نقود؟.

- عندي ما يكفي.

- أخرج من جيبه نقودًا ومدَّها له معلنًا:

- هذه بعض النقود الجزائرية تسمح لك بتناول بعض الشيء أثناء الطريق حتى تبدِّل العُملة. صافحه من جديد مودعًا:

- رافقتك السلامة.

انطلق العاتي نحو سفح الجبل. ظلَّ رفيقه يتبعه بعينيه حتى توارى في الظلمة. شغَّل المحرك وعاد إلى بيته.

عند الساعة العاشرة صباحًا وصل العاتي إلى مدينة تبسة الجميلة. كان الطقس باردًا، والضباب يعمُّ المدينة. جلس في مقهًى وطلب فطور الصباح. وبعد أن شعر بالنشاط يغمره، غادر المقهى وأخذ يلف بين شوارع المدينة الأثرية. عند منتصف النهار دخل مطعمًا وتغدَّى ثم قرَّر أن يتصل بعبد القادر مزيان. كان المطعم قُبالة مركز البريد. توجه إليه وهتف إلى رفيقه الجزائري، و لم تمضِ بعضُ الدقائق حتى تقدَّم منه رجل طويل القامة أحمر الوجنتين غليظ الشارب، سأله بلهجة جزائرية حادة:

- ألا تكون سي العاتي؟.

ابتسم له العاتي ومدَّ له يده مصافحًا، ثم قال:

- تشرفنا.

مدَّ له برسالة وجدها في الحقيبة التي مدَّته بها وردة.

قرأها، ثم التفت إلى العاتي وسأله:

- هل أتيت عن طريق الحدود؟.

- لا.

- clandestin ?

أومأ له برأسه موافقًا.

أخذ بيده وسار به إلى سيارته، ثم ودون أن يقول كلمة توجَّه إلى حيدرة حيث يوجد مركز العبور الحدودي. تركه خارج البناية، وبعد فترة من الزمن عاد وبين يديه جواز سفر العاتي. مدَّه إليه وقال:

- الآن يمكنك السفر بحرية في كامل تراب الجزائر.

ولَّما وصل إلى مدينة تبسّة استقلَّ سيارة أجرة إلى عاصمة الجزائر.

لم ينمْ طيلة الفترة التي قضتها السيارة تطوي الطريق المعبَّدة. كانت المناظر الخلابة للطبيعة تبهره، فوعد نفسه بالعودة يومًا صُحبةَ حبيبته وزيارة هذا البلد الجميل. كان طيف وردة يتبعه في كل مكان، يؤنسه، يدفع عنه الخوف من المجهول وهو يتنقل بين الفيافي والجبال.

عندما وصل إلى عاصمة الجزائر كان الليل قد عمَّ المدينة وانتشرت الأضواء في أرجائها. ولم يتوقف عن التفكير في أنه يتنقل في بلد من أجمل بلدان الدنيا. هذه الطبيعة نحتت لتصنع في كل شبر من هذا البلد جمالاً خلابًا. لكن حياة المدينة لا تأبه بجمال الطبيعة. حالما نزل من سيارة الأجرة، ومدَّ إلى السائق ورقة بمائة فرنك، حشرها في جيبه بسرعة فائقة، ثم اقترب منه وهمس: "يا التونسي راه السراق بالزاف". كان متهيئًا لهذا الاحتمال، فأسرع إلى أول نُزُلٍ اعترضه، وحجز غرفة، ثم تناول بعض الطعام في بهو النُزُل، وصعد إلى غرفته ليستسلم إلى النوم حتى الصباح.

غادر النُزُل متوجهًا إلى أول وكالة أسفار في شارع ديدوش، وحجز في الطائرة المتجهة إلى باريس في مساء ذلك اليوم، وبقيَ يتنقَّل بين شوارع المدينة المكتظة، وهو يعِدُ نفسه بأن يعود إليها ويقيم بها، حتى يتعرَّف على سر هذه الحيوية التي لا تنقطع، وكأنَّ كل سكان المدينة على موعد ليملأوا شوارعها بحركةٍ دائبةٍ، وضجيجٍ صارخٍ، وحيويةٍ لا تنضب.

عرَّج على أحد الدكاكين التي تعرض ملابس، اقتنى قميصًا أبيض، وسروالاً أنيقًا، وجواربَ. لّمَاَ عرض على صاحب الدكان أن ينقده بالفرنك الفرنسي ابتهج، وأخذ منه النقود وخبأها بسرعة حتى لا تتفطن الفتاة العاملة في الدكان. عاد إلى النُزُل واستحمَّ، ثم لبس الثياب الجديدة، وغادر النُزُل إلى المطار.

◆◆◆

كان ينظر من شباك الطائرة إلى السحب الكثيفة تحته تحجب الرؤية، وتخفي الأرض، وتجعل من الطائرة حوتًا عائمًا في محيطٍ من السحاب. ما زال تحت تأثير نظرات الشرطي وهو يتفحَّصه بعينين صغيرتين ثاقبتين، ينظر إلى صفحة جواز السفر ثم يلتفت إليه موجهًا تلك النظرة الثاقبة. لو أنه حجزه... لو أن البوليس التونسي أعلم زميله الجزائري بأن المُسمَّى العاتي البادي مطلوبٌ لدى الحكومة التونسية، ومتهم بارتكاب جريمة قتل على

رجل أمن الدولة التونسية... لم يحصل أي شيء، حاول أن يُبقي على هدوئه حتى مدَّ له الشرطي الجواز ونظرته العدوانية تتبعه، وهو يتعجَّل الابتعاد إلى الرُّواق المؤدي إلى الطائرة. ظلَّت الطائرة تسبح في محيط السحاب، وعيناه لا تغادران شباكها، لم يلتفتْ إلى الرجل الأنيق الجالس قُربه، ولم يُعِرْ أيَّ انتباهٍ للمضيفة الجميلة وهي تتنقل في الممر الضيق بين كراسي المسافرين؛ تعرض جسدها الرشيق لأعين تملأها الرغبة. تناول منها طبق الطعام، وانهمك يأكل دون شهية؛ لأنه وجد مذاقه رديئًا، وارتجَّ ككل المسافرين عندما وطأت الطائرة مطار أرلي بباريس، وظل لحظة مغمض العينين قبل أن يفكَّ الحزام، ويغادر مقعده متبعًا صفَّ المسافرين يتنقل ببطء في الممر الضيق. ولم يجد أيةَ صعوبةٍ في شقِّ الدهاليز المنارة، متَّبعًا قطيع المسافرين حتى وصل إلى شباك شرطة الحدود. وعاد يضطرب أمام نظرة عون الأمن الفرنسي الذي لحظهُ بنفس النظرة الثاقبة لزميله الجزائري. كل رجال الأمن في العالم يتشابهون في النظرة وفي المعاملة.

ربما كان المسافر الوحيد الذي لا يحمل حقيبة. وقف في البهو الكبير للمطار مبهورًا بكل تلك الفوضى المنظمة تلقائيًا، فأحس بالغثيان. جلس على كرسي، وظلَّ يفكِّرُ. هذه مدينة النور تبدو له قلعةً صعبةَ المنال. وهذه لغة لا يحذقها جيدًا، يتكلمها بلهجة يُشتَمُّ منها انتماؤه العِرقي الذي لا يستطيبه الناس هنا. وهذه الفرنكات القليلة عليه أن يدخرها ولا ينفق منها إلا لحاجاته الماسة. وهذا رقم "مارك تيبو" الذي لا يعرف ما سيقول له عند مخاطبته بالهاتف. قضى فترة طويلة وهو في ذلك الوضع لا ينظر إلى الحركة من حوله. كان قُبالة باب الخروج لكنه لم يَجرُؤ على تخطيه خوفًا من المجهول. كان يعتقد أنه بتخطيه الحدود سيجد عالمًا متحررًا من كل القيود، لكنه شعر أنَّ لهذا العالم مفاتيح تسمح بدخوله. وقف وتقدم إلى وسط البهو الكبير، جال ببصره في أرجائه: لافتات معلقة تعلن أشياء كثيرة، أوقات السفرات واتجاهاتها، إعلانات الإشهار المتعدِّدة، رموز لأماكن عمومية، المطعم تدلُّ عليه شوكة وسكين، المقهى فنجان يخرج منه البخار، بيت الراحة شكل رجل وامرأة، الهاتف آلته. بعد تفكير طويل توجه نحو علامة الهاتف واتبع السهم حتى وجد أقفاصًا زجاجية داخلها آلات الهاتف. ولج إحداها ورفع السماعة،

لكن سرعان ما أعادها إلى مكانها، لا بُد له من قطع نقود فرنسية. ظلَّ يقرأ لافته داخل القفص البلوري ترشده إلى كيفية استعمال الهاتف، ثم خرج متوجهًا إلى كُشك الجرائد، اشترى جريدة "لومنتي" وعاد إلى القفص، ومعه ما يكفي من النقود لمخاطبة مارك تيبو.

- ألو هل هذا بيت السيد مارك تيبو؟.

- نعم. من على الخط؟.

صمت لحظة ثم قال:

- أنا تونسي مدَّتني صديقة لي تُدعى وردة رقم هاتفك...

قاطعه مخاطبه قائلاً:

- هي هنا ترقَّب قليلاً سأدعوها.

بعد لحظة سمع صوت وردة:

- ألو.

كانت المفاجأة كبيرة فظلَّ لحظة واجمًا، ثم أعلمها بمكان تواجده. شرحت له بدقة ما عليه القيام به حتى يصل إلى المكان الذي ستترقبُه فيه. سألها متضايقًا:

- من يكون مارك تيبو؟.

قالت له بصوت آمر:

- خُذ ورقةً وقلمًا، واكتب ما سأعيده عليك من إرشادات حتى لا تضيع في الطريق.

كان في الحقيبة الصغيرة كنش وقلم حبر، أخرجهما مرتبكًا، ثم خط على الورقة ما أملته عليه. قالت له بالفرنسية:

- إلى اللقاء بعد حين.

انقطعت المكالمة ولم يضع السماعة، ظلَّت تطنُّ في أذنه دقات الهاتف المتتالية فترة من الزمن.

خرج من القفص البلوري ودقات الهاتف تملأ أذنه، ولكن ما أن تلقفه هيجان الحركة في البهو الكبير حتى تدارك وضعه، وعاد ينظر إلى اللافتات المعلَّقة، فلاحظ واحدة تعلن

"إرشادات"، توجَّه إلى مكتب حيث تجلس ثلاث فتيات جميلات وراء مصرفٍ كبيرٍ، استقبلته إحداهن بابتسامة معلَّبة. طلب منها أن ترشده عن محطة الحافلة المتجهة إلى باريس.

قالت له:

- أيَّ جهةٍ من جهات باريس تقصد؟.

قرأ الورقة التي خط بها ما أملته عليه وردة ثم أجاب:

- مترو تروكاديرو.

- الحافلة رقم ٣ ، المحطة توجد داخل الدهليز رقم ٤، تجده بعد تخطي باب الخروج رقم ٦. ثم عادت تلوِّح له بابتسامتها المعلَّبة. و لم تلتفت إليه عندما بقيَ متردِّدًا. قال في نفسه: كل شيء بالأرقام هنا يا العاتي. كم سيحفظ من أرقام!. الحافلة والباب والمحطة والمترو، حتى الفتاة ذات الابتسامة المعلَّبة تحمل على صدرها رقمًا. عالم غريب هذا الذي يزج به نفسه، لكنه تذكَّر وردة، فمحا طيفُها كل اضطراباته، واندفع يسعى إلى الوصول إليها.

بعد تخطي دهاليز كثيرة يشعُّ داخلها نورٌ كثيف، ورحلة في حافلة فاخرة معطَّرة مقاعدها ناعمة، وأضواؤها خافتة، تنتشر داخلها موسيقى هادئة لطيفة، ومسافرين منكمشين على ذواتهم لا يرومون حتى النظر إلى الآخر، وصل إلى محطة المترو، واستقله والورقة دليلهُ، واللافتات المعلنة عن الاتجاهات نبراسُهُ، وتخطى أخيرًا باب المترو، فوهة كبيرة لمغارة سحرية يدب داخلها المسافرون كالنمل، ووجد وردة واقفة قرب عمود فانوس الكهرباء تترقبه.

اقترب منها متردِّدًا؛ فتقدمت وارتمت في أحضانه وضمته إليها معانقة. نظرت إلى وجهه تستطلع مدى تأثير السفر في ملامحه ثم أعلنت:

- ما لك، متردِّد؟. هذا عالم الحرية كل شيء مباح في نطاق القانون.

ثم عادت تضمه إليها وتقبل شفتيه. ما زال في تردُّدِه، الشارع هو الشارع ولو كان باريسيًا، والناس هم الناس ولو كانوا دُعاة الحرية، الحشمة هي الحشمة ولو كان الحب مُباحًا على قارعة الطريق.

سألته:

- أين حقيبتك؟.

- لم يكن لي حقيبة.

أخرج من جيبه الحقيبة الصغيرة التي أعطتها إياه قبل أن يفترقا. وقال:

- هذا كل ما أكسب. فأنا أبدًا مُطارَد.

تأبطت ذراعه، واندفعت به بين المارَّة المزدحمين. توقف عن المشي وسألها:

- إلى أين نحن ذاهبان؟.

- عند الرفيق مارك، سوف ترى أنه لطيف، سخَّرَ شقته لإيواء الفارِّين من جحيم القمع مثلنا. لن يطول مكوثنا هناك سنبحث عن غرفة تتلاءم مع العمل الذي سنجده، فقد وعدني بعض الأصدقاء بمساعدتنا.

- وكيف تعرفت على مارك هذا؟.

- إنه ينتمي إلى تنظيم ثوري فرنسي له علاقات مع تنظيمنا، وقد مدَّني بُرهان برسالة إليه سهَّلت الاتصال به.

- ومن هو بُرهان؟.

- ولماذا كل هذه الأسئلة، ليس الوقت الآن لطرحها.

وعادت تجرُّه وراءها.

(٢٧)

عندما نهض العاتي في الصباح نظر في ساعته. كانت تشير إلى منتصف النهار. ارتبك وقال في نفسه: "يا للعار أنام حتى منتصف النهار وفي بيت فرنسي، ماذا سيقول؟". التفت إلى وردة بجانبه، ما زالت تغطُّ في النوم. ظلَّ يتفحص وجهها الطفولي، وشعرها المنتشر على المخدَّة وزندها العاري. عادت إليه الرغبة. قضى ليلة من ألذِّ ليالي حياته.

كان في البداية متضايقًا عندما دخل بيت مارك تيبو، واستقبله الرجل بابتسامة عريضة قائلاً:

- مرحبًا بالرفيق. هذا البيت لك ولأمثالك من المقاومين لهيمنة رأس المال. خصَّصتُ لكما غرفة الضيوف، فلا تتضايق واعتبر نفسك في بيتك، وكل شيء هنا على ذمتكما: المطبخ والطعام، وبيت الاستحمام، إلا زوجتي فهي لي وحدي.

وانطلق يضحك ويربت على كتف العاتي، ثمَّ جرَّه أمامه إلى قاعة كبيرة مؤثثة بزرابي شرقية وحشية عليها ألحف مطرزة بألوان داكنة. ثم قال له بعد أن انتزع حذاءَه وجلس على أحد الحشايا المطرزة، وأسند ظهره إلى حصير مزركش بألوان صفراء وخضراء وحمراء كالتي تزين جدران الزوايا:

- ألا يذكرك هذا الديكور ببلدك؟. لقد قام بترتيبه أحد الأصدقاء المغاربة، ووجدت فيه الراحة، وأنساني صرامة الحياة عندنا.

لم يقل شيئًا. تناول العشاء والرجل يثرثرُ، وهو في وجومه. كانت وردة تتحدث إلى زوجة مارك عن المرأة التونسية ومجلة الأحوال الشخصية، لكنه لم يتفوَّه بكلمة واحدة.

عندما اختلى بحبيبته في غرفة الضيوف، لم يتفطَّن إلى أثاث الغرفة، ولا إلى فقدان السرير الذي عوضته الحشية المنتشرة على أرض الغرفة المغطاة بطنفسة خضراء، ولا إلى الجدران المسدلة عليها أقمشة حريرية فاقعة الألوان تشبه أعلام الزوايا. وقف ينظر من نافذة الغرفة إلى الأضواء المتراقصة تأتيه من أعالي العمارات المجاورة، تومض بألوانها الحادة حمراء؛ زرقاء، خضراء.

دنت من النافذة وأغلقتها، أطفأت النور الحاد، وأشعلت نورًا برتقاليًا خافتًا، يندفع من الأركان الأربعة للغرفة، ثم التفتت إليه سائلة:

- هل أرهقك السفر؟. أجابها حالما:

- أرهقتني الحضارة.

اقتربت منه وقبَّلته على شفتيه، وهمست:

- سنواصل ما قطعناه في"سكرة".

ثم خلعت ثيابها وهو يتبع بعينين راغبتين تعرِّي الجسد الغض. وما أن دخلا الفراش حتى أبحرا في أعماق اللذة. كان كالمجنون لا يتوقف عن الركض في حنايا جسدها. يتوقف بعض الوقت، يستريح، يدخن سيجارة، يسبح بصره في سقف الغرفة المنتشرة عليه بُقع من الضوء البرتقالي، ثم يعود إلى الجنون. كانت هي كذلك تستطيب ذلك الجنون المغذِّي، تمتلئ لذة حتى التُّخمة، وعند الاستراحة تغمد وجهها في صدره، وتغفو. لكن سرعان ما توقظها لمساته. ويعودان إلى الجنون. لم يبق للوقت مسير، ولا للإرهاق مفعول، وليمة من اللذة لا تنتهي ولا أجسادهما تشبع. كان كل ما ينغِّص عليه لذَّته هو تذكيره في كل مرة بالواقي. تهمس إليه بلطف: "لا بُد منه حبيبي حتى لا نجني على أحد كما يقول المعرِّي". ويضع الواقي وهو يغمغم كالطفل المدلل: "لا أريده، يفقدني الإحساس بحرارة الأعماق". تقول ضاحكة: "كل جسدي أعماق". فتثيره كلماتها ويندفع في البحث عن خبايا الجسد.

تكاسل في فراشه، كان نورٌ باهتٌ يتسرب من ستار النافذة الموصلي يعطي للأشياء سمة الزمن القديم. تردَّد قبل أن يوقظها، ولكن عندما قبّل خدَّها فتحت عينيها، وظلَّت تنظر

إليه تملؤها السعادة، ثم احتضنته، والتفت حوله. لكنه همس لها: "لقد طلع النهار منذ زمان، لا يجوز أن نبقى في الفراش إلى هذه الساعة". تمادت في إثارته. كان متردِّدًا. عاد يهمس: "لا يجوز ألا نخرج لأصدقائك، ماذا سيقولون؟. ربما سيطلبوننا..". قالت له: "لا تكترث، لقد خرجا للعمل منذ زمن، ولن يعودا إلا عند المساء". واندفعا من جديد يغرفان من لذة العشق.

لكن العشق ليس سوى حالة عرضية في حياة البشر.

استحما معًا في نفس المغطس. لأول مرة في حياته يستحم في بيت به حمام ومغطس ومغسل، وتكسو جدرانه مرايا تعكس صورته، ولأول مرة في حياته يمارس الحب في الحمام، ويضع مئزر الحمام. تردَّد قبل أن يضعه، فألحت عليها قائلة:

- لا كلفة بين الرفاق، ثم إننا سنضع كل ما نستعمله في آلة الغسيل.

شعر أنه انتقل إلى عالم المدنية المعاصرة، وأنَّه يخرج شيئًا فشيئًا من قشرته. وعندما غادرا الشقة إلى الشارع، سألها:

- إلى أين نحن ذاهبان؟.

- ألا تتوقف عن الأسئلة؟.

- لأني لا أستطيع العيش دون التحكم في مصيري.

- ماذا تريد من الحياة؟.

- الحب، وقد وجدته معك. إسعاد نفسي وإسعاد الآخرين، وهو ما أسعى إليه بالعمل والنضال...

تردَّد قليلاً وأضاف:

- أريد أسرةً وأطفالاً...

- أنت برجوازي إلى النخاع يا العاتي!.

- ربما أكون أفقر برجوازي على الأرض، فأنا لا أملك فرنكًا واحدًا، كل ما عندي أعطيته لي أنت، إني مدين لك بكل شيء...

صمت فترة من الزمن قبل أن يقول بصوتٍ خافتٍ:

- أخاف أن أصبح مِلكًا لك.

توقفتْ ونظرتْ إليه غاضبة، ثم قالت بحدَّةٍ:

- أوَ تتصورني إقطاعية أمتلك الناس؟.

قبَّلها ملاطفًا، ثم قال:

- لم أقصد ذلك. ولكني أردتُ أن أعبِّر بكل صراحة عما يختلج في نفسي. كل ما أريده هو الاستقلالية، أبحث عن عمل، وتكون لي جراية تمكنني من الإنفاق...

- وتحبسني في البيت أترقب رجوعك، وأحضر طعامك، وألبي رغبتك، وتنفق عليَّ، وأنجب الأطفال... كم سيكون عددهم؟.

- لم أفكِّر بعد.

- فكِّر سيِّدي البرجوازي، فأنا لست من هواة حياة الحريم!.

تعوَّد على تقلبات مزاجها، وعلى ثورتها ضد ثقافة المجتمع، لكنه لا يشاطرها كل أفكارها. يناضلان من أجل مجتمع تسوده العدالة الاجتماعية، أمَّا في الأمور الثقافية فهما على نقيض. يعرف ذلك، وحاول فهم تلك الأفكار التي تعبِّر عنها بحدَّةٍ كل مرة يختلفان. غير أنَّ الحب لا يعترفُ بالآراء ولا بالنظريات. أحبها، وكان ذلك كافيًا ليشعر بالسعادة قربها.

لم تكن الشوارع مكتظة، قليلون هم المارَّة الذين اعترضوهما، الحي من أرقى أحياء باريس، قالت له ذلك، فاستغرب أنَّ ثوريًا يقطنه. قالت له:

- أنت تحمل أفكارًا مسبقة. كل إنسان يشعر بالظلم ضد أخيه الإنسان يثور، ويحاول أن يضع حدًا لذلك الظلم. مارك تيبو، وردة الباشطبجي، بُرهان الشحيمي، ليسوا من طبقة العمال، هم ناس رأوا المجتمع بكل تناقضاته، قرءوا تاريخ الإنسانية، تسلحوا بالمنهج الماركسي في فهم عجلة التاريخ، ثم انتظموا داخل خلايا تحاول وضع عجلة التاريخ في مسارها الصحيح.

هذه الأشياء لا يفهمها جيدًا. عجلة التاريخ لا تهمُّه، كل ما يهمُّه هي حياة البشر، معاناتهم، الظلم المسلط عليهم من قبل النظام السياسي الذي يحمي الغني ويسحق الفقير،

يشجع الاستغلال ويحول دون تنظيم المستغَلِّين، يهمِّش مجموعات بشرية ليسهل استغلالها. ذلك هو طريقهُ في النضال. ربما لا يختلفان في الهدف؛ لكنه يرى أنَّ ثرثرة المثقف تُميِّع القضية. الهدف هو مقاومة الظلم، وتنظيم المظلومين، والسعي إلى إرساء حُكم عادل يسمح لكل أفراد المجتمع من تقاسم الخيرات وخوض النجاح.

عندما قال لها كل هذا الكلام، نظرت إليه بإعجاب وقالت:

- أنت يا العاتي ما زلت معدنًا صافيًا لم تلوثك النظريات، والنقاشات، والتأويلات. ابق على تلقائيتك فهي معدن ثمين، لكن عليك أن تعي أنَّ الظلم الذي تتحدَّث عنه لا يمس العمَّال فحسب؛ بل يسحق المرأة، والطفل، وكل المستضعفين في مجتمع لا يعترفُ بالوجود إلا للأقوياء.

مرَّا بمقبرة باسي، فتوقف أمامها، ونظر إليها من خلال قضبان الباب الحديديِّ العريض، ثم التفت إلى وردة وقال:

- حتى مقابرهم تشبه القصور!.

جذبته من ذراعه وقالت:

- سوف تتعرف على باريس وسترى عجائبها. أمَّا الآن فلنفكِّر أن تستقرَّ هنا دون أن تطلب اللجوء السياسي. لقد تحدثت مع مارك، ووعدني أنه سيجد لك عملاً في إحدى الورشات خارج باريس. لا أريدك أن تختلط بالطلبة التونسيين هنا؛ فكثير منهم أعوان الحزب، أو أعوان أمن الدولة.

- وأنت؟.

- لا تُقلق بالك، إني برجوازية كما تقول، لن أحتاج للمال فبابا تكفَّل بذلك.

- والإقامة؟.

- عندما تجد عملاً نسوِّغ شقة في الضاحية التي ستشتغل بها.

- جميل كل شيء على ما يرام سيِّدتي الكُنتيسة.

- فلنعش للحب ولو لفترة!.

◆◆◆

باريس مدينة ترحب بالعشاق. تمنحهم في كل حي حديقة، وفي كل قصر من قصورها القديمة ركنًا خاصًا، وفي كل شارع مقعدًا يستريحون ويتعانقون، ولا أحد يزعجهم. وحدائق باريس لا تُحصى، وأحياؤها الخاصة بالثقافة، والدعارة، والتجارة، والسياحة، لا تخلو من لمحةٍ للعشاق. أينما حللتَ في هذه المدينة رأيت الأزواج ينشرون الحب.

كان العاتي في أوج سعادته وهو يتنقل بين تلك الأحياء، وكانت وردة دليلته، قالت له إنَّ زيارتها الأولى إلى هذه المدينة كانت عند بلوغها سن الثانية عشرة من عمرها، نجحت آنذاك في تخطي المرحلة الابتدائية، فأرسلها أبوها عند أحد أقربائه، كان يشغل خُطّةَ قنصلٍ في السفارة التونسية بفرنسا. فأقامت شهرًا كاملاً تعرَّفت خلاله على بعض أحياء باريس، وتعرفت على البعض الآخر عندما تحصَّلت على شهادة البكالوريا؛ فأقامت عند أحد أقرباء الأسرة الذي يمتلك بيتًا في باريس. كان العاتي عاشقًا فلم يرَ من باريس سوى ألوانها الوردية. ولم يعرف من الحياة في تلك الفترة سوى الحب، كل ما في الدنيا أصبح لديهما حبًا. وكان يغرف من الحب صباح مساء. كانت طاقته لا تنبض، وكانت وردة تستطيب تلك الفحولة الفياضة.

نسي كل شيء. نسيَ حتى أمَّه التي تركها تعاني الحيرة والشوق. ولكن عندما أتاه مارك تيبو يومًا وقال له:

- انتهت العطلة. غدًا سترحل إلى كليشي، ضاحية غير بعيدة عن باريس، وجدت لك هناك صديقًا يمتلك ورشة للميكانيكا وهو يبحث عن مُساعد، وقد وعدني أنه سيوفِّر لك في الطابق العلوي للعمارة التي يسكنها غرفة مؤثثة.

قابله، ثم مدَّه بالعنوان وأرشده عن كيفية الوصول إلى مكان عمله الجديد. عاد إلى الحياة الجادة، تذكر الدنيا بواقعيتها، وضرورياتها، وشقائها. كانت وردة خارج البيت، ذهبت لتحضر اجتماعًا للتنظيم مخصصًا لرابطة حقوق الإنسان التي كونتها مجموعة من الديمقراطيين التونسيين للدفاع عن ضحايا القمع في البلاد. شكر مضيفه الفرنسي، ثم انزوَى في غرفة الضيوف يترقب عودة حبيبته.

كان مسرورًا بنهاية العطلة كما دعاها مارك، لكنه كان يخشى الابتعاد عن وردة. جمع أمتعته التي اشتراها حديثًا، وظلَّ ينتظر. ولم تأتِ إلا في ساعة متأخرة من الليل. كان قلقًا، رغم كل ما يعرف عنها من شجاعة وإقدام. ولّمَا حضرت، ولاحظت حيرته قالت له متشنَّجة:

- ما لك غاضب؟.

- لست غاضبًا، كنت في حيرة.

- تعرف جيدًا الاجتماعات السياسية عندنا، كل واحد يريد إظهار قوته الخطابية وبراعته في تحليل الأوضاع، والقرارات الميدانية لا تكون في مستوى الحماس والخُطب.

- وكيف هو الوضع في البلاد؟.

- من سَيِّءٍ إلى أسوأ. الحركة الإسلامية تجتاح الساحة، والسلطة عاجزة عن التصدِّي لها إلا بالوسائل القمعية، وهي لا تجدي مع أناس يعتقدون أنَّ العمل السياسي جهاد في سبيل الله. الغريب أن هؤلاء السياسيين الجُدد لا يصرحون جهرًا بأنَّهم يتعاطون السياسة، بل يعتقدون أنَّهم ينشرون الإسلام...

- لكننا بلدٌ مسلم.

- ألم تسمع بالتكفير والهجرة؟.

- لا.

- هذه الجماعة ترى أنَّ المسلمين الحاليين فقدوا انتماءهم إلى الإسلام الصحيح...

- وما هو الإسلام الصحيح؟.

- الحكم بالشريعة، وبيعة أمير المؤمنين، وفرض شعائر الإسلام بالقوة إن لزم الأمر.

- والشعب؟.

- تعرفه جيدًا، أغلبيته جاهلة تنطلي عليها مثل هذه الدعوات. عندما يقول العامة سيِّدي محرز سلطان المدينة معنى ذلك أنَّ السلطان لا بُد أن يكون متصوفًا تقيًا يفرض إسلامه على الناس ويطلب الطاعة. الناس عندنا يبحثون عن "سيدي محرز" جديد، يخلِّص البلاد من اللصوص، ومرتزقة السياسة، ويقاوم الدعارة التي انتشرت في كل مكان. لقد يئس

الناس من الحداثة؛ لأنها لم تعطهم سوى الزيف، والتضليل، ونهب خيرات البلاد، وتمييع مثلها وثقافتها.

كانت تتكلم بحماس، والعاتي يُصغي إليها بكل انتباه. كانت تعوِّض عن الكبت الذي نالها أثناء الاجتماع، حيث لم تقل كلمة، وقد استولى على المنبر كبار رجال التنظيم.

- وما العمل؟.

- لقد اختلف الرفاق. منهم من يرى في اللعبة السياسية الحل الأمثل للوصول إلى الشعب، وإرساء قيم جديدة في التعامل مع الشأن السياسي، وآخرون يرون أنَّ مقاومة التيارات الرجعية أصبح هدفًا عاجلاً حتى لو تطلَّب الأمر التعامل مع رموز النظام. أرأيت إلى أيِّ منحدر وصلنا؟.

ساد بينهما الصَّمت. لم يكن العاتي مغرمًا بالتحليل السياسية. كان النضال يمثل لديه متنفسًا يعبِّر من خلاله عن رفضه لواقعه وواقع المستضعفين من حيه. ولئن كان قد انخرط في تنظيم يساري؛ فلأن تواجد هذا التنظيم في الساحة النقابية كان حركيًا، وفعَّالاً في بعض الأحيان. أما وردة فهي ككل المثقفين الذين يبحثون عن تطابق الأفعال مع النظرية التي يتبنونها، فتراهم يحاولون جاهدين إسقاط النظرية على واقع لا يتماشى وتلك النظرية، وهو ما يفسِّر فشلهم في الوصول إلى الجماهير العريضة من الشعب.

كلاهما كان يجتر أفكاره. فالعاتي واضح مع نفسه ومع أفعاله. فهو لا يعرف من النظرية الماركسية سوى ما يسمح له بالتعبير عن واقعه وواقع محيطه: مقاومة الظلم، السعي إلى العدالة الاجتماعية وحماية المستضعفين. كانت هذه نظريته، لا يحتاج إلى كثير من التحاليل ولا إلى الخُطب التي لا تنتهي. كاد أن يقول هذا الكلام بصوتٍ عالٍ؛ لكنه لم يجرُؤ، خاف أن تهزأ منه ومن أفكاره البسيطة. أما هي.. فهي تشعر بالكبت كلما حضرت اجتماعات التنظيم، لم تتجرأ مرَّة واحدة على أخذ الكلمة، والإفصاح عن رؤيتها للواقع وللعمل الذي تقوم به. فعندما تلتقي بالعاتي تفرغ ما في جعبتها من كلام يجيش بداخلها.

عاد يسأل:

- وما العمل؟.

لم تُجبه، نهضت وقالت:

- سأستحمُّ وأنتزع السياسة والسياسيين، لم أعد أثق بشيء. أتتصوَّر بلدًا مثل تونس متفتحًا على كل التيارات شرقيها وغربيها يحكمه المعمَّمون؟.

قبل أن تغادر الغرفة، وقفت بالباب وقالت بيأس:

- لكن حُكامنا اليوم لا يهمهم سوى ما تُدرُّه عليهم السياسة من منافع.

عادت إليه وهو ممدَّد على الحشية ينظر إليها باستغراب، ثم قالت بحدَّةٍ:

- ألا تشعر بالتمزق مثلي يا العاتي؟.

قال مستغربًا:

- ولماذا كل هذا التشنج؟. الظروف لم تنضج ليتغير الناس ويأتوا بحُكام يخدمون أغلبية الشعب.

- ليست الظروف التي تغير الواقع، الإنسان وحده قادر على صنع مصيره.

مسكها من يدها وجذبها إليه، ضمها بقوة وهمس لها: "لست عليسة لتصنعي قرطاج الجديدة" ثم اندفعا في عناق طويل. عندما نهضت وتوجهت إلى الحمام، قال لها بصوتٍ خافت:

- غدًا سأغادر هذا البيت، لقد وجد لي مارك عملاً ومسكنًا في ضاحية كليشي.

- و لم تعلمني إلا الآن!.

- لم تسمحي لي بذلك، كنت تشتعلين بوقود السياسة.

- سنواصل حديثنا بعد الحمام.

(٢٨)

- ما اسمك؟.

- العاتي؟.

- هذا اسم عربي؟.

- عربي لكنه غير متداوَل.

- عرفت أسماء كثيرة عربية: محمد، علي، بلقاسم، الرزقي، صالح، أما اسمك فلم أعثر عليه طيلة السنوات الطويلة التي قضيتها بالجزائر.

كانت تلك المحادثة الأولى للعاتي مع مُشغِّله، رجل في الستين من عمره، لكنه يشعُّ حيويةً ونشاطًا، طويل القامة، أحمر الوجه، له نظرة حادة تنبعث من عينين زرقاوين. كان يلبس بدلةَ العمل الزرقاء تغطي كامل جسده.

دعاه إلى الجلوس في مكتبه، ثم مدَّ له باستمارة وطلب منه تعميرها. تركه بالمكتب وخرج، ثم عاد ومعه شاب فرنسي، قال له مقدِّمًا العاتي:

- هذا زميلكم الجديد، قدِمَ من تونس. ستساعدونه على التأقلم مع العمل، يقول إنه عمل في بلده في الخراطة زمنًا طويلاً. انظر ما يمكنه أن يقوم به معنا.

نظر إليه الشاب الفرنسي بشيء من الاحتقار، ثم خرج يتبعه العاتي متضايقًا. نادَى على بقية العمال وقال لهم دون أن ينظر إلى العاتي:

- شخصٌ جديدٌ يظهر أنَّه عربي.

التفت إلى العاتي وسأله:

- ما اسمك؟.

- العاتي.

- اسم غريب.

قال أحدٌ من بعيد:

- لسنا في حاجة إلى العرب.

كظم العاتي غيظَهُ، و لم يلتفت للشخص الذي تلفَّظ بالكلام. ولكن عندما قُدِّم له العمل المطلوب القيام به، تقدَّم إلى آلة الخراطة، وسوَّاها، ودقق في كل جزئيات، ثم اندفع في تسويتها غير مكترثٍ بنظرات زملائه من حوله، كان المطلوب منه عمل بسيط قد تعوَّد على إنجازه منذ زمان. عندما أنهى تسوية القطعة وقدَّمها إلى زميله الواقف قربه يراقبه؛ نظر إليها وتفحَّصها بدقَّة، ثم أخذ مقياس بلمر ودقق في جزئيات القطعة. التفت إلى العاتي وقال له ببُرودٍ:

- نحتاج إلى أربعين قطعة من هذا المثال.

تركه وانسحب إلى آلته، كما فعل بقية زملائه. كان العاتي راضيًا عن نفسه، هذه شهادة على أنَّه يُتقن عمله، ولن تفلَّ فيه عنصرية زملائه. أنهى صُنع القطع المطلوبة، وظلَّ متردِّدًا قبل أن يتصل بزميله الذي كلَّفه بالعمل. عندما اقترب منه لم يحرِّك ساكنًا، تغاضى عنه حتى قال له العاتي:

- أنهيتُ العمل.

لم يلتفت إليه، ضغط على زرٍّ فاندفعت الخَرَّاطة تعوِي، فعاد العاتي إلى مكانه، وظلَّ يترقب، لكن زميله الفرنسي تمادى في احتقاره والانشغال بعمله، حتى قَدِمَ المشغِّل ووقف يعاين القطع التي صنعها العاتي. قال له:

- جميل. لست في حاجة إلى تربُّص، سأقوم بالإجراءات وأهيئ لك عَقدَ التشغيل الذي سيمكِّنك من الحصول على بطاقة الإقامة وبطاقة الشغل.

قال له العاتي بصوتٍ خافت:

- أُتقن كذلك التفريز والتفوير...

قاطعهُ المشغِّل:

- سأنظر في هذه الأمور فيما بعد.

كانت البداية موفَّقة رغم عنصرية زملائه. وكان المشغِّل لطيفًا معه مما سهَّل عليه القيام بعمله دون اللجوء إلى مساعدة أحد. وكانت الغرفة التي تسوَّغَها من مشغِّله، والتي توجد في الطابق الأخير لعمارة تضم خمسة طوابق، مؤثثة بما يلزم لشاب أعزب، لكنها لا تحتوي على مطبخ ولا مرحاض. ولم يكن ذلك ليزعجه فقد قضى حياته في بيت متواضع لا تتوفر فيه كثير من المرافق الضرورية للحياة العصرية. غير أنه كان متضايقًا من السرير الصغير الذي لا يمكنه أن يتقاسمه مع حبيبته؛ إذا رغبت في الإقامة معه.

بدأ يعيش حياة جديدة، ينهض باكرًا، ويعمل ثماني ساعات في اليوم، ثمَّ يعود إلى غرفته مرهقًا، يصعد درج الطوابق الخمسة، فينام باكرًا، ولا يجد الوقت الكافي لرؤية حبيبته إلا في عطلة نهاية الأسبوع. وغادرت وردة بيت مارك تيبو لتقيم في أحد المبيتات الخاصة بالطالبات؛ بعد أن تمكَّنت من التسجيل بالجامعة. ففتر الحب العارم الذي عاشاه طيلة أسبوعين، وهما لا ينقطعان عن النهل من ينابيعه. بدأت الحياة الجديدة برتابتها، تتعاقب الأيام متشابهة في ترقُّبٍ وشوق ليومي السبت والأحد. ومنذ أن تسلَّم أول راتب اتفق مع حبيبته أن يقضيا يومي العطلة الأسبوعية في أحد نُزُل المدن المجاورة لمدينة باريس، غابة فرساي، ممرونسي، فنتانبلو... كانت الحياة رغدًا، والمدنية مبهرة، والحب لذيذًا. أيامٌ لم يحلم بها في حياته، ولم يتصوَّر أنَّه يعيشها. كان يعدُّ نفسه للنضال من أجل مبادئ حلمَ بها، لكن الظروف غيَّرت وجهته. ولم ينس أمَّه؛ فقد بعث لها بالمال مُتبعًا طُرُقًا ملتوية حتى لا يتعرف البوليس عن مصدر ذلك المال. كان كل شيء يسير على ما يرام حتى حلَّ شهر ماي، عيد الشغَّالين وعيد الحب عند الفرنسيين.

خرج مع حبيبته في استعراض بهيج شاركت فيه كلّ الحركات اليسارية والنقابية. كان مارك تيبو وزوجته وثُلَّة من رفاقه يتصدَّرون لافتةً كُتب عليها التنظيم الماركسي الذي ينتمون إليه، وكانت وردة ومجموعة من التونسيين كلّهم من المثقفين الطلبة أو الأساتذة الذين فضَّلوا البقاء بباريس ومواصلة النضال ولو بالمراسلة، على العودة إلى البلد وخوض

غمار الكفاح ومواجهة القمع. لم يكن العاتي يعرف أيًّا منهم، لكن وردة قدَّمته باقتضاب على أنه عامل مهاجر.

لم يكن العاتي مرتاحًا داخل خضم تلك البشرية الداعية إلى ثورة العمال؛ لأنه لاحظ أنَّ عدد العمال داخلها كان ضئيلاً. كما لاحظ وجود شاب وسيم يمسك يدَ وردة، ولا ينقطع عن النظر إليها والتحدث معها بصوتٍ خافتٍ وبالفرنسية. لم يستطع أن يتأكد من جنسية الشاب؛ لأنه كان أزرق العينين أبيض البشرة، ذا شعر طويل ينحدر على كتفيه، طويل القامة، لكن ملامحه لم تكن فرنسية. وضع الرجل الغريب يده على كتف وردة وتمادَى يتحدث إليها وسط الهتافات وضجيج المتظاهرين. لم يعد العاتي يهتم بشيء، كانت كل مداركه مركزة على هذا الرجل الغريب، وعلى حركاته، وعلى حديثه الذي يستمع إلى بعض الكلمات منه من حين لآخر. وفجأة طنَّت في أذنه جملة، التقفها العاتي وكأنها صيد ثمين: "بهايم كِيف كل العرب". جذب وردة من يدها وهمس لها: "من يكون هذا الرجل بجانبك؟". نظرت في عينيه ولاحظت مدى اضطرابه فضغطت على يده وهمست: "لا تخش شيئًا إنه ابن خالتي". ثم التفت إلى الرجل بجانبها وقدَّمته بصوتٍ عالٍ إلى العاتي:

- حسيب اسطنبولي طالب في كلية الطب.

مدَّ حسيب يده إلى العاتي، فأعلنت وردة:

- العاتي رفيق من الطبقة الشغِّيلة المناضلة.

هدأ العاتي قليلاً لكنه لم يكن مرتاحًا لتصرفات هذا الرجل مع حبيبته، فقد تمادى في مسك يدها ووضع يده على كتفها.

عندما وصل الاستعراض إلى شارع الشان الزليزي؛ وزحفت جماهير المليون متظاهر على قوس النصر؛ التفت العاتي فرأى ذلك السيل من الرؤوس واللافتات والأعلام، قال في نفسه: "هذه أمة حية". ظلَّ فترة من الزمن مركزًا بصره على الشارع الكبير يعجُّ بالجماهير، يحلم بالبشرية الجديدة التي ستنقذ الجنس البشري من نظام لم يعد يتماشى وطموحات الإنسان في الانعتاق والتحرُّر. لكنه عندما التفت إلى وردة لم يجدها بجانبه.

كانت الفوضى تعمُّ المكان، وقد انتهى الاستعراض وأخذت الجماهير في التفرق في كل الجهات، وفتحات المترو تبتلع أفواج المتظاهرين. لم يتمكَّن من التعرف على أحد، حتى الصف الأمامي الذي كان يضم مارك تيبو قد اختفى في الفوضى العامة. ظلَّ واقفًا في مكانه تتقاذفه الأكتاف حتى خلت الساحة، وانتشر فيها رجال الأمن يعيدونها إلى سابق مهمَّتها، سيلان حركة السيارات.

أسند ظهره إلى السياج الحديديِّ الدائريِّ على فتحة المترو، وظل يترقب، يتصفَّح الوجوه الوافدة على المترو متمنيًا أن يرى حبيبته. لكنها لم تظهر. مرَّت ساعة ثم ساعتان، ولم ير لها أثرًا. كان قلبه يعتصر غيظًا على ذلك الرجل ذي الوجه النسائي، حسيب اسطنبولي، خطفها منه واختفى في أدغال مدينة النور. بعد أن يئس من ظهورها، دخل مقهًى وهتف إلى المبيت الذي تقيم فيه، لكنها لم تكن موجودة. استولى عليه اليأس، ولم يغادر ساحة النصر إلا عندما تقدَّم الليل، واشتعلت الأضواء، وعمَّ الساحة ضجيج السيارات ولفيف السياح. استقلَّ المترو إلى محطة باب كليشي، ثم اندفع في الطريق شبه المظلم إلى أن وصل إلى العمارة، فصعد الطوابق الخمسة، وفتح باب غرفته، وبعد أن أغلقه ارتمى على السرير، وظلَّ يندب حظه التعس إلى أن أخذه النعاس.

◆◆◆

عند الصباح، قبل أن يذهب إلى عمله، هتف لها، لكنها لم تكن في المبيت، قالت له عاملةُ الهاتف:

- أظنُّ أنها لم تنم بالمبيت الليلة الماضية.

وضع السماعة وانصرف إلى عمله كالمعتوه. أنجز شغله كالربوت وهو يفكِّر في ما حصل له، وعند استراحة منتصف النهار عاد يهتف لها، وكان جواب عاملة الهاتف نفسه: "ليست بغرفتها". جُنَّ جنونه، وأكل ساندويتشًا وهو يفكِّر، ثم عاد إلى العمل وهو يفكِّر، وفي المساء هتف من جديد وتلقى نفسَ الرَّد. ثم أعاد الكَرَّة في الليل، ولم يحصل

عليها. يئس وعاد إلى غرفة الطابق الخامس و لم يتناول العشاء. ارتمى على السرير وظلَّ دون حراك يتعذَّب في صمتٍ حتى غفا بعض الساعات، ونهض مع رنين المنبه. تكاسل في فراشه، كان اليوم يوم السبت بداية عطلة آخر الأسبوع، فرك عينيه، ظلَّ يفكّر فترة من الزمن ثم عزم على الذهاب إلى المبيت يترقَّبها هناك. بعد أن حلق ذقنه في الحوض الجماعي للطابق الخامس، ارتدى أحسن بدلة لديه، وخرج إلى الطريق المؤدية إلى باب كليشي، ومن هناك استقلَّ المترو إلى الحي اللاتيني.

عسْكَرَ أمام المبيت بعد أن تأكَّد أنها لم تعد إليه، وظلَّ يترقَّب ساعاتٍ طوالاً، و لم ييأس، سوف تعود ويكون بعدها حديث!. و لم تعد حتى بعد ساعة متأخرة من الليل. وهو متوجِّه إلى المترو تذكَّر مارك تيبو. هتف إليه فلم يجب، ظلَّ هاتفه يرن حتى انقطع الاتصال. ماذا حصل يا ترى؟. أقبض عليهم البوليس كما يحدث عندنا إثر اندلاع المظاهرات؟. لا، هذا غير ممكن في بلد ديمقراطي!. وظلَّ طيلة السفرة من الحي اللاتيني إلى غرفته يلوك أفكاره، متحاشيًا التفكير في أنَّ حبيبته فرَّت مع ذلك المائع، كما يحلو له أن يسميه، حسيب اسطنبولي. لا هذا غير ممكن!. يتمتم داخله كلَّما راوده ذلك الاحتمال.

لأول مرة لم يلتقيا في عطلة نهاية الأسبوع. كيف سيقضي يوم الأحد الحزين في هذا البلد بمفرده دون حبيبته؟. وأمضى يوم الأحد يحتسي الخمر في أحد بارات كليشي ويفكِّر. عند المساء اقترب منه صديق مغربي تعرَّف عليه في أحد المقاهي، فطلب له كأسًا، لكنَّ المغربي قال له:

- العفو لا أشرب الخمر.

- تريد بيرة؟.

- لا، كلاهما حرام.

لم يُعر كلامه اهتمامًا كبيرًا. قال له المغربي بلطف:

- أراك مهمومًا.

لم يجبه. قال له بعد فترة من الصَّمت:

- تلك هي الغربة، عندما يُصبُّ علينا الشوق إلى الأحباب وإلى البلد؛ تصبح كل هذه المدنية قفرًا.

لم يقل شيئًا. وضع المغربي يده على كتفه وقال له بصوتٍ خافتٍ:

- لنتمش قليلاً، لعلَّ الهواء العليل يذيب همومَك.

نهض معه، وبعد أن أنقد النادل خرجا إلى الشارع، وتوجَّها إلى الحديقة العمومية. كان الطقس معتدلاً، والهواء عطرًا، والخضرة تكسو المكان، والمدينة في هدوء. لكن العاتي لم يشعر بكل ذلك، ما زال يفكِّر في حبيبته. سأله المغربي:

- هل أنت متزوج؟.

أجابه بفتور:

- لا.

- تزوَّج، فقد قال رسول الله: "تناكحوا تناسلوا فإني مفاخر بكم يوم القيامة".

بعد فترة من الصَّمت سأله العاتي:

- هل تؤمن بالحب؟.

- الحب خارج الزواج رذيلة. وما انتشار السيدا في هذه المخلوقات إلا نتيجة لما يسمونه الحرية الجنسية. فالمرأة عندهم ينكحها رجلان وثلاثة وأكثر وهي متزوجة. هذه حضارتهم لا تلزمنا في شيء.

تذكَّر العاتي حسيب اسطنبولي وحركاته مع حبيبته في تلك المظاهرة اللعينة، فتنهَّد، ثم سأل رفيقه المغربي:

- هل أنت متزوج؟.

- نعم ولي طفلان.

- وزوجتك تعيش معك؟.

- لا إنها بالمغرب تربي الأطفال.

بعد تردُّد سأله:

- وماذا تصنع في النكاح؟.

- ألم يقل الله تعالى: " فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُوا.؟.

- يعني أنَّ لك زوجة ثانية هنا؟.

- وما العيب وقد حلَّل الله لنا أربعًا؟.

- ويمكنك أن تنفق على زوجتين؟.

- المال الحلال يزكِّيه الله.

- وزوجتك بالمغرب تعلم بأنك متزوج هنا؟.

- ليس لها أن تعلم. أليس الرجال قوَّامين على النساء؟.

قال العاتي في نفسه: "غريبٌ أمر هذا الرجل". بعد فترة من الصَّمت، قال له المغربي:

- عندما ترغب في الزواج دون التزام قانوني سأتدبر لك امرأة لا تطلب منك سوى الستر والعيش الكريم. زواج على العُرف يشرف عليه مسلمان وكفا بالله حسيبًا.

وانطلق المغربي يشرح للعاتي مدى قيمة الإسلام والدعائم التي أتى بها لحياة اجتماعية وروحية متوازنة، وكيف أنَّ المسلمين تخلوا عن تلك الدعائم فهوى المجتمع إلى التخلف والانبتات، وكيف أنَّ حضارة الغرب تغزونا بقيمها المادية فتقوِّض مجتمعاتنا وتجعلنا مُستلَبين.

بدأ الليل يعمُّ الحديقة، وقد اشتعلت فوانيسها وكسا الخضرة ضوءٌ رصاصيٌ باهتٌ حرَّف ألوان وأشكال النباتات. غادر العاتي وصديقه الحديقة، وفي الطريق دعاه المغربي إلى العشاء في بيته. اعتذر العاتي، ووعده أنه سيلبي دعوته في مناسبة أخرى.

وحالما افترقا هتف إلى المبيت. قالت له عاملة الهاتف:

- اهنأ لقد وصلت لتوِّها.

لَّما سمع صوتها خفق قلبه بشدَّة. حدثها بهدوء وطلب منها سبب تغيُّبها كل هذا الوقت عن المبيت. سألته ضاحكة:

- افتقدتني؟.

- كدت أموت شوقًا إليك.

- بحثت عنك في كل مكان عندما تفرقت المظاهرة، لكنك اختفيت داخل الجماهير. دعانا مارك إلى قضاء بعض الأيام في ضيعة على ملك أحد أصدقائه؛ فلبيت الدعوة وقضيت أيامًا عذبة لم ينقصني إلا أنت، لكن حسيبًا كان معي فخفف عني الشوق إليك.

كان قلبه يخفق بشدة، وقد احمرَّ وجهُهُ، وشعر بالضيق فقال لها بصوت حزين:

- متى نلتقي؟.

- غدًا بعد أن تغادر عملك.

- أين؟.

- في مقهى كلوني.

قفل الخط، وخرج حاني الرأس وكأنه تلقَّى صفعات. كان يرتعد من الغيظ. أخذ يتمتم: "لقد فعلها المائع حسيب اسطنبولي، خطف مني حبي الأول!.".

مقهى كلوني معروف لدى طلاب الحي اللاتيني، غير بعيد عن الجامعات: السربون، وكلية الطب، والمدارس العليا، ويحتل مكانًا استراتيجيًا في مفترق الطريقين الرئيسيين للحي، شارع سان جرمان وشارع سان ميشال. والمقهى كبير، وبه أماكن يمكن للعشاق أن يختلوا داخلها بعيدًا عن الأعين. كان العاتي قد التقى وردة عدَّة مرات في هذا المقهى. لمَّا وصل ودخل يبحث عن مكان منعزل، كانت قد سبقته. أومأت إليه فمشى نحوها وهو يردِّد داخله الكلام الذي يريد قوله. لكنه حالما احتضنته وقبَّل ثغرها الندي نسي كل العتاب الذي كان يملأ فؤاده.

جلسا على أريكة جنبًا إلى جنب، احتضنته ومرَّغت وجهها على صدره، ثم سألت:

- أين كنت تائهًا وأنا أبحث عنك في كل مكان؟.

- لم أغادر المكان الذي كنا نقف فيه قُبالة قوس النصر.

- لكننا تفرقنا، وحسبتك تبعتنا.

- وإلى أي مكان ذهبتم؟.

- مكان يُدعى أنجي في مقاطعة لدو سافر. المكان جميل ورائق، والضيعة كبيرة يربي فيها صاحبها الأبقار. والأكل جيد، والشراب لذيذ. كانت أيام خارج الزمان، لم ينقصني إلا أنت.

قال بحدَّة:

- لقد عوَّضني حسيبٌ!.

- لا أظنُّك تغار من حسيب؟.

- ما له حسيب أليس رجلاً؟.

- إنه ابن خالتي وهو في مقام أخي.

ساد بينهما صمت ثقيل. عندما قدم النادل، طلب القهوة وطلبت كأس بيرة. قال معاتبًا:

- لم أعرفك تحبين البيرة!.

- وشربت الخمر حتى سكرت. أليس من حقي أن أكون مثلك أفعل ما يطيب لي؟.

كاد أن يقول لها: "إنَّ مثل تلك الأعمال لا تليق بفتاة عربية"؛ لكنه أحجم عن الكلام ولاذ بالصَّمت.

مسكت بيديه ووضعتهما على وجنتيها وقالت:

- انظر مليًّا في عينيَّ فسترى مدى حبي لك، ولكن ابحث في عقلي فستكتشف مدى تعلُّقي بالحرية. لقد تحرَّرت يا العاتي من قيود كبَّلت جنسي منذ بداية التاريخ. أنا حُرَّة من كل قيود المجتمع، وقيود الدين، وقيود الأسرة والسياسة والرجال والعرب والإفرنج وحتى الله. هل تفهم ما معنى أن تكتشف امرأة الحرية؟.

صمت قليلاً ثم قال:

- للحرية حدود.

- الحدود الوحيدة التي أعترف بها ألا أكون سببًا في الإضرار بغيري.

- ولا بنفسك.

- وما هو الضرر أن أشرب كأس بيرة؟.

- ربما تسكرين وتفقدين السيطرة على نفسك.

- ما دمت معي فلن أسكر.

- لكنك سكرت أثناء إقامتك في أنجي.

- كنت بين أصدقاء، و لم يتجرأ أحد على استغلال سكرتي.

- حتى حسيب؟.

- لو كنت أرغب في حسيب لما انتظرت حتى ألاقيه في باريس. لست مغرمة بأمثال حسيب، أنا عاشقة العاتي وكفى.

- وأنا عاشقك إلى حدِّ النُّخاع، ولكني أغار عليك حتى من الذباب الذكر كما يقول مثلنا.

- لم تتخلَّص بعد من ثقافتك الشرقية، عليك أن ترقى بعقلك يا العاتي حتى تتحرر من ثقافة الكبت والاستعباد. إني أشعر أنَّك تريدني أن أكون ملكًا لك...

- أبدًا، لم أفكِّر في ذلك، لكنِّي أحبُّك بغريزتي، والغيرة لا علاقة لها بالثقافة...

- لكن العقل يحرِّرك حتى من الغريزة، فتصبح ملك نفسك كما أحاول أن أكون.

لم يكن يشاطرها الرأي فهذه الأمور معقَّدة بالنسبة إليه. الحرية تحكمها قوانين، والقوانين يضعها الرجال، ويخضعونها لمآرب خفية، وتستغلُّ من قبل السلطة الحاكمة. والمرأة لها خصوصية، فهي تنجب الذرية وتربيهم، وتسهر على البيت وتحميه من التشتت، فلا يمكن أن تكون مثل الرجل، والمساواة ليست التطابق، كل له خصوصيته. المرأة لا تشرب الخمر حتى لا تؤثر على تربية أطفالها ولا تنحدر إلى الدعارة، فصيانة شخصها هو في حدِّ ذاته حرية... كل هذه الأفكار كانت تخامره، لكنه لم يصرِّح بها، فسوف تنعته بالبرجوازي والإقطاعي والرجعي وسيفقد ثقتها وربما حبَّها. الحب أثمن شيء عنده، وحبها أخرجه من الظلمات إلى النور.

سألته بعد فترة طويلة من الصَّمت:

- ما لك صامت؟. قُل شيئًا، عبِّر عن أفكارك، اخرج من جلدك، إنك في بلاد الحرية!.

ضمَّها إليه، ثم ألقى نظرة خاطفة على القاعة الفسيحة للمقهى، وقبَّلها قبلة جامحة. وظلَّ ينظر إلى وجهها المورد.

قال لها عندما خرجا من المقهى:

- ألا ترغبين في قضاء الليلة في غرفتي؟.

- نلتقي كالعادة يوم السبت، ونسافر إلى مكان هادئ ورومانسي يحلو فيه الحب.

كانت رغبته تتأجَّج داخله، فكان ردُّها بمثابة الدُّش البارد. همس لها:

- ارحمي القلب المتيَّم.

ضحكت وقالت بدلال:

- قلت يوم السبت.

(٣٩)

خرج بُرهان من السجن بعد عفوٍّ رئاسي، وقد أمضى على وثيقة يلتزم فيها بالكفِّ عن العمل السياسيِّ السريِّ، وباحترام القوانين التي تنظِّم التجمعات السياسية في البلاد. والتزمت الدولة نحوه بإعادته إلى عمله وصرف جرايته طيلة الفترة التي قضاها سجينًا.

عاد إلى بيته، ولقي حنان زوجته في انتظاره. كانت حاملاً قبل أن يودَع السجن، ولمّاَ عاد إلى البيت وجد ابنه في سرير الرضيع ينام منشرحًا. نظر إليه من بعيد خوفًا من أن يوقظه؛ لكنَّ زوجته حملته وقدَّمته إليه معلنة:

- هذا أنيس، آنسني في غيابك.

حمله بين يديه، قرَّب وجهه إليه بحذر، وقبَّله على خدِّه، وقال له بصوتٍ خافت:

- تشرَّفنا سي أنيس.

ثم أعاده إلى فراشه. جثيا حذو سرير الرضيع ينظران إليه ببشاشة. لقد فرح بُرهان برؤية ابنه، ونسيَ كل المآسي التي لاقاها في السجن، عذبوه، واقتلعوا منه الحقائق التي كانوا يريدون معرفتها، ثم بعد محاكمة صورية أنزلوا به حكمًا بخمس سنوات سجنًا، لم يقضِ منها سوى سنة ونصف. كان يتحسس الدنيا وكأنه وُلد من جديد. ما زال يعيش في عالم الزنزانة، وما زالت روائحها تطغى على مداركه، وأبعادها تتراقص في بصره. فنور الشمس يؤلم عينيه، والهواء النقي يشعر به يتسرَّب في رئتيه، ودفء المكان يحس به كالرداء الناعم. قالت له زوجته:

- هل تريد أن تتغدَّى قبل أن يحلَّ الزوَّار لتهنئتك على خروجك؟.

- ليست لي رغبة في الأكل.

- هل تريد عصيرًا؟.

- لا أرغب في شيء سوى أن أستريح، وأمتلئ ببهجة الدنيا، كنت في عالم الرطوبة والظلام والروائح الكريهة.

وعند المساء حلَّت قوافل الزوَّار، جاءت من كل صوب لتهنئته: أفراد عائلته، وأصهاره، وزملاؤه في الكلية، وأصدقاؤه من النقابيين، ورواد حانة الكون. وكانت زوجته تستقبلهم بترحاب، وتمدُّ لهم المشروبات والحلويات. وتحوَّل البيت إلى قاعة اجتماعات، وانتشرت حلقات الأحاديث وتبادل الأخبار داخل الصالون وفي الممرات وحتى في الحديقة. وكان بشوشًا مع كل الناس، ولم يحدثه أحدهم عن السجن ومآسيه. كانت تلك الأشياء من المسكوت عنها.

وعند نهاية المساء، وقد غادر كل الزوار البيت، حلَّ رزق خال زوجته. جاء بمفرده، صافحه بحرارة، وقال له مسليًا:

- الحبس للرجال. بورقيبة وما أدراك شد الحبس!.

لم يقل كلمة، حنَى رأسه متحاشيًا نظرات صهره. أخذ رزق ينادي بأعلى صوته:

- يا منيرة، يا منيرة!.

لَمَّا قدِمَتْ تحمل طبق الحلويات والمشروبات، قال لها:

- قل لزوجك أن يذبح لنا خروفًا. بقية جماعته ما زالت في السجن.

ثم لَمَّا اقتربت منه، همس لها:

- وقف له الرجال.

سمع بُرهان ما همس به صهره؛ لكنه لم يقل شيئًا. ظلَّ يترقب بفارغ الصبر أن يغادر هذا الرجل بيته. ولَمَّا همَّ رزق بالمغادرة، همس لبُرهان:

- لي حديث هام سوف أتباحث فيه معك؛ بعد أن تستريح.

واستراح، ولم يغادر بيته طيلة أسبوع كامل. كان يكره الخروج إلى الناس، فهو يعتبرهم منافقين كلهم، لا يصلحون للحياة العصرية، يعيشون خانعين لإرادة رجل عجوز، لم

يعد يصلح لحكم البلاد. بشرية فقدت الشجاعة الكافية لتقول كفانا حاكمًا لا يفقه ما يدور حوله. لقد زعزعت أشهُر السجن كل طموحاته، وكل قناعاته، وكل ما بناه من أجل حياة سياسية متطوِّرة، تواكب تحوُّلات العصر. كان يردِّد داخله وهو ينظِّم أوراقه، ويضعها في صناديق ليرمي بها في دهليز البت: "لم تخلق هذه البشرية لبناء المجتمع الحديث، سواء كان اشتراكيًا كان أم رأسماليًا. عاشت حكم الاستعباد طيلة قرون، فلا بُد لها من قرون لتعرف الديمقراطية والاشتراكية، والحرية الفردية. كنا كمن يحرث في البحر، لم نحقق أيَّ تراكم تُبنى عليه الأجيال القادمة".

طلب من زوجته أن تمدَّه بالجرائد التي جمعتها أثناء محاكمته، وأخذ يتصفَّحها، يقرأ المقالات التي كان أصحابها يكيلون الشتائم الرخيصة للتنظيم ولجماعته، ويتملَّقون الحاكم كما كان يفعل شعراء القرون الوسطى، وهو يردِّد داخله: "صحافيون مرتزقة، لا يعتقدون في ما يقولون لكنهم يدافعون على قوت يومهم، أغبياء الإعلام المتخلف". ولَّما تثبّت في أسماء أصحابها اكتشف أنَّ كلَّهم من المثقفين، أساتذة الجامعات، كُتاب، وموظفين، يعرف بعضهم ويسمع عن البعض.

أخذ يراجع ما سطَّره لحياته: لن يعود إلى قيادة التنظيم، ولن يسمح لنفسه بتعاطي السياسة في بلاد يمتلك فيها الحاكم كل المنابر، وكل القنوات، وكل الهياكل السياسية. الدولة ليست ملكًا للشعب؛ بل الشعب هو ملك الدولة والدولة ملك لرجل واحد، وهذا الرجل فقد السيطرة حتى على نفسه. ولن يسمح لنفسه بالتشرد داخل الحانات، إذْ له ابنٌ لا بُد أن يترك له ثروة حتى يعيش في رفاه، ويتمتَّع بالحياة. لن يغادر البلاد كما فعل بعض رفاقه، هذا البلد جميل، وطقسه معتدل، وأناسه بشوشون، ويحلو فيه العيش بشرط ألا يطمح ليكون فاعلاً في ميدان السياسة، وأن يكون له بعض المال. كان السؤال المؤلم الذي لم يطرحه على نفسه: "هل يمكن لي أن أتحوَّل إلى انتهازي مثل رزق؟". لقد أصبح رزق من أعيان البلد، ومن أغنيائها، ولم يكن يمتلك فلسًا واحدًا عندما نزح من الساحل إلى أحواز العاصمة، ولم يكن يمتلك من الثقافة سوى مستوى السنة الثالثة ثانوي، وأصبح اليوم يدير شركة من أكبر شركات البناء في البلد، واسمه على كل

الألسن، يشتمونه غائبًا، لكنهم يطأطئون الرؤوس في حضرته. هذا ما أنتجه نظام الحكم ويتباهى به على أنَّه الاستقرار، إنه الاستعباد. أفكار سوداء لرجل ذاق قسوة التعذيب ومرارة الحبس، وتنكُّر الناس؛ لكنها أصبحت الواقع الجديد الذي لا بُد له أن يتعامل معه إذا ما كان يرغب في العيش الرغد في هذا البلد.

وهو يطالع الصحف، تفطَّن إلى حملة أخرى، الحركة الإسلامية، وهي تنظيم سياسي كان يلاطفه النظام؛ لأنه كان يحارب تنظيمه. كان يدعوهم بالظلاميِّين، وها هي أبواق النظام تستعمل شعاراته، وتضيف عليها شعار "الإخوانجية"، تسميةٌ أتت بها صحافة النظام ليسهل عليها زجّ هذا التنظيم أيضًا في خانة أصحاب الأيديولوجيات المستوردة. كانوا يحاربون الشيوعية على أنها نتاج خارجي، وها هم اليوم يحاربون الإسلاميين على أنهم أيضًا يمثلون أفكارًا أجنبية عن مجتمعنا المتسامح الخانع لسلطة رجل واحد أحد. والناس يتفرجون!. بل يساقون كالقطيع!. ثم انفجر بصوتٍ عالٍ وقد استولى عليه الغضب: "اللعنة على السياسة والسياسيين والناس أجمعين".

فزعت زوجته، ونظرت إليه يلطم رأسه كالمعتوه، احتضنته وحاولت مواساته، فدفعها وعاد يلعن ويزبد. ظلَّت تنظر إليه في حيرة، ثم قالت بصوتٍ خافتٍ:

"مسكين لم يخلق لكل هذه المعاناة"

♦♦♦

لَّما قرَّر أن يخرج إلى الشارع، ويلتقي بالناس، ويعود إلى التدريس بالكلية، غيَّر طريقة لباسه. ارتدى كسوة داكنة جديدة، اقتنتها له زوجته من مغازة "آغة" الذي كان يعرض الملابس الراقية المستوردة، وربطة عنق من الحرير، وقميصًا ناصع البياض، ومحفظة جلدية، ونظَّارات سوداء. ركب سيارته، وانطلق يشق شوارع العاصمة كالسائح، يلتفت يُمنةً ويُسرةً، يدفع السيارة ببطء غير عابئٍ بصفارة الشرطي ولا بضجيج السيارات وراءه. أوقف سيارته في أحد الأنهج الفرعية غير بعيد من شارع بورقيبة، ثم خرج إلى الشارع

الكبير يمشي ببطء، يتفحَّص المارَّة، وواجهات المغازات، ورواد المقاهي المنتشرة على قارعة الطريق. بدأ جولته من ساحة إفريقيا، متوجهًا إلى باب فرنسا، متنقلاً على الرصيف الأيمن للشارع حتى يتجنَّب مقرَّ وزارة الداخلية الذي كانت له معه ذكريات مؤلمة.

عند مقرِّ أحد البنوك دفع الباب ودخل. اقتنى بعض النقود، وضعها في محفظة نقود جلدية، وخبأها بعناية في جيب سترته الداخلي، سوَّى ربطة عنقه ونظاراته، ثم خرج إلى الشارع ليتمم جولته. كان يقف أمام كل المقاهي الكثيرة التي تعترض طريقه، ينظر إلى روادها، وتعرَّف على بعضهم؛ لكن أحدًا لم يتعرَّف عليه. عند حانة "الكون" ظل واقفًا فترةً من الزمن، همَّ بدفع الباب والدخول؛ لكنه تراجع وأتمَّ جولته في الشارع الكبير حتى وصل إلى مشارف المدينة العتيقة. دار على اليمين ودخل شارع المنجي سليم الضيق المزدحم، ثم توجَّه نحو ساحة محمد علي. كان بعض العمال متجمعين، وقف ينظر إليهم من بعيد، ثم واصل طريقه إلى شارع روما. تردّد قليلاً قبل أن يدخل مقر جريدة "لاكسيون"، وفي باب الجريدة اعترضه الشاويش فقال له بصوتٍ خافت:

- سي الناصر موجود في مكتبه؟.

أومأ له الشاويش برأسه، فقال له:

- قل له: بُرهان الشحمي.

انطلق الشاويش وظلَّ بُرهان يترقب.

سي الناصر كان من الحزبيين القلائل الذين كان يرتاح إليهم بُرهان، كان صديق الصبا، وتربيا في حيٍّ واحد في قرية صغيرة من قرى الساحل. ولمَّا سافر إلى باريس لمزاولة تعليمه العالي وجد سي الناصر يدرس هو أيضًا. أمَّا بقية المثقفين الحزبيين الذين تعرَّف عليهم سواء في باريس أو في الجامعة في تونس فكلُّهم أصحاب "الصبة" كما كان ينعتهم. يتعاملون مع مخبري البوليس في مقابل بعض الامتيازات، وسفرات الدراسة، ونشر المقالات في صحافة الحزب التي يُدفع لأصحابها بعض المبالغ المالية، خلافًا لبقية الصحف التي تبتز المثقفين.

خرج الشاويش ومن ورائه رجل أسمر الوجه، قصير القامة، غير متأنّق الهندام. صافح بُرهان بحرارة وقبّله على الخدين وأدخله مكتبه. أجلسه على أريكة مريحة وجلس قربه:

- لم أتصوّر يومًا أنّك تأتي إلى هذا المكان.

- ها أنا أتيت، هل هذا يزعجك؟.

- أبدًا . أنا مسرور بزيارتك. كم مضى على آخر لقاء لنا؟.

- كان في باريس عندما حضرت تقديمك لأطروحتك، أليس كذلك؟.

- يعني عشر سنوات.

وساد الصّمت بينهما. أخرج بُرهان من جيب سترته بعض الأوراق ومدّها لصديقه. ثم قال له:

- أريدك أن تنشر هذا المقال.

كان المقال يصب في الحملة القائمة ضد التيار الإسلامي، (الظلاميون) كما كان ينعتهم. لم يكتب المقال من أجل التعبير عن رأيه في تلك الجماعة؛ بل كان توطئة تمكّنه من التقرب إلى النظام، وتخدم خطّته الجديدة في الوصول إلى الثروة في أقرب الآجال وبأحسن السُبل.

وضع المقال على المكتب ثم سأله:

- ما الجديد؟.

- كما تعلم خرجت من السجن، وسأعود إلى التدريس هذا المساء.

كان سي الناصر متضايقًا، فبالرغم من أنّه لم يكتب ولو مقالاً واحدًا ضد تنظيم صديقه، إلا أنّ الصحيفة التي يشرف على تحريرها كانت قد ساهمت في الحملة، ونشرت مقالات تدعو إلى تسليط أقسى العقاب على المارقين على القانون، والصائدين في الماء العكِر، والموالين للخارج، العابثين بمكتسبات البلاد... إلى آخر الألفاظ الممجوجة التي كانت تُردَّد ضدَّ كل المعارضين لنظام الحكم. ولم يرغب سي الناصر في بحث الموضوع مع صديق الصِّبا، والبوح له بموقفه الذي لا يتماشى تمامًا مع موقف النظام. كانت البلاد

على قاب قوسين من الفوضى، وقد أصبح البوليس السياسي يراقب كل أجهزة الحزب والدولة. طلب لصديقه القهوة، وسأله عن أحوال أسرته، ثم ودَّعه بحرارة قائلاً:

- لا تقلق، سوف تتبدَّل الأحوال.

ثمَّ همس له:

- أظن أننا نعيش نهاية الحكم، فكن حذرًا!.

فهم جيدًا ما كان يعنيه صديقه. نهاية الحكم واضحة للعيان، وقد حدَّثه أحد أصدقائه- له علاقة بإحدى السفارات الأجنبية- أن عددًا من موظفي السفارة قد حزموا حقائبهم استعدادًا للرحيل قبل أن تعمَّ الفوضى البلاد. لكنَّه متيقِّنٌ أنَّ القوى العظمى لن تسمح بالفوضى في بلد يوجد على بعد مائتين وخمسين كيلومتراً من أوروبا. هذه الأشياء بديهية لمن يعرف الجغرافيا السياسية.

رجع إلى سيارته وتوجَّه إلى المركِّب الجامعي، وهو متيقنٌ أنَّ التاريخ لم تعد تصنعه الشعوب الضعيفة؛ بل القوى العظمى. وهذه القوى عادة ما تكون على علم بالتغيرات، وهي التي تدفع بها، وربما تختار من يصلح لمسك زمام الأمور حتى تبقى الأمور في صالحها. هذه قناعاته الجديدة، وصل إليها عن رويَّة، ومحَّصها طويلاً وهو يقبع في السجن، وأصبحت جزءاً من تفكيره وهو يعيدها على نفسه طيلة الأيام التي قضاها يستريح في بيته. وعلى مقتضاها سطَّر حياته الجديدة، وهو يصبو إلى أن يصبح ثريًا كيفما كانت الوسيلة للوصول إلى الثروة.

(٣٠)

لَّما كان العاتي عائدًا إلى غرفته، مرَّ أمام المقهى المغربي، وحيّا صديقه الوحيد الذي تعرَّف عليه هنا، فخرج إليه بشوشًا وصافحه بحرارة، وقال له:

- كيف حالك يا العاتي؟.

- بخير.

- متى تلبي دعوتي للعشاء؟.

- في مناسبة أخرى إن شاء الله.

- اسمع، سأدعو إخوانًا من المشرق يوم الجمعة، هل بإمكانك أن تأتي معهم؟..

صمت العاتي قليلاً، ثم قبل الدعوة.

خرج العاتي في مساء يوم الجمعة من عمله، وأسرع إلى غرفته ليلبس قميصًا أنيقًا، ثم توجه إلى المقهى ليجد صديقه المغربي في انتظاره. لم يكن بمفرده؛ إذ كان يجلس معه رجلان طويلان أسمران، ملتحيان. قدَّم المغربي للعاتي صديقيه:

- سلاَّم وحامد، أخوان من العربية السعودية متطوِّعان من هيئة الدعوة والإرشاد.

ثم قدَّم لهما العاتي، فصافحاه بحرارة. وجلسوا يشربون شايًا أخضر قدَّمه لهم النادل في إبريق من الفضة. تمادى المغربي يتحدث عن صديقيه السعوديين:

- الأخوان قَدِمَا من السعودية لتحسين معرفتهما باللغة الفرنسية، وسوف يسافران إلى إفريقيا لنشر الدين الإسلامي.

سألهما العاتي:

- ومن ينفق على مهمتكما؟.

أجاب حامد وهو أكبرهما سنًا:

- جمعية الدعوة والإرشاد.

- ومن يموِّل الجمعية؟.

- المحسنون وكل من يرغب في القيام بواجب مقدَّس عند كل المسلمين، وهو نشر الدعوة المحمّدية.

صمت حامد بعض الوقت ثم عاد يقول:

- كان أجدادنا في الماضي ينشرون الإسلام بحدِّ السيف، أمَّا اليوم، فنحن ننشره بالدعوة إلى المعروف والنهي عن المنكر، وهو أضعف الإيمان.

سأل العاتي مستغربًا:

- ألا تجدون مضايقة من الحكومات الإفريقية؟.

- لنا وسائلنا الخاصة للاندماج في النسيج الاجتماعي الإفريقي حتى نتمكَّن من الوصول إلى أهدافنا دون ضجيج، ولا كثرة خُطب. سلاحنا الوحيد هو كلمة الله، وسيرة رسوله.

أخذ السعودي من محفظته كتابًا مسفَّرًا، ثم مدَّه للعاتي:

- هذه ترجمة باللغة الفرنسية لكتاب الله.

ثم مدَّه بكتابٍ ثانٍ:

- وهذه مجموعة من الأحاديث النبوية مترجمة إلى اللغة الفرنسية. يمكنك أن تبقيهما لديك لتَطَّلع عليهما.

سأل المغربي العاتي:

- هل تحفظ القرآن؟.

أجاب متضايقًا:

- أحفظ بعض السُّور القصيرة لا غير.

- سوف أهديك مصحفًا وصحيح البخاري حتى تتعرَّف عن كثب بما جاء به ديننا الحنيف

قال له سلاَّم متحمِّسًا:

- لقد جاء ديننا بأرقى قيم الإنسانية، وروح التسامح، والمساواة بين البشر، غير أنَّ المسلمين تخلوا عن تلك القيم، وتعصَّبوا للشعوبية، والتفوا حول حُكام جهلة لا يفقهون من الدين شيئًا، فساء حالُهم، وتخلَّفوا.

أضاف المغربي على نفس الوتيرة:

- ولَّما تخلفوا استعمروهم، واستعبدوهم، وحتى عندما خرج الاستعمار ترك زبانيته ليواصلوا استعباد الشعوب الإسلامية المستضعفة.

لم يكن العاتي متعوِّدًا على هذا النوع من الخطاب، فعلاقته بأهل الدين كانت دائمًا متوترة. كان الإمام في حيِّه رجلاً منافقًا، عضوًا في الشُعبة، يتجسَّس على المُصلين. وكان تديُّن أمِّه بسيطًا، كان مجرد طقوسٍ لا تفقه منها الشيء الكثير؛ لكنَّ عقيدتها في سيِّدي محرز أقوى من عقيدتها في الله. وكان الشبان من سكان حيِّه لا يقيمون وزنًا للتدين، رغم خوفهم من عقاب الله. ولم تكن قراءاته كثيرة في المعرفة الدينية. ولَّما دخل معترك الحياة السياسية كان كل معارفه لا يؤمنون بنجاعة الدين في تلك الأمور. نشأ خارج العقيدة، ولم يرشده أحد إليها. واليوم يكتشف خطابًا حماسيًا، يدغدغ مشاعره، ويثير عقله. هذان الرجلان، قادمان من بلاد البترودولار، فضَّلا التشرد في الأدغال الإفريقية على الحياة السهلة ونعيم الثروة، وهما يعتقدان أنَّهما يواصلان رسالة أجدادهما في نشر الدين الإسلامي، ويرجوان من ذلك السعادة في هذه الحياة من خلال ما سيحققانه من إنجاز، والحياة الآخرة برضا الله عنهما.

بعد صمتٍ طويل سأل العاتي السعوديين:

- وهل يقبل الأفارقة بسهولة الامتثال إلى طقوس الإسلام الصعبة؟.

أجابه حامد:

- الدين رحمة للمؤمن. عندما تصل إلى القناعة بأنَّك دخلت تحت ظلِّ الله، وأنَّ نفسك ترفرف في جنان مُلكه، تكون الطقوس التي تتحدَّث عنها وسيلة لتخليص الروح من

براثن مادية العالم، والارتقاء إلى عالم الروح الإلهية، فتحلو للمتعبِّد تلك الفترات التي يخصصها للاتصال بربه، ولزيارة عالمه الرحب الطاهر.

- وهل يصل الناس البسطاء لفهم هذه الفلسفة المعقَّدة؟.

أجاب سلاَّم بحماس:

- وهذا ما جنَّدنا أنفسنا له، وتعلَّمنا كيف نخاطب العامة والمثقفين. كلام الله نعمة على البشرية، يخلِّصها من قسوة الحياة المادية ومن الجشع الذي يعمِّر قلوب الناس.

دعاهم المغربي إلى بيته فغادروا المقهى خلفه، وتبعوه بين شوارع مدينة كليشي حتى وصلوا عمارة صغيرة منعزلة توجد خارج المدينة تحيط بها الأراضي المنتشرة عليها أكداس الحجارة وبقايا الحظائر. دخلوا العمارة، لم يصعدوا الدرج؛ بل اتَّبعوا ممرًا شبه مظلم أدَّى بهم إلى فسحة يشع فيها نور الشمس وتحدها غرفتان على اليمين وأخريان على اليسار.

قال لهم المغربي:

- هذا بيتي أقيم به مع زوجتي. أعمل كحارس للعمارة وزوجتي تعينني على تنظيفها، وأتقاضى على ذلك أجرًا يمكِّننا من العيش المحترم.

أدخلهم إحدى الغرف، أجلسهم على حشية منتشرة على حصير يغطي أرضية الغرفة، وضع أمامهم مائدة قصيرة، ثم خرج، وعاد بعد حين حاملاً بين يديه قنينةً وأكوابًا. وضعها على المائدة وصب لهم عصيرًا أصفر، ودعاهم إلى الشُرب. كانت الغرفة متواضعة الأثاث لكنها نظيفة وتزيِّن جدرانها صورًا لمكَّة والمدينة في أطر مذهبة، وأخرى لأسماء الله الحسنى، وفي أحد أركان الغرفة توجد خزانة تصطف داخلها كُتُب دينية جميلة الأغلفة، كانت تظهر من خلال الباب البلوري للخزانة.

حدَّثهم المغربي عن حياته في بلاد الإفرنج كما يقول، ثم تغيَّب فترة من الزمن وقدِمَ يحمل بين يديه سُفرة عليها قصعة ملآنة بالكُسكُسي، وصحونًا بها مأكولات متنوعة. تعشوا، يأكلون من نفس الإناء، ومباشرة من القصعة كما يفعل الناس في حيِّ العاتي. وبعد العشاء أتى بسفرة أخرى فضية وعليها آنية الشاي: إبريق فضي، وكؤوس مذهبة وبعض الحلويات المغربية في آنية من الفخار. أكلوا الحلويات، وشربوا الشاي والعصير، وتحدَّثوا

كثيرًا عن الإسلام والمسلمين، ولكنهم لم يطلبوا من العاتي أن يتَّبع معتقداقم، اعتبروه مسلمًا مثلهم، يشاطرهم العقيدة والحماس لنشر دين الله. رغم أنَّ المغربي يعرف جيدًا أنَّ العاتي لا يتِّبع فرائض الدين ولا يحترم محرماته. والعاتي كان مسلمًا بالوراثة، لا ينقصه إلا شيء من الوعي ليتحوَّل إلى مناضل من أجل رفع راية الإسلام كما كان يكرِّر المغربي.

♦♦♦

في نفس ذلك اليوم دعا حسيب اسطنبولي وردة إلى العشاء في مطعم فخم في الحيِّ اللاتيني. كان ذلك اليوم عيد ميلادها. لم يتفطَّن إليه العاتي، لأنه لم يكن يقيم وزنًا للاحتفال بتلك المناسبة. لم يتعلَّمها عندما كان صبيًا؛ فهي عادة لا يعرفها أهل حيه، و لم تدخل تقاليدهم بعد. و لم يحتفل بها يومًا في حياته، رغم أنَّ وردة لَّمحت له أنَّ كل الناس يحتفلون بعيد ميلادهم.

قدِمَ حسيب اسطنبولي إلى مبيت الفتيات، وهو مبيت تحت إشراف الكنيسة المارونية اللبنانية، يوجد في الحي اللاتيني شارع السان. تقدَّم إلى قاعة الاستقبال فبادرته راهبة عربية بزيها الرَّمادي المُحلَّى بقميص ناصع البياض، بالسؤال:

- هل السيد يرغب في مقابلة إحدى الطالبات؟.

ابتسم لها وقال:

- أريد مقابلة قريبة لي تُدعى وردة الباشطبجي.

أدارت الراهبة أرقام الهاتف وتحدثت بصوتٍ خافتٍ، ثم التفتت إلى حسيب وقالت مبتسمة:

- سوف تحضر بعد حين، يمكنك ترقبها بالداخلِ في المقهى.

ظلَّ يترقبها بالمقهى الذي كان شبه خالٍ إلاَّ من بعض فتيات منعزلات يتجاذبن أطراف الحديث همسًا فلا تُسمع أصواقمن. حالما دخلت وردة المقهى فتح محفظته الكبيرة، أخرج منها وردة حمراء ملفوفة في السلوفان، مدَّها إليها، وبعد أن قبَّلها على خدَّيها همس لها:

- عيد ميلاد سعيد.

قبَّلته بحرارة وقالت بالفرنسية:

- شكرًا حسيب، لقد نسيته، تلك هي الغربة!. لقد نسيَتْه حتى أسرتي، لم يهتف لي أحد ليذكِّرني به.

أسرع يطلب:

- هل بإمكاني أن أدعوك للعشاء هذا المساء؟.

- ولماذا كل هذا العناء؟.

- ألست ابنة خالتي؟. ألسنا في الغربة نحن الاثنان؟. هيَّا هيِّئي نفسك، لقد حجزت في مطعم جميل وقريب من هنا.

- هذه مفاجأة سارة لا محالة، ولكنِّي لم أستعدّْ لها.

- سأعود بعد ساعتين تكونين قد هيَّأتِ نفسك.

تركها في حيرة وخرج. وعندما رجع وجدها تنتظره أمام باب المبيت. كانت تلبس فستانًا أسود طويلاً مقوَّرًا، وحذاءً ذا كعب رقيق عالٍ. سَرَّهُ عُري الكتفين والرقبة، وبعض من النهدين، كما لاحظ الطلاء الأحمر على الشفتين. قال لها مُطريًا:

- لم أرك أبدًا بمثل هذه الأناقة!.

- ألم تقل أنَّك حجزت في مطعم فخم؟.

- بالطبع!.

- لكل مقام مقال.

- أنت أذكى فتاة في عائلتنا.

احمرَّ وجهها لكنها قالت:

- لا تبالغ كثيرًا، لم تكن تراني طيلة سنين، ماذا حصل اليوم؟.

- لم يحصل شيء، فكَّرت أن أهوِّن عليك الغربة وأنت في سنتك الأولى، ثم إننا أقرباء أليس كذلك؟.

مسكت بيده واندفعا إلى الشارع الكبير، تمشي بحذر خوفًا من أن تقع لفرط علوِّ الحذاء الذي لبسته لأوَّل مرة. لقد استعارته من عند صديقة لبنانية تقطن نفس المبيت، كما استعارت كذلك الفستان. لم تكن مغرمة بالأناقة، لكن هذه الليلة، في عيد ميلادها أرادت أن تكون ككل الفتيات الباريسيات: أنيقة وجذابة.

وصلا أمام المطعم، كان حقًا فخمًا، تحفُّه الأزهار من كل جانب، ويشعُّ داخله نور برتقالي. كانت لافتة حمراء تتراقص على جانبيها فوانيس صغيرة كتب عليها اسم المطعم: "الوقت الضائع". حالما تخطيا عتبة المطعم استقبلهما نادل أنيق بكسوته السوداء وقميصه الأبيض وربطة العنق السوداء على شكل الفراشة. ابتسم لهما وسألهما إن كانا قد حجزا، أعلن حسيب اسمه، فجرى النادل إلى المشرب وتثبَّت في القائمة ثم تقدمهما إلى داخل المطعم، وأشار لهما بمائدة صغيرة في ركن شبه مظلم، تنيرها الشموع التي تتراقص في شمعدانات فضية. بعد أن جلسا متقابلين قالت وردة بصوتٍ خافتٍ:

- C'est romantique!.

قدَّم لهما النادل دفترين مغلفين بالجلد البُني، داخلهما قائمة الطعام. انحنى حسيب على وردة وسألها:

- هل تشربين الشمبانيا؟.

قالت ضاحكة:

- لا بُد أنَّك ربحت في اللوتو!.

- قبضت راتبي بالمستشفى.

- لا شكّ أنَّه راتب معتبر لتسمح لنفسك بشرب الشمبانيا في مطعم كهذا.

- لا عليك. الدنيا فانية.

- ما دامت تلك رغبتك فسأشرب الشمبانيا.

نادى على النادل وطلب الشمبانيا. ثم انغمسا يقرآن قائمة الطعام. رفع رأسه فوجدها في حيرة، سألها:

- هل ترغبين أن أختار لكِ؟.

- يظهر أنك خبير في هذا الميدان.

- سنطلب نفس المأكولات، وهي لذيذة وقد جربتها.

عندما قدِمَ النادل يحمل كنشًا وقلمًا، أملى عليه حسيب:

- صحنان من كبدية البط، وصحنان من سمك موسى، وكعكة بالفستق والمشمش.

عاد النادل ووضع على الطاولة كوبين طويلين خاصين بالشمبانيا، وسطلاً فضيًا صغيرًا داخله قارورة خضراء تطفح في مكعبات الثلج، سكب لكل منهما قليلاً من الشمبانيا، وترقب حتى قال له حسيب:

- جيد.

انصرف، ثم عاد يحمل صحون الطعام، وضعها على الطاولة، وتمنى لهما شهية طيبة.

كان الطعام لذيذًا ونبيذ الشمبانيا جيدًا، فانهمكا يأكلان، ويتذكران أيام الطفولة، عندما كانت وردة تقضي جزءًا من الصيف بالمرسى تستحم وتلهو مع أطفال خالتها، وكان حسيب بارعًا في رواية الحكايات الطريفة، ووصف الشخصيات المضحكة، غريبة الأشكال واللهجات، وكان من حين لآخر يسكب لها الشمبانيا، وهي في زهو ومرح. لمَّا مسك بيديها بين يديه وقبَّلهما قائلاً:

- لا بُد أني كنت مغفَّلاً، بنت خالتي بكل هذه الرقَّة و لم أتفطَّن!.

قالت له بدلال:

- ها أنت تفطَّنت.

- سأعوِّض كل ما فاتني.

عندما بدآ يأكلان الكعكة، كانت وردة في قمَّة النشوة، أثَّرت فيها الشمبانيا، فأصبحت تضحك لأتفه النُكت، وتنظر إلى حسيب وعيناها يملأهما المرح، لكن حسيب بقي على تماسكه، أفرغ لها ما تبقى من قارورة الشمبانيا، وظلَّ ينظر إليها مبتسمًا. وفجأة أخذت تغني: "آه الحب... ما أقصر العمر حتى نضيعه في النضال ... آه الحب..".

قال لها مشجعًا عندما صمتت:

- أي نضال؟. ومن أجل من؟. الدنيا جميلة، والعمر قصير، والحياة ممتعة. أستغرب أن تستهويك تلك الخطب الرنانة لشباب يعوِّض عن الكبت بما يسمونه النضال.

لم تقل شيئًا، إذ كانت في وضع لا يسمح لها بالنقاش، كان ضباب الكحول يغشي عقلها. عادت إلى الغناء: "الصبا والشباب.."، وتمادت تغني بصوتٍ خافتٍ وهو يصغي إليها بانتباه. قال لها عندما صمتت:

- لم أعرف عندك هذه الموهبة!.

- لا تهزأ منِّي إني نشوانة، وأريد أن أخرج من قشرتي، فلا تُثر عقلي من فضلك.

- انحنى عليها وهمس في أذنها:

- هل ترغبين في أن أثير حواسك؟.

ضحكت بصوتٍ عالٍ وقالت متلعثمة:

- أعرفك غبيًّا منذ زمان، لكنك أكَّدت لي قناعتي بسؤالك هذا.

واندفعت تضحك بصوتٍ عالٍ، ثم وقفت مترنِّحة وقالت له:

- لا تقلق سأعود بعد قليل.

تحاملت على نفسها وتوجهت إلى المرحاض، تمشي ببطء متحاشية النظر إلى الموائد الملآنة من حولها. في بيت الراحة، نظرت في المرآة إلى وجهها، ولاحظت مدى شحوبه. بللته بالماء البارد، ثم عادت تضع عليه المساحيق. أحسَّت بشيء من الراحة، لكنها ظلَّت تنظر إلى وجهها، وهي تفكِّر. قالت في نفسها: "كم أنت غبي يا حسيب، تريد شراء جسدي بعشاء في مطعم، لن يكون لك ذلك".

عادت إلى المائدة، وقد وجدت بعض التوازن في مشيتها وحتى في تفكيرها. وهي تنحني لتجلس، ظهر عري الثديين، واكتشف حسيب أنَّها لم تكن تحمل رافعة النهدين، فازدادت شهوته، وسمَّر بصرَهُ في جسدها يعريه، لكنها تغاضت عنه، وأخذت سيجارة وطفقت تدخِّن، وتنفث الدخان أمامها. قال لها مبتسمًا:

- يظهر أنَّك تعلمت التدخين حديثًا.

قالت له بحدَّة:

- ومن أدراكَ؟.

- طريقتك في التدخين، إنك لا تخزنين الدخان في رئتيك.!

- أنت على صواب.

- لكن لذَّة التدخين في ذلك التخزين حتى يصل الدخان إلى تسميم الدم والدماغ.

- شكرًا سيِّدي الطبيب، أدخن لأعبِّر عن رغبتي في الفعل.

قال لها بصوتٍ خافت:

- كم يعجبني تشنُّجكِ، تظهرين كالفرس الجموح.

- وهل تحسن ترويض الخيل؟.

- تعرفين مدى ولعي بها.

- أعرف ذلك جيدًا، لكني مع الأسف الشديد لست بالفرس ولا بالحصان. أنا امرأة أعشق الحرية، ولن يمتلكني رجل.

- العلاقة بين المرأة والرجل ليست مقايضة، إنها تبادل للذة...

- إنها الحب، والحب سموٌ يا سي حسيب.

- جميل.

- انقُدْ النادل ولنخرج.

خرجا إلى الشارع، كان ليل باريس الزاهي ينشر النور في كل مكان، ورذاذ الرطوبة الربيعية يتساقط خفيفًا، فانتعشت، وتخلَّصت من تأثير الشمبانيا، احتواها بذراعه الطويلة، وقال لها:

- لا أريدك أن تغضبي في عيد ميلادك، اهدئي قليلاً، اغرفي من ملذات الدنيا، واتركي عنك تلك الأفكار الطوباوية.

نظرت إليه مبتسمة وقالت:

- هل تبحث عن غانية؟.

- كم أنت صعبة المراس!.

وقفا على الجسر ينظران إلى اللسان يسير في طريقه إلى البحر، ضمَّها إليه وهمس:
- هل ترغبين في الذهاب إلى المرقص؟.

لم تلتفت إليه، كان تلاطم الماء تحت أشعَّة الفوانيس يشدُّها، لكنها فجأة التفتت إليه وقالت:
- فكرة جيدة.

لم يكن المرقص بعيدًا، دخلا من باب صغير يحرسه رجل طويل القامة مفتول العضلات. صعدا الدرج، وفتحا بابًا عريضًا واندفعا بين المرافق، والضجيج وسحاب الدخان والنور الأحمر. جلسا في ركن غير بعيد عن حلبة الرقص، فقدم النادل. سألها:
- تشربين الكنياك؟.
- أشرب كل شيء، ما دمت في حمايتك.

شربت الكُنياك، ورقصت معه، ولم تتأثر للمساته، وهو يمرِّر يده على ظهرها العاري، وهو يحتكُّ بها، وهو يهمس لها بكلام معسول. كان الكُنياك قويًا فسكرتْ من جديد، ولم يعد لوعيها من وجود. عندما خرجا من المرقص في ساعة متأخرة من الليل، استقلا سيارة تاكسي، كانت لا تشعر بالمكان ولا بالزمان. وصلا إلى عمارة في شارع ضيق غير بعيد عن ساحة الأمَّة، أخرجها من التاكسي بصعوبة، وكانت شبه نائمة، ساعدها على تخطي عتبة العمارة، ثم باب المصعد، وفتح باب شقته الصغيرة في الطابق الأخير، وحملها بين ذراعيه حتى غرفة النوم، وضعها على سريره، انتزع منها فستانها الأنيق، وحذاءها ذا الكعب العالي، وهي في شبه غيبوبة. عندما ظهر جسدها عاريًا، غضًا، أبيض، اغتصبها. ولما أحسَّت به، حاولت دفعه لكنه تمادَى حتى النهاية.

لم تعِ ما حصل لها إلاَّ عند الصباح، لمَّا نهضت ووجدت نفسها في السرير عارية وهو بجانبها عارٍ، يغطُّ في النوم. فهمت كل شيء.

(٣١)

في صباح يوم السبت نهض العاتي باكرًا، استحمَّ في الدُّش البلدي، لبس رداءً نظيفًا، وانطلق مرحًا إلى لقاء حبيبته. كان شوقه إليها كبيرًا، وكانت أحلامه عظيمة. وصل أمام المبيت، نظر في ساعته كانت تشير إلى العاشرة صباحًا. قال في نفسه: "لا بُد أنَّها نهضت". دفع الباب البلوريَّ، قابلته الراهبة على المكتب بابتسامة عذبة.

- أرغب في رؤية الآنسة وردة الباشطبجي.

أدارت أرقام الهاتف بثقة، ترقَّبت ثم تبادلت بعض الكلمات مع السماعة. وضعتها والتفتت إليه، وقد اختفت ابتسامتها، أعلنت:

- الآنسة مريضة ولا ترغب في رؤية أحد.

- هل يمكنني أن أخاطبها لحظة؟.

أعادت الطلب، ثم مدَّت له السماعة:

- ألو هنا العاتي، ما بك؟.

ظلَّ يستمع إليها بعض الوقت، ثم أرجع السماعة وغادر المبيت حزينًا. تسكَّع في شوارع باريس النشطة وهو يراها قفرًا. لقد بعثرت كل ما حلم به طيلة أسبوع كامل. ولم يستطع أن يتأكَّد من أنَّها كانت مريضة حقًا، أو أنَّها تراوغ. بعد فترة من التفكير وهو جالس على مقعد على ضفة السان، اندفع إلى إحدى غرف الهاتف المنتشرة في ساحات باريس، وهتف لها. سألها إن كانت ترغب في أن يحملها إلى الطبيب، وأن يشتري لها الدواء، فطمأنته أنَّها ليست بحاجة إلاّ إلى الراحة. عندما سألها عن موعد لقائهما قالت له أنَّها ستتصل به في شغله.

انقشعت ظنونه، وقفل راجعًا إلى غرفته. استلقى على السرير وظلَّ يفكِّر. أشياءٌ كثيرة تعاقبت على مخيلته، تذكَّر أمَّه، وحيَّه، وأزقة المدينة العتيقة وروائحها، ولون البحر، وحرارة الصيف. قال في نفسه: "كم هو جميل بلدي، لكن يهيمن عليه اللصوص". التفت إلى الرفِّ المعلَّق على الجدار، صنعه حديثًا ليضع عليه كتبه، فجلب انتباهه كتابان مسفَّران. نهض وأخذهما، وتصفَّحهما بعض الوقت، ثم عاد يستلقي حاملاً بين يديه أحد الكتب. كان الكتاب يحمل عنوان: "معالم الطريق" لسيد قطب، أعطاه له صديقه المغربي. استرسل في قراءة الكتاب حتى ساعة متأخرة من الليل. هذا فكر جديد بدأ يكتشفه، فكر يتماشى مع عهد ربما اندثر لكنه ما زال يحنُّ إليه من خلال أحاديث أمِّه عن القبائل العربية التي تصدَّت للاستعمار، وللاحتلال، وللهيمنة".الحاكم كافر لأنَّه لا يحكم بشريعة الله، والرعية كافرة لأنَّها لا تثور على حكام كفروا بدين الله، ولم يتبقَّ للمسلم سوى الجهاد في سبيل أن يحكم المسلمين شريعة الله، أو الهجرة لبلاد تحكمها شريعة الإسلام". غريب هذا التفكير في عصر تحكمه الشريعة الدولية من خلال قوانين الأمم المتحدة. أخذ يكرِّر داخله، وهو يلتهم تحاليل الكاتب. كان النثر جميلاً والكلمات مؤثِّرة والمنطق متسلسلاً كحبات المسبحة.

وجد نفسه يُردِّد: "إذا كان الله أتى بشريعته لتحكم الناس بالعدل والإخاء والسلام، فما بالهم منصرفين عنها. لقد كفروا بنعمة الله عليهم". كانت كلمات سيد قطب تطن داخله، تنغرس في أعماقه، تطفو على سطح ذاكرته، فتمحو كل ما سبقها من أفكار موضوعية، كان قد تبناها في بداية شبابه، وهي تدعو كذلك إلى المحبة والإخاء والعدالة، لكن عن طريق الفكر المادي الذي لا يعترف بالسماء كمشرِّع للحياة الدنيا. كان مجلد سيد قطب يحتوي على عدَّة كُتب، وقد قرأ في أحدها فقرة أثارته، عاد يقرؤها بصوتٍ عالٍ: " هم لا يستطيعون أن يشرِّعوا لأنفسهم؛ وليست لديهم القدرات والاستعدادات الضرورية لوضع منهج لحياتهم هم أنفسهم، لأنهم يجهلون أنفسهم، ويجهلون مآلات تصرفهم ورغباتهم..". وضع الكتاب وظلَّ يفكِّر. احتار في فهم أن الإنسان غير قادر على سَنِّ تشريع يتماشى والوضع الذي يعيشه، بل عليه أن يتبع شرع الله، ولكن لفهم

شريعة الله لا بُد من شرحها من قِبل الإنسان، وقد تختلف التأويلات والشروح!. أحسَّ بالإرهاق، فوضع الكتاب على الرَّف، وقبل أن يستسلم للنوم، أخذ المصحف وانطلق يقرأ. بدأ بالسور القصيرة، ووعد نفسه أنَّه سيقرأ كل ليلة قبل أن ينام بعض السور حتى يأتي على كل أجزائه.

ظلَّ على تلك الوتيرة من القراءة الليلية مراوحة بين سيد قطب وتلاوة القرآن طيلة الأسبوع. لم تتصل به وردة، ولمَّا حاول الاتصال بها لم ترُدَّ. قالت له عاملة الهاتف: "إنَّها لا ترغب في إجابة أحد". وفي يوم السبت توجه إلى مبيت الفتيات، ولمَّا رأته الراهبة، ابتسمت له ابتسامة ودٍّ وقالت له قبل أن يطلب منها شيئًا:

- لقد رحلت وردة.

نزل عليه الجواب كدشٍّ بارد. سألها إن تركت عنوانًا، فأومأت له بالنفي. قال متمتمًا:

- يا للمصيبة!. أهذا معقول ؟. أتتركني هكذا دون سبب؟.

نظرت إليه الراهبة بحسرة، ثم قالت:

- اترك لي رقم هاتفك سوف أطلبك إذا تحصلت على عنوانها أو رقم هاتفها.

سجَّل رقم الهاتف في الشغل ومدَّ لها الورقة، ثم انصرف ببطء، وقبل أن يدفع الباب البلوري قالت له الراهبة:

- هل لديك فكرة في أي كلِّية تدرس؟.

التفت إليها وقد لمع في عينيه بريق أمل، قال متردِّدًا:

- لم يخطر ببالي أن أسألها، لكني أعلم أنَّها تدرس في علم الاجتماع.

بعد فترة من التفكير وهو حاني الرأس، قال لها:

- سأبحث عنها في جميع كليات باريس.

وقبل أن يغادر المبيت قال للراهبة بحماس:

- إن وجدتها سأعلمك.

قالت له الراهبة بالعربية:

- الله في عونك.

لم يترك العاتي كلِّيةً باريسيةً إلاَّ وزارها واسترشد عن حبيبته، لكن كل مساعيه باءت بالفشل. اتصل بمارك تيبو و لم يجد عنده ما يشفي غليله. طرح على نفسه كل الأسئلة، و لم يجد جوابا يطمئنه عليها، ولا أي تعليل لذلك الاختفاء المفاجئ. بابٌ واحدٌ لم يطرقه وهو السفارة التونسية. ذلك المكان خطير عليه ولذا لم يفكِّر فيه. واقتنع أخيرًا أنَّها ربما تكون اختفت مع ذلك المائع حسيب، أو رجعت إلى تونس لتعيش حياة برجوازية هادئة بعيدًا عن حلبات النضال وأخطاره.

كان عزاؤه الوحيد في تلك الفترة من الحيرة والشوق، الكتب الصفراء الذي يمدُّه بها صديقه المغربي. اطَّلع على الفكر الديني المتطرِّف الداعي إلى إرساء دولة الإسلام على أسس سلفية. واقتنع تدريجيًا أنَّ تعاسة المسلمين متأتية من ابتعادهم عن مبادئ دينهم الذي جاءهم بما لم تأت به الأوائل، وهو صالح لكل زمان ومكان، وهو الهادي إلى طريق المستقيم، وهو مخلِّص البشرية من الظلم وعبادة الأصنام. كانت قراءاته لتلك الكتب تُنسيه همومه، وتخفف عنه غربته، وتدفعه إلى الخروج من هذا العالم الضيق الذي حشر نفسه فيه: الوحدة بين آلاف البشر الذين لا ينظرون إليه إلا بتشنُّج واحتقار.

في أحد أيام الجمعة أتاه صديقه المغربي إلى غرفته، طرق الباب، فأدخله، بعد الحديث عما تعانيه الجالية العربية من عنصرية، وهي أحاديث يتناولها كل العرب عندما يلتقون، سأله المغربي:

- لماذا لا تصلي الجمعة معنا في مسجد باريس؟.

ارتبك العاتي، لم يأخذ قراره بعد ليلبي فرائض دينه. لم يقل ذلك لصديقه بل سأله:

- وفي أي ساعة تكون صلاة الجمعة؟.

- عند الثالثة تقريبًا.

- لا يمكنني أن أترك عملي في تلك الساعة.

- تحدَّث إلى مشغِّلك ربما تجد عنده التفهُّم، إنَّهم يحترمون الطقوس الدينية.

ومن الغد قرَّر العاتي أن يبدأ في الصلاة. وعندما جاء يوم الجمعة كان قد اتفق مع مشغِّله أن يمكِّنه من الخروج باكرًا في ذلك اليوم على أن يعوِّض ساعاتِ غيابه. وبعد صلاة

الجمعة تعرَّف على شباب مثله قرأ لسيد قطب ولحسن البنا ولغيرهما كتاباتهم عن ضرورة إرساء المجتمع الإسلامي المبني على الشريعة وكلمة الله.

♦♦♦

دأبت وردة منذ نعومة أظفارها على أن لا تجعل جسدها مركز حياتها. كانت في صباها نحيفة، قصيرة القامة، قليلة العناية بأناقتها، كان اهتمامها الوحيد أن تتفوق في الدراسة. فلم تجلب انتباه الشبان من أقربائها، ولم تكن تشاطر البنات من جيلها اهتمامهن بلعب البنات، وتناقلهن أخبار العلاقات الغرامية التي كانت تُعقد بين الشبان والشابات. وما إن وصلت سِنَّ المراهقة حتى تعرَّفت على عالم جديد استهواها، وأخذ كل أوقاتها وطاقاتها، وهو عالم الفكر من خلال الكتب والأفلام ونقاشات نادي السينما. وقد تغلَّبت نوازعها الفكرية على غرائز جسدها فلم تعط للشأن الجنسي اهتمامًا كبيرًا، بل كانت تنفر من الشبان الذين يتقربون إليها مستلطفين أو مغازلين. وكان العاتي حبها الأول، ومغامرتها العاطفية الأولى. وقد اكتشفت معه لذَّة الجسد وسعادته. وكانت راضية عن تلك العلاقة لأنها لم تكن تستجيب إلى قوانين اجتماعية تعتبرها منافقة مراوغة تعبِّد لطريق واحدة: حشر الفرد في بوتقة المجتمع من خلال قوانين الأسرة وطقوسها. ولمَّا كانت رافضة لتلك القوانين، ولهرمية المجتمع فقد كانت ترى في الأسرة نواةً للتسلُّط وأداةً لخنق حرية الفرد.

كانت ترى في العلاقة الغرامية الحرة تحررًا، وفي الجسد قيمة لا يمكن مقايضتها، وفي الجنس وسيلة للتعبير عما تختزنه النفس من رفض لكبت المجتمع. هكذا كانت تجد سعادتها في علاقتها مع العاتي. واليوم بعد ليلة الاغتصاب رأت كل ذلك الصرح يهوي، وكل تلك الأفكار تتحلل، وكل تلك التطلعات تصبح سرابًا.

عندما نهضت في صباح تلك الليلة الحمراء السوداء، ووجدت نفسها في فراش حسيب، عاريةً تمامًا، دفعت الغطاء، والتفتت إليه: كان يغطُّ في نوم هادئ. ثارت ثائرتها، لكنها لم تفعل شيئًا. ظلَّت لحظة تستعرض وضعها، ثم خرجت إلى الحمام، وطفقت تتقيأ حتى أحسَّت بأحشائها تندفع خارج بطنها. بعد فترة من الاستراحة، بللت خديها، ونظرت

في المرآة إلى وجهها المصفر وشعرها الأشعث، وعينيها المحمرَّتين. أجهشت بالبكاء بصوتٍ مكتومٍ، ثم عادت إلى الغرفة، ما زال حسيب يغطُّ في نومه الهادئ. لبست الفستان الأسود، والحذاء ذا الكعب العالي، أخذت حقيبتها وتوجهت إلى باب الشقة. قبل أن تتخطى العتبة، التفتت إلى الحمام فرأت سطلاً من البلاستيك أحمر. تراجعت، ودخلت الحمام، ملأت السطل بالماء البارد، وتوجهت به إلى غرفة النوم. وبكل برودة دم، انتزعت الغطاء عن حسيب، فظهر جسده العاري، صبَّت عليه محتوى السَّطل وركضت إلى خارج الغرفة يصحبها عويله. أغلقت الباب بكل قوة ونزلت الدرج. أمام باب العمارة أشارت إلى تاكسي أوصلتها إلى المبيت، صعدت الدرج متثاقلة، ثم ولجت غرفتها وارتمت على السرير، وانفجرت بالبكاء.

أحسَّت بالخيبة، وانهارت كل المقوِّمات التي بنت عليها نظرتها للعالم. لم تشعر يومًا في حياتها بذلك الضعف والهوان. أحسَّت أنَّ إنسانيتها التي كانت تعتزُّ بها قد تلاشت، ولم يعد ممكنًا أن ترى نفسها تسير في الطريق مرفوعة الرأس، معتزَّة بشبابها وبجسدها وبحبِّها للدنيا. لولا صلابة شخصيتها لفكَّرت في الانتحار، لكنها لم تفكِّر حتى في الانتقام. اعتبرت حسيب حيوانًا من بقايا الشمبتري، تصرَّف بفطرته الحيوانية. قضى حاجةً غرستها الطبيعة فيه، كما غرستها في كلِّ ذكور الثدييات المنتشرة على وجه البسيطة.

كان إحساسها بالدنس كبيرًا. كم من مرَّة استحمّت وهي تفكِّر في تطهير جسدها مما علق به من آثار تلك الليلة الشنعاء. وفي يوم من الأيام قررت أن ترحل عن باريس، كانت لها صديقة تدرس في ليون، خاطبتها واتفقت معها على أن تأتي إلى ليون لتسجل من جديد في إحدى كلياتها. ورحلت دون أن تترك عنوانًا، غادرت باريس وهي تشعر أنَّ الدنيا مملوءة قذارة. عندما خطر ببالها العاتي، صدَّته خائفة، لن يمكنها أن تفكِّر في رجل وهي في تلك الحالة. فالاغتصاب أشنع اعتداء يمارس على بني البشر، يحطِّم كل مقومات الشخصية، ويبعثر تماسك الإنسان، ويجعله ينفر من جسده، ومن الآخر.

كان حبها للعاتي مثل حبها للحياة، تريدها أن تكون صافية نقية كالماء الزلال. وكان العاتي طاهرًا في حبه، لم تدنِّسه أنانية الذكر الذي رُبِّيَ على تطويع المرأة لإرادته الجنسية

والنرجسية. فلم تقدر أن تعود إليه وهي كسيرة. كان خوفها شديدًا من أن ترى في علاقتها به نوعًا من الاغتصاب، وقد أصبح كل الرجال مغتصبين في نظرتها للدنيا بعد تلك الليلة. ولم تكن تنقصها تحاليل فرويد ولا ولهام رايش، ولا كتابات سيمون دي بوفوار، وهي التي ساعدتها على بناء تصوُّرها للتحرر والانعتاق من الهيمنة كيفما كان مصدرها.

كانت تجلس في القطار في الاتجاه المعاكس لسير العربة، فترى الأشياء تأتيها من الخلف وكأنها تتلاحق راكضةً نحو الماضي. كانت تركز تفكيرها على المستقبل: ماذا ستصنع للمِّ شتات نفسها المبعثرة؟. أحسَّت أنَّ فترات حياتها لم تعد منضبطة كما كانت تراها، فقد اعتراها الخلل، وتبعثرت مثل سبحةٍ انقطع حبلها. كانت تحسُّ أن ما وقع لها رجَّ كل كيانها، وأفقدها توازنها، والقدرة على ترتيب الزمن. مضت خمسة أيام على الحادثة، لكنها لم توفَّق إلى الخروج من قاع اللُّجة التي أحسَّت أنها وقعت فيها، بل شعرت أنَّ تعاقب الأيام تزيدها ضياعًا، وتعمِّق عزلتها. كان أملها أن تجد عند صديقتها في ليون بعضًا من الدفء الإنساني ربما يساعدها على إعادة التوازن لشخصيتها المنهارة.

كانت الرحلة طويلة، أربع ساعات من الجمود. لم تحمل معها كتابًا ولا مجلَّةً تعينها على تمضية الوقت. فقدْ فَقَدَ الزمان معالمه، ولم ترَ المشاهد الطبيعية الخلابة المطلَّة عليها من نافذة القطار، فلم يعد يسليها شيء، ولم تنظر إلى المسافرين معها في نفس المقصورة، لم تكن ترغب في رؤية البشر، نشأ عندها خوف من نظرتهم. ظلَّت تجلس مستقيمةً، شاردة البال، حتى أعلن صوت نسائي وصول القطار إلى محطة ليون. أخذت حقيبتها بتأنٍّ ثم نزلت، وظلَّت فترة من الزمن واقفة على الرصيف حتى خلت المحطة. اندفعت نحو فتحة في الرصيف ونزلت الدرج متباطئة، وانعرجت في دهليز طويل مؤجَّج بنور الفوانيس حتى وصلت القاعة الفسيحة المكتظة بالمسافرين. واصلت سيرها بخطوات متثاقلة بين المسافرين حتى ساحة كبيرة تحفُّ بها عمارات فاخرة واجهاتها مرمرية، وشرفاتها مزدانة بالأزهار. توجَّهت إلى سرب عربات التاكسي، فاستقلَّت إحداها ومدت السائق بالعنوان، وبعد بعض الدقائق وصلت إلى شقَّة صديقتها.

صعدت إلى الطابق الثالث لعمارة قديمة بُنيت خلال القرن الماضي، لكنها كانت نظيفة وأنيقة، درجها من الخشب الملمَّع بالشمع، تغطيه طنفسة حمراء نظيفة رغم قدمها. وقفت أمام باب الشقة، كان الباب من الخشب القديم يلمع تحت نور الفانوس المعلق في واجهة الشقة. لم تستغرب أن تسكن صديقتها مثل هذه العمارة الأنيقة التي لا تسكنها سوى طبقة البرجوازية الليونية المحافظة. فصديقتها من أسرة ساحلية غنية. تعرَّفت عليها في المعهد الفرنسي بتونس؛ حيث تابعا معًا دراستهما الثانوية، وقد سافرت إلى فرنسا لتدرس الفلسفة.

مدينة ليون لها خاصية بين المدن الفرنسية، فهي محافظة على الطابع المعماري لفرنسا القرن الماضي، وبرجوازيتها تعتزُّ بماضيها المجيد منذ العهد الروماني، إذْ كانت عاصمة للغاليين، سكان فرنسا الأصليين، ثم عند النهضة في أواخر القرون الوسطى أصبحت عاصمة الحرير، وإثر الثورة الصناعية كانت من أكبر المدن التي ساهمت في بناء الصناعة الفرنسية والمحافظة على نقاء اللغة الفرنسية، وكانت عاصمة المقاومة إثر الاحتلال النازي أثناء الحرب العالمية الثانية. ولكن أهلها يخافون الأجنبي ولا يرومون الاختلاط به. فترى المدينة منقسمة إلى أحياء شعبية يسكنها كل من هبَّ ودبَّ، وأحياء محافظة لا يسكنها سوى أهل ليون العريقين أو من يملك المال أو الجاه ليقتني أو يسوِّغ شقة في مثل تلك الأحياء. أمَّا الطبقة المتوسطة من سكان المدينة الثانية للإمبراطورية الفرنسية — ليون — فيقطنون مدينة تُدعى فيلوربان؛ حيث العمارات الشاهقة تجمع العمال وأبناء الطبقة المتوسطة. أنْ تقطن نبيلة صديقة وردة الحيِّ البُرجوازي لليون ليس غريبًا، فوالدها متحصِّل على الجنسية الفرنسية منذ الاحتلال الفرنسي لتونس.

بعد فترة من التردُّد ضغطت على زرٍّ ذهبي يلمع. ترقبت بعض الوقت وفُتح الباب، واحتضنتها صديقتها معانقة، ثمَّ أدخلتها الشقة ورحبت بها أيَّما ترحاب. جلستا في الصالون الفسيح على أرائك من الجلد الأسود، كانت القاعة مزدانة بثريا من الكريستال وعلى جدرانها لوحات جميلة. ظلَّت وردة تنظر في أرجاء الصالون متعجِّبة من كلِّ هذا الرفاه، ثم سألت صديقتها:

- تقطنين لوحدك؟.

- لا. تسكن معي طالبتان أمريكيتان.

اضطربت وردة وقالت متشنِّجة:

- لمْ تقولي لي أنك تشاطرين آخرين السكن.

- سوف ترين كم هما طيِّبتان.

- متى ستعودان؟.

- لم تخبراني، لكن لا عليك فأنت في شقَّتي، أو بالأحرى شقَّة أسرتي. متى أتيت من البلد؟.

- منذ خمسة أشهر.

نهضت ثم سألتها:

- تشربين ويسكي؟.

- لا. أريد كأسًا من الماء فقط.

- الناس هنا لا يشربون الماء. سآتي لك بعصير.

- لا أريد غير الماء من فضلك.

- لا يوجد عندي ماء معدني وماء الحنفية ثقيل.

- فليكن ماء الحنفية.

عندما عادت سألتها:

- ما هي أحوال البلد؟.

- زفت!.

ضحكت نبيلة ضحكة عالية. وظلَّت تنظر إلى صديقتها فترة من الزمن، ثمَّ سألتها:

- ما لك حزينة؟. أحدث شيء في أسرتك؟.

- لا. لم يحدث أي سوء، لكني أحس بإرهاق شديد، و لم أتحمَّل ضجيج باريس، فقلت ربما تكون ليون أفضل.

- ستجدين كل الراحة هنا.

(٣٢)

بعد صلاة الجمعة بجامع باريس التقى العاتي بثُلَّة من الشبان المصلِّين الذين تعرفوا حديثًا على الفكر السلفي. كانوا من جنسيات مختلفة، كلّهم من شمال إفريقيا. التقوا في مقهًى على حافة السان، وانزووا في أحد أركان قاعته الفسيحة، وأخذوا يتجاذبون الأحاديث. كانت أخبار الحرب في أفغانستان تهيمن على كل الأحداث". هذا الدب الشيوعي يريد ذبح المسلمين في عقر دارهم، يقتلهم بالنابالم، وبالأسلحة الفتاكة، يريد تطهير المنطقة من الوجود الإسلامي، هذه البلاد التي وصلها الإسلام في عهود الخلفاء الراشدين، تطلب نجدة كل المسلمين، لا بُد من محاربة الكفرة وحماية دين الله". هذا خطاب آخر لم يتعوَّد عليه العاتي، ولكنه هزَّ مشاعره وحماسه لقضية إنسانية ودينية في آن واحد. لم يقل كلمة، غير أنَّه كان يتبع أحاديث الآخرين بكل انتباه.

عندما انفضت الجلسة، خرج مع صديقه المغربي ومعهما شاب جزائري يقطن نفس المنطقة، واستقلوا المترو عائدين إلى كليشي. كان الشاب الجزائري رجلاً قوي البنية، مفتول العضلات، يتحدَّث بفرنسية طليقة. كان يشتغل ممرنًا لرياضة الكاراتيه، فدعا العاتي إلى القاعة التي يمرِّن فيها، وقبل الدعوة، ولم تمض بعض الأيام حتى استهوته تلك الرياضة، وأصبح من الممارسين لها.

لم ييأس العاتي من العثور على حبيبته، فحبّها ما زال يعمِّر قلبه، ويملأ خياله، وينغص حياته عندما يستولي عليه الشوق إلى لقائها. بحث عنها في كل الأماكن التي تصوَّر أنها توجد فيها لكنَّ مساعيه باءت بالفشل. ولم ييأس، كان يمنِّي النفس بأنها سوف تظهر فجأة في أحد شوارع باريس. ربما يلقاها صحبة ذلك المائع حسيب، فلن يتوانى في

الانقضاض عليه وتهشيمه. لكنه لم يتصوَّر كيف تنقطع عن الاتصال به فجأة دون أن تعطيه الفرصة ليفهم.

غير أنَّ حياته لم تعد خالية كما كانت من قبل، ترك العزلة وقد سرَّه مخالطة أناس من طينة أخرى، ومن تفكير آخر، وطموحات أخرى. كان مثاليًا في حياته، فوجد أناسًا مثله، يعتقدون في مثل لم يكن يعبِّر عنها بنفس الصيغة، لكنها لا تبتعد كثيرًا عن مثله: فعل الخير، والتضحية في سبيل الله، والسمو بالروح. وكانت العنصرية التي يلقاها من زملائه في العمل تدفعه إلى التفتُّح أكثر على أصدقائه الجُدد، فهم يشاطرونه المحبَّة، والكرم، ونكران الذات. وكانت الحياة الرتيبة التي يعيشها بين العمل وغرفته تدفعه إلى التطلع إلى أفق أرحب. ولم تؤثِّر فيه العروض اللامعة للسلع الكثيرة التي يوفِّرها مجتمع الاستهلاك لأنَّ المظاهر لا تغريه. ولكنه لم يتفطَّن إلى أنَّه كان يُستدرَج إلى الانخراط في تنظيم سري، له مخططات أكبر من الدعوة إلى الإيمان، ومحبة الله، والذود عن دينه. كانت خيوط التنظيم لا تُرى، ومخططاته لا تُعلن، وأعضاؤه أشباح تستَترُ وراء أدبيات باهرة تسحر ببساطتها، وصيغها البعيدة عن التفلسف وكثرة التحاليل. فكلام الله أقوى من كل كلام لأنَّه لا يحتمل الشك. وهم بارعون في صياغة كلام الله حسب أهوائهم، وعقائدهم، ومخططاتهم. ولم يكن العاتي من طينة المثقفين المحللين للخطب الأيديولوجية حتى تظهر حقائق وراء الخطاب الديني الداعي إلى المحبة والإخاء وهو يحضر لزجه في متاهات لا يمكنه الخروج منها بسهولة.

لكن العاتي رجل المغامرات، خاصة إذا كانت ذات طابع نضالي. كانت الثلَّة التي اندمج فيها تتكون من خمسة أشخاص: المغربي علاَّم، رجل لطيف وسخي لا يبخل على المجموعة بسهرات ليلية في بيته في بهو العمارة التي يحرسها، فيشبعهم مأكولات مغربية لذيذة، وشايًا أخضر لا يعرف سرَّه تهيئته سوى أهل المغرب، وحلويات بالفواكه الجافة والعسل تنعش النفوس وتقرِّب القلوب إلى بعضها، فتولَّدت بينهم أواصر الأخوة والمحبة زادتهم لحمةً وانسجامًا. وكان الجزائري الرحموني، الرجل القوي ذا العضلات المفتولة والعينين العسليتين الصغيرتين المتقدتين لا يحسن التخاطب بالعربية؛ ولكنه أخذ يتدرَّب

على نطق بعض الكلمات وحفظ القرآن، وتعلَّم الكتابة باللغة العربية. كان أقلَّهم فهمًا لأدبيات الدعوة، لكنه كان أكثرهم حماسةً لرفع راية الإسلام عالية والانتقام من الكفرة الذين أذلوا المسلمين وذبحوهم. أما بقية المجموعة فهمًا ممدو وعبدو، فرنسيين من أصل سنغالي، وُلدا بفرنسا، لكنهما كانا شديدَيّ التشبُّث بدين أجدادهما، وقد تعلما حديثًا اللغة العربية، وحفظا القرآن على يد قائد العشيرة الذي انتقل من السنغال خصيصًا ليساعد أهله على المحافظة على دين أجداده.

لم تكن للمجموعة مواعيد محددة ولا اجتماعات دورية، كانوا يلتقون بعد صلاة الجمعة في أحد المقاهي القريبة من الجامع، ثم يتنقلون إلى بيت علاَّم ليتمموا السهرة. كانت كلُّ نقاشاهم باللغة الفرنسية، لكنَّ علاَّم كان يترجم لهم من حين لآخر بعض المناشير التي يتلقاها من الشرق عن طريق البريد، أو يأتي بها بعض المسافرين. فكان بمثابة صندوق بريد التنظيم الديني الذي تنتمي إليه المجموعة دون أن يعلم أفرادها أنَّهم جزءٌ من تنظيم أخذ يرمي خيوطه على القارات الخمس للكرة الأرضية. كان المغربي العضو الوحيد الذي يعرف وجود التنظيم لكن لا يعرف منه سوى الاسم وبعض النشاط.

وفي أحد الأيام طلب منهم المغربي:

- من منكم يريد السفر إلى باكستان لتمضية عطلة أسبوعين؟.

بعد لحظة من الصَّمت، إذْ فاجأهم الطلب، سأل الرحموني:

- وكم تتطلب تكاليف الرحلة والإقامة هناك؟.

قال المغربي مبتسمًا:

- ولا فرنكًا واحدًا!.

قال الرحموني ضاحكًا:

- سجِّلني على رأس القائمة.

سأل العاتي:

- متى ستكون الرحلة؟

- في شهر أوت.

- أكون مع الرحموني.

ظلَّ السنغاليان صامتان، فسألهما علاَّم:

- لا ترغبان في السفر إلى الباكستان؟

- بلى، ولكن سنمضي العطلة مع الأسرة في السنغال، مناسبة أخرى إن شاء الله.

سأل العاتي علاَّما:

- ألا تأتي معنا؟.

- لا يمكنني ترك عملي.

عندما عاد العاتي إلى غرفته؛ كان فكره ما يزال مشغولاً بالرحلة الباكستانية. رحلة طويلة وإقامة أسبوعين مجانًا، لم يحلم بهذا السخاء ولو في الجنَّة. الباكستان آخر الدنيا، بلاد العجائب، ومغامرات ألف ليلة وليلة!. كل ذلك مجانًا!. لم يخطر بباله أن يسأل عمَّن سيموِّل الرحلة، لكنه كان مسرورًا، دنيا جديدة تتفتَّح إليه.

في شهر أوت أُغلق المصنع الذي يعمل به العاتي للعطلة السنوية، وتفرَّغ إلى تحضير مستلزمات السفر إلى باكستان. وبعد أسبوع سافر صحبة الرحموني على متن طائرة الخطوط السعودية إلى إسلام أباد.

سافر و لم يعد.

♦ ♦ ♦



الهادي ثابت

• خريج جامعة باريس كلية، الآداب، الأستاذية في الآداب الفرنسية المعاصرة.

• أستاذ اللغة الفرنسية وآدابها بالمعاهد التونسية، وبكلية الآداب بالجامعة المستنصرية ببغداد. من سنة ١٩٧٩ إلى ١٩٨٢م

• نال جائزة كومار الذهبي على روايته "القرنفل لا يعيش في الصحراء" سنة ٢٠٠٤

• منشط بالاشتراك مع الدكتور أحمد ذياب لبرنامج علمي "مسائل علمية" في إذاعة تونس الثقافية.

• مهتم بترجمة أدب الخيال العلمي. ترجم عدّة قصص للكاتب الفرنسي فيليب كورفال.

• ترجم من الفرنسية كتاب علمي استشرافي "الإنسان المتعايش" للعالم الفرنسي جوال دي روني

• يكتب بالجرائد والمجلات التونسية: الصباح، الحياة الثقافية، فسيفساء، المستقبل وغيرها..

• مؤلّفاته :

- غار الجن : رواية في الخيال العلمي صدرت ١٩٩٩ عن دار سيراس للنشر
- جبل علّيين : رواية في الخيال العلمي صدرت ٢٠٠١ عن دار سيريس للنشر
- القرنفل لا يعيش في الصحراء : نالت جائزة كومار الذهبية لأحسن رواية لسنة ٢٠٠٤
- لو عاد حنبعل : رواية في الخيال العلمي، صادرة في سنة ٢٠٠٥
- الاغتصاب : رواية، عن مؤسسة شمس للنشر والتوزيع، القاهرة ٢٠٠٨

• البريد الإلكتروني : hedithabet@gmail.com



شمس للنشر والإعلام

رؤية جديدة في عالم النشر

في مسعى جاد لتقديم رؤية جديدة تسهم في تصحيح العديد من المسارات في مجال النشر، تم تأسيس "مؤسسة شمس للنشر والإعلام" كخطوة على طريق إرساء أسس مشروع ثقافي متكامل يهدف إلى نشر الإبداع العربي في كافة التخصصات، وإثراء صناعة النشر، وتقديم إضافة حقيقية إلى مسيرة الكتاب العربي، وفق رؤى متوازنة تجمع ما بين طبيعة عملها كمؤسسة تجارية تتطلع إلى تحقيق الربح والانتشار، ومابين تحقيق رسالتها الثقافية.

ويرتكز عمل المؤسسة على منهاج "احترام الكاتب والكتاب" مادياً وأدبياً ومعنوياً، وفق عدة معايير تقوم على الالتزام التام بأخلاقيات مهنة النشر. وتسعى لتقديم رؤية جديدة لصناعة الكتاب تشمل الدقة في انتقاء المحتوى، والجودة في إخراجه وتصميمه وتنفيذه وطباعته، والاهتمام بنشره وترويجه إعلامياً ودعائياً، بما يضمن له؛ في النهاية؛ مكاناً بارزاً في مكتبة القارئ.

إننا في "شمس للنشر والإعلام" إذ نسعى لتجاوز العديد من السلبيات في مجال النشر، فإننا لا نزعم قدرتنا على إحداث طفرة أو ثورة في معايير النشر السائدة، بل نسعى إلى التكامل مع جميع المهتمين والمهمومين بأحوال النشر في عالمنا العربي، ونمد أيادي التعاون لكل صاحب حلم أو تجربة راقية في هذا المجال، إيماناً منا بأن العلاقة التي تربطنا بالمهتمين والعاملين في مجال النشر هي علاقة تكاملية لا تنافسية، وأن التعاون للرقي بالكاتب والكتاب، سيعود بالنفع على الجميع، بدءاً من المؤلف إلى المتلقي إلى الناشر.

شمس للنشر والإعلام

www.shams-group.net

(+2) 02 7023206 - (+2) 0188890065/64



(+2) 02 27270004 / (+2) 01288890065

www.shams-group.net